دكتور عبد الفتاح عاشور

المسلم

في عالم اليوم

بحوث في الأخوة، والموالاة وبناء المجتمع المسلم

الجزء الأول

القسم الأول

ط ـ الأولى: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م
ط ـ الثانيـة: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م
ط ـ الثـالثة: ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

الطبعة الثالثة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار محيسن
للطباعة والنشر والتوزيع

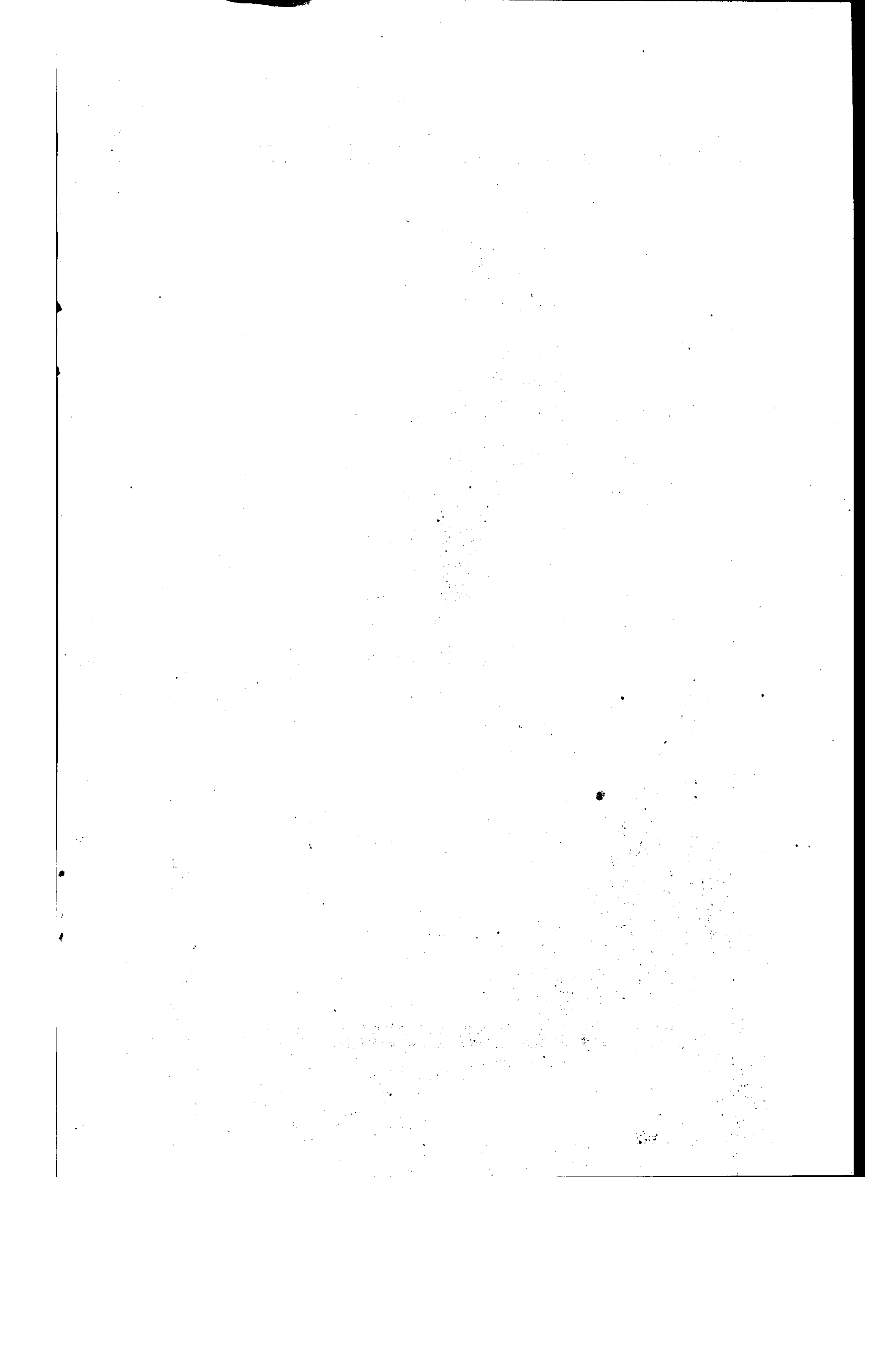
٤٢ طريق النصر (الأوتوستراد)
وحدة رقم ١ عمارات امتداد رمسيس ٢
مدينة نصر - القاهرة - ت: ٢٦٣١٤١٢ (٢٠٢)
ص.ب. ٨١٧٧ - مدينة نصر - الرقم البريدى: ١١٣٧١
المطابع: مدينة العبور - المجمع الصناعى - وحدة ٣٠٥
E-mail: dar_meheisen@hotmail.Com

رقم الإيداع: ٥٨٥٠ / ٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

(آل عمران: ٣/ ١٠٢، ١٠٣)



تقديم

حمدًا لله وصلاة وسلامًا على رسول الله، أما بعد:

فبين يديك - أخي الكريم - كتاب **المسلم في عالم اليوم**، بحوث في الأخوّة والموالاة وبناء المجتمع المسلم، في طبعته الثالثة، والأسباب التي دعت لإعادة طباعته هي تلك الأسباب التي تراها في مقدمة الطبعة الأولى، وقد صدرت - كما ترى - في ٢٥ من ذي القعدة ١٤٠٥هـ الموافق ١١ من أغسطس ١٩٨٥م، أي منذ أكثر من ثمانية عشر عامًا، كما تقرأ بعض هذه الأسباب في مقدمة الطبعة الثانية في ١٧ من شعبان ١٤١١هـ الموافق ٤/٣/١٩٩١م، وقد مضى على صدورها أكثر من اثني عشر عامًا، كنت أنتظر فيها انفراج الأزمة التي تمر بها أمتنا، لألبي حاجة الناس وأعيد طباعة هذا الكتاب، ولكن الأمور تجري على ما ترى من حال المسلمين، وحال العالم من حولنا، ولا عزة لنا ولا كرامة، بل ولا حياة لنا تستحق أن يقال لها حياة إلا إذا استجبنا لله ولرسوله كما قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٤]، وإصلاح هذا العالم وإخراجه من الظلمات إلى النور دَيْن في أعناقنا، لأننا الشهداء على الناس عند الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/١٤٣]، ولهذا لابد من تحرير ولائنا، ولمن يكون؟ بعد أن نكون قد أحكمنا صلتنا بربنا وترسّمنا خُطا نبينا محمد ﷺ، فحملنا رايته، واتبعنا سنته، واهتدينا بهديه، وكنا أهلا للشهادة على الناس، وأهلا ليكون - صلوات الله وسلامه عليه - شهيدًا علينا، والكتاب الذي بين يديك شعلة

على الطريق ومصباح يبدد الظلمات، يبين لك فى الجزء الأول من تحب ومن يكون لك صـديقًـا، ومن يجب عليك أن توثق بـه صلتك، وأن تكون أنت وهو كالبنيان المرصوص يشـد بعضه بعضًا، وقد جعلت هذا الجـزء قسمين: الأول: فى الأخوّة وحقوقها وفى بيـان قيمة الحب والبغض فى دين الله، ثم حديث مستـفيض عن التقوى والمتقين والتوبة والتـوابين والطهر والمتطهرين، والقسم الثانى: يبدأ بالحديث عن الصبـر والصابرين ومحبة الله لهم وما إلى ذلك ممن يحبهم ربنا ويجب عليك أن تحبهم، أما الجزء الثانى فسوف ترى فيه أصنافًا لا يحبهم ربنا كالكافرين والظالمين والمعـتدين والمسرفين والمستكبرين، كمـا تتعرف على الركـائز التى تقوم عليهـا حياتك من الإخـلاص والصدق والوفاء والأمانة، كما جعلت صفحـات هذا الجزء تالية لما قبله، فربما أحببت أن تجمع الكتاب كله فى مجلد واحد تحتفـظ به فى مكتبتك كما احتفظ به من سبقك ممن اقتنى هذا الكتاب، وقرأه منذ أعوام مضت.

أسأل الله الكريم ربَّ العـرش العظيم أن يهيئ لنا من أمـرنا رشدًا، وأن يثبت أقدامنا على طريقه، وأن يتقـبل منا ومنكم صالح الأعمال، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

أ.د/ عبدالفتاح عاشور

٢ من شهر رمضان المبارك ١٤٢٤هـ

٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٣م

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد.

فهذه هى الطبعة الثانية لهذا الكتاب: **المسلم فى عالم اليوم** تأتى بعد عدة سنوات من صدور الطبعة الأولى، تلبية لحاجة القرّاء والباحثين، وكنت منذ زمن أنتظر فرجًا قريبًا لهذه الأمة، حتى يستطيع أبناؤها أن يلتقطوا أنفاسهم وأن تستريح قلوبهم، وأن يجدوا الأمان والسلام، ولكن الأزمات الطاحنة والظروف غير المواتية أدت إلى ما نرى من غلاء فى الأسعار، وما منيت به أمتنا من حروب ودمار، ولعل من أسباب ذلك أننا مازلنا على حال من الجفاء لديننا، ومازلنا نرفض شريعة ربنا ومنهج رسولنا ﷺ فى كثير من بلاد الإسلام، عادينا أحبابنا، وصادقنا أعداءنا، وبنينا مجتمعنا على فكر بشرى وافد، فتشبهنا بأهل الضلال: «ومن تشبه بقوم فهو منهم» وسرنا فى طريق الانحلال والاضمحلال، فكان من أمرنا ما لا يخطر على بال، وكان على المخلصين من هذه الأمة أن يقوموا بواجبهم لعل الله يفتح بندائهم قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًا، وأعينًا عميًا، فتبصر أمتنا طريقها، ولا طريق لها سوى الإسلام، فبالإسلام عزت وسادت وارتقت، ولن تنال مكانها ومكانتها بغير هذا الدين العظيم، وكتاب **المسلم فى عالم اليوم** قبس على الطريق حين صدر عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، تلقته الأمة بالقبول فى مصر وخارجها، ووجد فيه طلاب العلم بغيتهم، ومن يكتبون البحوث طلبهم، كما انتفع به الخطباء والمحاضرون، واستمتع به عامة الناس ورأوا فيه منارة فكرية توضح

المعالم، وترشد السائرين، لذلك أقدمت على إعادة طباعته مرة أخرى، غير عابئ بارتفاع الأسعار، وكان لابد من تدارك ما فاتنى فى الطبعة الأولى من أخطاء غير مقصودة، ومن جودة الطباعة، إذ هى ببنط أكبر، تيسيراً لقراءته، أسأل الله أن ينفع به من قرأه، وأن يجعله لنا ذخراً عنده يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبدالفتاح عاشور

القاهرة - مدينة نصر

الاثنين: ١٧ شعبان ١٤١١هـ

٤ مارس ١٩٩١م

تقديم الطبعة الأولى

أحمد الله حمد العابدين الصادقين، وأشهد أن لا إله إلا الله، الإله المعبود، والرب المقصود، وأشهد أن محمدًا عبدالله ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للجماعة، وجاهد فى الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا العالم الحاضر المضطرب، يموج بالأفكار، ويمور بالحروب، ويخيم عليه شبح الهلاك والدمار، فهو كالسكران أعطيته سلاحًا فقتل به نفسهوقتل به غيره، والمسلمون جزء من هذا العالم، أمة عظيمة كثيرة العدد، مترامية الأطراف، هى قلب هذا العالم وحسه، ونبضه، ووجدانه، وحياته، ولكنها استنامت لكيد عدوها، واستناخت لمكره ودهائه، فتمزقت شيعًا وأحزابًا، وتوزعت إربًا فسهل على عدوها ازدرادا والتهامها، وانقسمت إلى دول ودويلات ترتبط فكرًا وإحساً، كما ترتبط حاضرًا ومستقبلا بالشرق أو الغرب، وأضحى غذاؤها وكساؤها بل وسلاحها الذى تدافع به عن نفسها، بل ترفها ومتاعها، كل ذلك مستورد من هنا أو هناك!!

وهذه الأمة الإسلامية أشرف الأمم وأعظمها فى تاريخ بنى الإنسان، وهى حاملة دعوة الخير للبشر، وعليها تقع مسئولية إنقاذ البشرية من أوحال الشرك، وظلمات الجهل، وحمأة الرذائل، وعليها أن ترد القافلة الشاردة لطريق الحق والعدل، والخير والسلام، وهى الأمة التى ستشهد على الأمم وستشهد للأنبياء والرسل يوم القيامة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1]. فكيف لأمة هذا مكانها وتلك مكانتها

(١) البقرة: ٢/١٤٣.

أن تتخلف عن الركب، وأن تطلب لقمة الخبز من أيدى غيرها؟ هل لذلك من سبب؟ وهل إذا عرفنا السبب، هل هناك من علاج؟

فى صفحات هذا الكتاب - بإذن الله - محاولة لاكتشاف هذه الأسباب، وبحث عن علاجها، وفى هذه الصفحات تحديد واضح لموقف المسلم مما حوله وممن حوله، وتنظيم لخطاه على الطريق، حتى لا يبقى المسلم - وهو المقوة المكلفة بحراسة الحق - لا يعرف له هدفًا، ولا يدرك له غاية، ولا يستبين له طريقًا، وهى أنفاس أنفخ بها فى هذا الكيان الإسلامى من روح الله، إذ هى أنفاس عبقة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكما قال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ۝٥٣﴾[1].

فهل أن لهذا الجسد الخامد أن تدب فيه روح القرآن وأن يتحرك حركة مباركة ينفض بها عنه غبار الزمن؟؟ وهل آن له أن يتولى قيادة هذا العالم لينقذه مما هو فيه من كفر وتمزق وضياع؟؟

إنه أمل أسأل الله أن يحققه، وأن يجد آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية، وعقولا مشرقة بنور الحق، كما أسأله - سبحانه - أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة والنعمة المسداة، والسراج المنير نبينا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

عبدالفتاح عاشور

القاهرة فى ٢٥ ذو القعدة ١٤٠٥هـ

١١ أغسطس ١٩٩١م

(١) الشورى: ٤٢/ ٥٢، ٥٣..

الباب الأول

الأخوة.. وحقوقها

الفصل الأول:

الإخـــاء

الحمد لله الذى جمع قلوب المؤمنين على محبته، وأرشدها إلى طاعته، وهداها إلى عبادته، وأشهد أن لا إله إلا الله، قرب أهل الأيمان وأدناهم، وأسعدهم برضوانه فى دنياهم وأخراهم، وألَّف بين قلوبهم، فكانوا فى الله أحبة، يتواصلون ويتدابر غيرهم، ويتحابون ويتعادى من سواهم، وأشهد أن «محمدًا» عبد الله ورسوله من جمع المولى القلوب على محبته، فكان أحب لأهل الإيمان من أنفسهم وأبنائهم والناس أجمعين، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، كانوا إخوة فى الله حقًا عرفوا ما لهذه الأخوة من حقوق وما عليها من واجبات، فكانوا أعزة فى الله وبالله، وكانوا إخوة متحابين، فنالوا خيرى الدنيا والآخرة، ورضى الله عنهم أجمعين.

أما بعد:

فمن يتأمل واقع المسلمين اليوم، ويرى ما هم فيه من تقاطع وتدابر وتمزق، لابد أن يتساءل عن سر ذلك، وإذا عُرِف السرُّ وضعنا أيدينا على موطن الداء، وبحثنا عن الدواء، وهو موجود ـ بحمد الله وفضله ـ ولم يبق إلا أن يتجرعه المريض فى شىء من الصبر حتى يتم الشفاء، ويتحقق الرجاء، ويعود أهل الإسلام كما كانوا إخوة متحابين، وقوة ترهب الظالمين، ونورًا يهدى الحائرين، وهذا إنما يبدأ بتحديد ولاء المسلم ولمن يكون هذا الولاء، وهذا يدعونا إلى البحث فى الإخاء والأخوّة، ليتعرف المسلم على ما له من واجبات وما عليه من حقوق، وليعرف المسلم عن بصيرة كيف يتعامل مع من حوله من بنى الإنسان، ومن هم هؤلاء الذين يرتبط بهم نفسيًا، وعقليًا، وقلبيًا، وروحيًا، حاضرًا ومستقبلا، حتى يكون هو وهم كالبينان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

فلنبــدأ بالحديث عن الإخــاء وأنواعه، ومــا لكل نوع من حقــوق، ثم نثنى بالحديث عمن نحبهم ونواليهم، ومن نبـغضهم ونعاديهم، وكيف نميز بين هؤلاء وأولئك، ثم نعـقب ذلك ببـيان أهم مـا يجب أن يتـصف به المسلم من أخـلاق الإسلام، وما فى ذلك من تحديد لمعالم شخصيته وتميّزه فى عالم اليوم.

ألوان الأخوّة:

والإخاء فى الإسلام شامل محيط، يضم فى رحابه بنى الإنسان، ويزداد توثُّقًا بأخوّةالدم والنسب، ويتيه فخـرًا وشرفًا وتمكُّنًا بأخوة الإيمان، فالإخاء إذن له ثلاث أنحـاء: أخوّة إنسانيـة،وأخوّة فى النسب، وأخـوّة فى الدين، وتجتمع كلها فى أخيك المؤمن، وتنفرد فى الكافرغير القريب.

١ـ الأخوّة الإنسانية:

الناس جميعًا من أصل واحد، أبوهم آدم وأمهم حواء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[٢]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[٣].

وفى هذا المعنى يقول الـرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامـه عليه ـ فى خطبة الوداع: **«يا أيهـا الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحـد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وليس لعـربى على عـجـمى، ولا لعجـمى على عـربى، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمـر فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلّغت،**

(١) الحجرات: ٤٩/ ١٣. (٢) النساء: ٤/ ١.
(٣) الروم: ٣٠/ ٢٠.

اللهم فاشهد، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب»[1]. ويقول عليه الصلاة وأزكى السلام: **«يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: برٌّ تقى كريم على الله، وفاسق شقى هيِّنٌ على الله»**[2].

فالناس جميعًا سواء فى أصل النشأة، لا امتياز لواحد على الآخر إلا بما يقدمه من عمل صالح مؤسس على إيمان وثيق بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولكن هذا الامتياز وذلكم الفضل لا يعنى التناكر والتدابر مع غير المؤمنين ما داموا قائمين على العهد؛ محافظين على أداء ما عليهم، فلهم بذلك حقوق تؤدى، ولا يحق للمؤمنين انتقاصهم أو الاعتداء عليهم أو ظلمهم، بل الدفاع عنهم حق واجب يفرضه ديننا العظيم، وباب حقوق أهل الذمّة فى الإسلام باب واسع يبيِّن لنا إلى أى حد وصل هذا الدين فى معاملة غير المسلمين، وما أحوج الإنسانية المعذبة إلى هذا الدين تداوى به جروحها، وتلتقط فى ظله الرحيب أنفاسها، وتتذوق معه طعم الأمان والسلام.

ولنقرأ فى ذلك قول الله ـ تعالى ـ: **﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾**[3].

وقد نزلت هاتان الآيتان فى «أسماء بنت أبى بكر الصديق وأمها»، روى الإمام أحمد قال: حدثنا هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر، عن «أسماء بنت أبى بكر» ـ رضى الله عنها ـ قالت: قدمت أمى وهى مشركة فى عهد

(١) رواه البيهقى.
(٢) الجامع للترمذى، مشكاة المصابيح، باب المفاخرة ص ٦٥٨.
(٣) الممتحنة: ٨/٦٠، ٩.

قريش إذ عاهدوا - أى عهد الحديبية - فأتيت النبى ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها؟ قال: نعم، صلى أمك. .

ومع أن الآيتين نزلتا لهذا السبب فهما تأصيل لقاعدة إسلامية راسخة فى تعامل غير المسلمين، فإن الإسلام لم يأمر أتباعه بمقاطعة غير المسلمين ومحاربتهم إلا حين يعلنون الحرب على الإسلام، ويحولون بينه وبين القلوب أن يصلها، وأبسط دليل على ذلك هو البلاد المفتوحة، إذ لو كان يحارب الناس من أجل كفرهم لما قبل منهم سوى الإسلام بعد أن أذعنوا لسلطانه وأصبحوا فى قبضته، ولكنه قبل منهم البقاء على أديانهم، وأبقى لهم كنائسهم ومعابدهم، ولم يطلب منهم سوى مبلغ زهيد من المال هو الجزية، ولم يكلفهم بأن يقاتلوا مع المسلمين، إنما أوجب على المسلمين حماية هؤلاء، واعتبرهم أهل ذمة لهم ما لنا وعليهم ما علينا، نواسى محتاجهم، ونعود مريضهم، ونجبر كسيرهم، ونعينهم إذا ضعفوا، ونمدهم بالمال إذا افتقروا، ونعطيهم من بيت مال المسلمين إذا عجزوا.

هذا خالد بن الوليد - رضى الله عنه - يكتب فى عهد ذمته الذى كتبه لأهل الحيرة: «وجعلت لهم أيّما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيًا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله»[1].

وهذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يرى شيخًا كبيرًا من أهل الذمة يسأل: فقال: مالك؟ قال: ليس لى مال، وإن الجزية تؤخذ منى، فأسقط عنه الجزية وأجرى له من بيت المال، وكتب إلى أمينه: والله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين. . والفقراء هم

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف، ص١٤٤.

المسلمـون، وهذا من المسـاكـين من أهل الكتـاب، ووضع عنه الجـزية وعن ضربائه[1].

وانظر إلى ما كتبه أمـير المؤمنين على بن أبى طالب ـ كرّم الله وجهه ـ إذ كتب لبعض عمـاله يقول: «إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كـسوة شتاء ولا صيـفًا ولا رزقـًا يأكلونه، ولا دابة يعملون عليـها، ولا تضربـن أحدًا منهم سوطًا واحدًا فى درهم، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضًا فى شىء من الخراج فأنا إنما أمـرنا أن نأخذ منهم العفو، فإن أنت خـالفت ما أمـرتك به يأخـذك الله به دونى، وإن بلغنى عنك خـلاف ذلك عزلتك»[2].

وانظر إلى التسامى والرفعـة والعظمة التى تشع خيرًا من هذا الدين الذى جمع الناس مؤمنهم وكافرهم على بسـاط الأخوّة الإنسانية، وأسقط بين بنى الإنسان الأنانيـة والحقـد والحسد والضـغينة، وأحلّ الرضا والـبر والعطف، مصابيح تضىء الطريـق لهذا الإنسان مهما كـان دينه أو لونه أو جنسه، انظر إلى ذلك كله وأنت تسمع إلى ما قالـه مجاهد ـ رضى الله عنه ـ قال: «كنت عند عبدالله بن عمر وغلام له يسـلخ شاة. فقال: يا غلام، إذا سلخت فابدأ بجارنا اليـهودى، حتى قـال ذلك مرارًا فـقال له: كم تقول هذا، فـقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورّثه»[3].

وإذا كنا نتحدث عن الإخاء الإنسانى ومـا أوجبه الإسلام على أتباعه من حسن المعاملة والقيام بحقوق الجوار، ورعاية الآداب العامة، فإنما نتحدث عن

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف، ص ١٢٦.

(٢) المصدر السـابق، ص١٦. وانظر فى ذلك كتابى "منهج القـرآن فى تربية المجتـمع": الباب الرابع: تنظيم القرآن لعلاقة المجتمع الإسلامى بالمجتمعات الأخرى، ص٥٥٣، ٥٥٤.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى، وقال: حسن غريب.

ذلك فى ظل سلطان إسـلامى أسـقط عـروش الجبـابرة، وأذل القيـاصـرة والأكاسرة، وانفـتح الطريق أمامه لتبليغ دعوة الله، واسـتسلم لحكمه من لا يدين به، أما والمسلمون مسـتذلون فى الأرض، ومطاردون من أعداء الله، أما والمسلمون قد تداعت عليـهم الأمم كما تداعت الأكلة إلى قصعـتها، فلا ود ولا حب، ولا إخـاء، لأن عدو اللـه هو الذى قطع حبـال الودّ، وأطفـأ نور الحب، ولم يرقب فى المسلمـين إلا ولا ذمة، فـإن رجع عن غيّـه وكفّ عن ظلمه وترك نور الله يحرك الأفئدة، فالقاعدة الأصيلة قائمة، وهى الأخوة فى الإنسانية الجامعة، بما تفرضه من حقوق وواجبات.

وهذا هو الإخـاء الإنسـانى الذى يسـتظل بظله كل بنى آدم على اخـتـلاف مناهجهم وأديانهم وألوانهم، فكل من على ظهر الأرض أبوهم آدم وأمهم حواء، وإذا ذهب العداء وغاضـت الأحقاد، وألقى سلاح البغى والظـلم والعدوان فإن أهل الإسـلام لا يقـاتلون الناس لإكـراههم على الدخـول فى دين الله الواحـد الأحد، إذ جاء قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[1]، ولكنهم يقاتلون ويجاهدون الكفار جهادًا كبيرًا لكسر شوكة العدوان، وإخماد نار الفتنة، وإطلاقًا لقيود الحق حتى تصـول وتجول وتخترق حواجز القلوب، وتحتل مكامن الأفئدة، وتوجه الإنسانية إلى الهدى والرشاد.

٢ـ أخوّة النسب:

أما النوع الثـانى من أنواع الأخوّة، فهـو أخوّة النسب، والنسب هم من ينتسـبون إليك، وتنتسـب إليهم من جهـة الأب أو جهـة الأم، وهم أقاربك وعشـيرتك وأرحامك وأهلك، ومن تدلـى إليهم بسبب من هذه الأسـباب، ولكل واحد من هؤلاء حـقوق بحـسب قرابته منك، وقـد أوجـب الله لهم

(١) البقرة: ٢/٢٥٦.

حقًا عليك، وجعل هذا الحق مقدمًا على حق المحتاجين مهما بلغت حاجتهم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾[1]. وقال في آية البر: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾[2].

وقال أيضًا: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾[3].

ففى هذه الآيات البينات قدّم حق الأقارب علي حق اليتامي والمساكين، وابن السبيل، كما تري مما يدل علي عظيم حقهم.

وقد جاءت السنة المطهّرة مؤكدة لهذا التوجيه القرآنى، ففى الحديث المتفق عليه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كان أبو طلحة ـ رضى الله عنه ـ أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد ـ أى المسجد النبوى ـ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتي تنفقوا مما تحبون﴾ جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله ـ تعالى ـ أنزل عليك ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، وإن أحب مالى إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله ـ تعالى ـ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخ

(١) الإسراء: ١٧/٢٦.
(٢) البقرة: ٢/١٧٧.
(٣) البقرة: ٢/٢١٥.

ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه.

وفى الحديث المتفق عليه أيضًا عن أم المؤمنين «ميمونة بنت الحارث» - رضى الله عنها - أنها أعتقت وليدة - أى أمة - ولم تستأذن النبى ﷺ، فلما كان يومها الذى يدور عليها فيه قالت: أشعرت يا رسول الله أنى أعتقت وليدتى؟ قال: أو فعلتِ؟ قالت: نعم، قال: «أما أنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

وما ذلك إلا لأن الإسلام يعتبر البناء الاجتماعى للجنس البشرى وحدة واحدة، إن صلحت لبناتها صلح البناء، وإن فسدت وسرى فيها الخلل انهار البناء، وتلكم اللبنات هى الأسرة الصغيرة المؤلفة من الأبوين والأبناء، والتى تتسع لتشمل الأقارب ثم تمتد لتجمع أهل الإسلام، ثم تصل فى النهاية إلى القمة وهى تحيط بالجنس البشرى، فإن حمل كل قريب قريبه فواساه بماله ونفسه وولده وجاهه، ووصله ببره وعطفه وحدبه عليه وحرصه على ما ينفعه، ووقوفه سدًا منيعًا يمنع عنه كل ضُرٍّ، ويحميه من كل مكروه، ساد الوئام وعمّ السلام، وانتشرت المحبة، وزالت الفرقة، واندثرت العداوة والأنانية والأحقاد، لذلك قال رسول الله ﷺ: **«الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان، صدقة وصلة»**.[1]

وقد يكون فى بعض الأقارب جفوة، وقد يقابلون الإحسان

(١) رواه الترمذى عن سلمان بن عامر، وقال: حديث حسن.

القطيعة، وانظر إلى مصداق ذلك فى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ إذ يقول لنا بأن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ وأحلم عنهم ويجهلون علىّ، فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك، والمل: هو الرماد الحار، أى كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد من الألم، ولا شىء على هذا المحسن إليهم لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم فى حقه وإدخالهم الأذى عليه»[1] فأنت ترى بأن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لم يقل للرجل: اقطع صلتك بهم، ولم يأمره بعدم برهم ولم ينصحه بأن يرد السيئة بمثلها، وإنما أوصاه بالمداومة على ما تعود معهم من الخير، ووعده بعظيم الأجر، وبيّن له أن أعمالهم السيئة سيعود ضررها عليهم، أما هو فإن الله له ظهير ينصره عليهم ويسدده ويحفظه من مكرهم وشرورهم.

وفى هذا المعنى يروى لنا البخارى بسنده عن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال: **«ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»**. فلا تقابل القطيعة بالقطيعة، وإنما حقيقة الوصل هو أن يكون بعد انقطاع، فالواصل حقًا ليس هو الذى يقابل الجميل بالجميل والوصل بالوصل والحسنة بالحسنة، ولكن الواصل كما قال الرسول الكريم الذى إذا قطعت رحمه وصلها. وصلة الرحم من أبرز معانى أخوّة النسب وهي عنوان العقل الراجح المستنير بنور الله إذ قد وصف الله أصحاب العقول السديدة بصفات عظيمة منها قوله عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ

(١) انظر: رياض الصالحين للإمام النووى ص١٥٣، ١٥٤..

رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ إلى أن قال في بيـــان ثوابهـــم: ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

وفي مـقابل هذه الصـفات العظيـمة يواصل القـرآن حديثـه فيـقول ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾. ونعوذ بالله من ذلك.

ولِم لا يكون ذلك عنوان العقل الراجح وصلة الأرحام بركة وخير؟ ففي الحديث المتفق عليـه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقـه وينسأ له في أثره فليصل رحـمه**»، فصلة الرحم زيادة في الرزق وزيادة في العمر.

وهي عنوان الإيمان بـالله واليوم الآخر، فـعن أبي هريرة ـ رضـي الله عنه ـ أن رسول الـله ﷺ قال: «**من كـان يؤمن بالله واليـوم الآخـر فليُكرم ضيـفه، ومن كـان يؤمن بالله واليـوم الآخر فليصـل رحمه، ومن كـان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[2].

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[3]. فـالإحســان للوالدين يتلوه الإحســان للأقارب، وهو قبل الإحـسان إلى اليتامى والمساكـين، فإذا أضيف إلى صلة القرابة يتم أو مـسكنة أو جوار فـالأقارب أحق الناس بالإحسـان والبر، لأن

---

(١) الرعد: ١٣/ ٢٢-٢٤..

(٢) متفق عليه. (٣) النساء: ٤/ ٣٦.

الصدقة كما يقول رسول الله ﷺ: «**على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة**»[1].

وحق الأقارب يأتى واحدًا من أمور ثلاثة على جانب عظيم فى دين الله أمر بها ربنا، فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)**﴾[2].

وفى صلة الأرحام ثواب الدنيا والآخرة، ففى الحديث المتفق عليه عن «عائشة» أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله»[3].

وروى البخارى ومسلم بسندهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ـ تعالى ـ خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**اقرأوا إن شئتم، فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أوليك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم**».

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرحم شجنة من الرحمن ـ أى اشتق اسمها من الرحمن ـ فلها بالله علقة وصلة، تقول: يارب إنى قُطعتُ يارب إنى أُسيء إلىَّ، يارب إنى ظُلمت يارب، فيجيبها: ألا ترضين أنَ أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟**».

---

(١) أخرجه النسائى من حديث سلمان بن عامر ٥/ ٩٢ فى الزكاة باب الصدقة على الأقارب، ورواه الترمذى وابن ماجة، وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

(٢) النحل: ١٦/ ٩٠.

(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد، باب: من وصلها وصله الله، ومسلم فى البر، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها.

وقطيعة الرحم باب يؤدى إلى غضب الله ومقته وسوء عذابه. قال ـ تعالى ـ ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾[1].

وإذا كان هذا العقاب لقاطع الرحم فى الآخرة فإنه لن يفلت من العقاب فى الدنيا كذلك، فعن أبى بكرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم»**[2].

وحسب قاطع الرحم أنه حُرم من دخول الجنة، روى البخارى ومسلم والترمذى عن جبير بن مطعم بن عدى ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع النبى ﷺ يقول: **«لا يدخل الجنة قاطع»** قال سفيان: يعنى قاطع رحم.

وروى الطبرانى فى الأوسط عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون فقال: **«يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم، وإياكم والبغى فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة بغى، وإياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم ولا جار إزاره خُيلاء، إنما الكبرياء لله رب العالمين»**، ومعنى أنه لا يدخل الجنة أنه لا يدخلها مع السابقين، أو يحرم منها إن كان قد استحل ذلك، أو هذا من باب التخويف والزجر.

وإذا كنا نتحدث عن أخوّة النسب، وما للأقارب من حقوق، وما فى قطيعة هؤلاء الأقارب من إثم فى الدنيا والآخرة، لا يفوتنا أن نتذاكر أوثق هذه الحقوق وأحقها بالعناية والرعاية والصلة، ذلكم هى علاقة الأبوة

(١) الرعد: ١٣/ ٢٥.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

بالبنوة، ومـا يجب على الأبـناء تجاه الآبـاء، فقـد أرسى ديننـا العظيم هذه العلاقـة على أُسس ثابتة، وأقامها بنيانًا شامخًا يحفـظ على الأسرة المسلمـة عزّتها وقـوتها وكرامتها، ويصـونها من الانهيـار والتفكك، ويحمـيها من التشرد والضياع.

إن الأمر ببر الوالدين قد أتى بعد الأمر بـعبادة الله وتوحيده، إذ قال ربنا فى سورة النساء: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1]. وقال فى سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[2]. وقال فى سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[3].

وفى سورة لقمان يوصي لقمان ابنه فيما قصه الله عنه حيث يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾[4].

وأخيـرًا تأتى سورة الأحـقاف حيث يقـول سبـحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا

(١) النساء: ٤/ ٣٦.
(٢) الإسراء: ١٧/ ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) العنكبوت: ٢٩/ ٨.
(٤) لقمان: ٣١/ ١٣ـ١٥.

بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾[1].

ففى هذه الآيات ترون معى أن الله قد جعل بر الوالدين تاليًا للأمر بالعبودية له وحده، وجعله وصية يجب على الإنسان العاقل أن يحرص عليها؛ لأنها وصية العليم الخبير إلى خلقه، وفى كل ما تقرأ من الآيات لا ترى مجرد قيام بحقوق الأبوين إنما التحرى والدقة التى تصل إلى مرتبة الإحسان هى ما يطالب به الإسلام.

إنه الإحسان الذى يطالب به ربنا فى معاملة الإبن لأبويه.

فما هو الإحسان؟

إنه كما جاء فى حديث مسلم عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وفيه أن «جبريل» ـ عليه السلام ـ جاء يسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام، فقال له: **«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»**، وسأله عن الإيمان، فقال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»**، ثم سأله عن الإحسان فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

فالإحسان إذن مراقبة دائمة للوصول إلى الكمال فى أداء العمل؛ ولهذا أحب الله المحسنين، لأنهم بذلوا غاية الجهد فيما كُلّفوا به من قبل الله عز وجل، ومن تدبر آيات القرآن علم بأن الإحسان هو جماع الخير كله، وفيه كل ما تتوق إليه البشرية من إخلاص ومودة ومحبة وإنفاق فى سبيل الله،

(١) الأحقاف: ٤٦/١٥.

وطاعة وعبودية لله، وقيام بحقوق الخلق وحقوق الخالق فى أدب جم، وهمة لا تعرف التردد، وإقبال لا يرضى بالإدبار، ونشاط لا يميل إلى الكسل، ولذلك حين أمر الله بالقيام بحقوق الأبوين، أمر وأوصى بالإحسان إليهما، وهو كما يقول القرطبى: برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما وإزالة الرق عنهما وترك السلطنة عليهما[١].

وكما حفظاك فى الصغر وصاناك من كل خطر وقاما بحقوقك كلها خير قيام، وأحسنا إليك كل الإحسان، كان من المروءة أن تقابل الإحسان بالإحسان، يقول الفخر الرازى فى قوله ـ تعالى ـ: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا﴾**. يقول: وإنما ثنى بهذا التكليف؛ لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله ـ تعالى ـ ويتلوها نعمة الوالدين؛ لأن المؤثر الحقيقى فى وجود الإنسان هو الله سبحانه، وفى الظاهر هو الأبوان، ثم نعمهما على الإنسان عظيمة وهى نعمة التربية والشفقة والحفظ من الضياع والهلاك فى وقت الصغر[٢].

ولهذا وجدت حرص القرآن على حث الأبناء على الابتعاد عما يجرح شعور الأبوين، وذلك حيث يقول ربنا: **﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾**، فحتى هذه الكلمة «أفٍّ» لا تقال للوالدين ولا يجوز للإبن أن يظهر الضجر والتأفف والامتعاض من أى أمر أو حديث يحدثه به أحد أبويه، وإذا كانت العزة من شأن المؤمنين، وكانت الذلة منافية لطبيعة الإيمان، فإننا نرى سُموَّ الأدب الربانى الذى يعامل به الإبن أبويه استجابه لأمر الله القائل: **﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ**

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، جـ٧ ص١٣٢.
(٢) مفاتيح الغيب، للفخر الرازى، جـ٣ ص٢٣٢.

من الرَّحْمَة﴾، وهكذا المؤمنون كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾، وهم مع أبويهم أكثر ذلة وخضوعًـا وتواضعًا، ولا يكتفى القرآن بهذا إنما يطالب الأبناء بالدعاء لأبويهم إذا فارقوا هذه الدنيا فيقول: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

وقد جاءت السنة المطهرة مؤكدة لهذه المعانى، داعية إلى بر الوالدين برًا نابعًا من إحساس مـؤمن وشعور مرهف، وعاطفة جـياشة تؤدى ما أوجب الله عليها من حـقوق، وما دعا إليه الرسـول الكريم من بر وود، ولنستمع إلى بعض ما جاء عن رسولنا ـ صلوات الله وسـلامه عليه ـ: روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: **«سألت النبى ﷺ: أى العمل أحب إلى الله تـعـالى؟ قـال: «الصـلاة لوقـتـهـا، قـلـت: ثم أى؟ قـال: بر الوالدين، قلت: ثم أى؟، قال: الجهاد فى سبيل الله»**[1]، فتجدون معى أن بر الوالدين مقدم على الجهاد فى سبيل الله، ومما يؤكد هذا ما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فـاستأذنه فى الجهـاد فقال: **«أحىٌّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما جاهد»**.

وفى رواية لمسلم قال: أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله، قال: فهل من والديك أحد حى؟ قال: نعم بل كلاهما حى، قال: فتبـتغى الأجر من الله، قال: نعم، قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».

وفى أخرى لأبى داود والنسـائى، قال: **«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوى يبكـيان، قال: فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»**.

---

(١) متفق عليه.

ومما يضيف إلى هذا المعنى تأكيدًا، ويضيف له حثًا على البر فى أجلى صوره ما رواه النسائى عن معاوية بن جاهمة ـ رضى الله عنهما ـ أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال: «يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك فقال: هل لك من أم؟ قال: نعم، قال: فالزمها، فإن الجنة عند رجلها».

وبرهما باب من أبواب الجنة، وإذا كانت الجنة تحت أقدام الأمهات، فإن الوالد أيضًا له مثل هذه المنزلة، لما رواه الترمذى عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا أتاه فقال: إن لى امرأة وأبى يأمرنى بطلاقها، فقال له أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه»**.

ويا حسرة من فاتته فرصة وجود أبويه فى حال الكبر، فلم ينتهز هذه الفرصة لبرهما، فيكون ذلك سببًا فى دخوله الجنة. روى الإمام مسلم والترمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«رَغِمَ أنْفُهُ، رَغِمَ أنْفُهُ، رَغِمَ أنْفُهُ، قيل من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر: أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة»** ورغم أنفه أى لصق بالتراب، وهو كناية عن الذل والضياع.

وكيف يكافئ ولد والديه وهما قد بذلا حياتهما من أجله ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه»**.

ولا يقتصر الإحسان إليهما فى حال حياتهما إنما ذلك ممتد بعد مماتهما، وفى ذلك يروى أبو داود عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى ـ رضى الله عنه ـ قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما؟

فقال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**».

إلى غير ذلك من الأحاديث فى هذا الباب وحسبنا أن بر الوالدين من صفات الأنبياء، فهذا يحيى ـ عليه السلام ـ يقول الله فى صفته: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾. وهذا عيسى ينطق فى المهد قائلا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾[1].

٣ـ أخوة الإيمان:

الإخوة أبناء الرجل الواحد، من يجمعهم أب واحد، والإيمان فى أخوة الإيمان هو هذا الأب وهو الحسب والنسب وهو الأصل الجامع والملتقى الذى يلتقى عنده أهل الإيمان، إنه المورد العذب الذى ارتشف منه المؤمنون وارتوى منه الصالحون، ولن تجد أعذب من هذا المورد ولا أكرم من هذا الأصل، ولا أعظم من هذا الملتقى، فهو منحة إلهية لا خطة بشرية، وعطاء ربانى لا تدبير إنسانى، وإذا استقر الإيمان فى القلب أثمر إخاء وحبًّا لكل المؤمنين؛ ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، ومعناه ما المؤمن إلا أخ للمؤمن، فقد قصر المؤمنين على هذه الأخوة من باب قصر الموصوف على الصفة، كما إذا قلت: ما محمد إلا عالم، فقد اعتبرت الصفات الأخرى بالنسبة لمحمد وكأنها لا شىء بجانب صفة العلم فيه، فقصرته عليها، ومن ذلك قول الله ـ تعالى ـ ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾، فمع أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ له كثير من صفات الخير، وفيه شهادة الحق له:

---

(١) مريم: ١٩/١٣، ١٤، ٣٢.

(٢) الحجرات: ٤٩/١٠.

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ إلا أن أبرز سمة له وأعظم خاصية فيه هى الرسالة، ولهذا فهو جدير بأن يكون مقصوراً على هذا الأمر: أمر كونه رسولا قد خلت من قبله الرسل، ومثل هذا ما نجده فى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

فمع أن المؤمنين لهم كثير من الصفات العظيمة والسمات الرائعة، إلا أن الأخوّة هى أبرز معلم فى حياتهم، وهى العلم الخفاق المرفرف فى أفق حياتهم، وبدونها يفقدون أهم طابع يميزهم عن غيرهم، وأعظم مظهر للإيمان فى دنياهم، ولهذا جاء القرآن يطلب من المؤمنين أن يكونوا يداً واحدة، وأن يلتفوا حول راية واحدة هى راية هذا الدين، وهو حين يطلب منهم ذلك يمن عليهم بنعمة التآلف والتآخى إذ قد جمعهم على الوحدة بعد التفرق، وعلى الإيمان بعد الكفر، وعلى الهدى بعد الضلال، وعلى الحق بعد الباطل، وذلك إذ يقول سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1].

وقد سما المؤمنون بهذا التآخى إلى صور فاقت أحلام الفلاسفة وأصحاب المدن الفاضلة، وضربوا أروع الأمثلة فى صدق هذه الأخوّة، حتى لقد وجدنا فى مجتمع المدينة لونًا من هذا الإخاء كان أعظم من إخاء النسب والرحم، به كان الأنصار والمهاجرون يتوارثون، ويتكافلون، ويتعاونون، واستحق الأنصار شهادة الفخار التى مازالت تتردد فى سمع الزمن مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ

(١) آل عمران: ٣/١٠٣

شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾[1]. فهؤلاء هم الأنصار الذين يحبون من هاجر إليهم حبًا جعلهم يقدمون كل غالٍ ونفيس فى سبيل إخوانهم المهاجرين حتى قال المهاجرون فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ: **«يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلا فى كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا فى المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال ﷺ تطييبًا لخاطرهم: لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»**.

وهؤلاء الأنصار لا يشعرون بضيق فى الصدور إذا ما وجدوا إخوانهم المهاجرين وقد سبقوهم بالفضل والثناء من الله، والمهاجرون أهل لذلك حقًا، فهم كما قال ـ تعالى ـ: **﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾**[2]. لقد آثر الأنصار إخوانهم المهاجرين بما عندهم رغم حاجتهم إلى النفقة، وتلكم والله أفضل الصدقة وأعظم العطاء أن تعطى الشىء وأنت فى أشد الحاجة إليه، وهؤلاء يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، أى حاجة شديدة إلى ما آثروا به غيرهم.

وقد نزلت هذه الآية فى أبى طلحة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ، ففى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابنى الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا فقال النبى ﷺ : **«ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار ـ وهو أبو طلحة ـ كما فى رواية مسلم ـ فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله**

---

(١) الحشر: ٥٩/٩.

(٢) الحشر: ٥٩/٨.

ﷺ لا تدخريه شيئًا، فقالت: والله ما عندى إلا قوت الصِّبية، قال: فإذا أراد الصبيةالعشاء فنوميهم وتعالى فأطفئى السراج ونطوى بطوننا الليلة ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله عز وجل، أو ضحك من فلان وفلانة وأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾».

فرحمة الله ورضوانه على أبى طلحة ورحمة الله ورضوانه على زوجه المجاهدة: أم سليم الأنصارية، ورحمة الله ورضوانه على أصحاب رسول الله أجمعين، هؤلاءالذين جمع الله قلوبهم على المحبة والوفاء منة من الله وكرمًا، وجعلهم بذلك أسبابًا لنصرة دينه، وإعلاء كلمته، وتأييد رسوله، فقال مخاطبًا رسول الله ﷺ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[1].

نعم فهذه القلوب التى هيمن عليها الإيمان وجمعها رب العالمين على مائدته، وأقامها على أتقى قلب رجل واحد، إنما هى منة إلهية وتدبير ربانى، لا تستطيع الحصول عليه قوى الأرض مهما بذلت فى سبيل ذلك من جهد ومن مال بل لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما استطاعت أن تحصل على هذا الذى يسره الله لرسوله، وجعله من أسباب نصرته ونصرة دينه، حتى لقد كان هؤلاء الأحبة مثلا حيًا لحديث رسول الله ﷺ حيث قال: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». ولمسلم: «المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى

(١) الأنفال: ٨/ ٦٢، ٦٣.

رأسه اشتكى كله»[1]. إنها صورة حية نابضة بالإيـمان ترشدنا إلى كثير من حقوق أخوّة الإيمان.

ولعلكم رأيتهم أحـد المبانى وهى تهدم فنظرتم له، فوجـدتم أنه بانهدام جزء منه تبـدأ باقى الأجزاء فى السـقوط والانهيـار، وهذا هو حال المجـتمع المؤمن، إذا انهـدم منه ركن أو أصيب بأذى تبـعتـه باقى الأركان، وكـأن كل عضو يدعو الآخـر لمشاركته فيمـا نزل به فسرعان ما يستـجيب، وانظروا مرة أخرى إلى حال الإنسان إذا ما أصـيب عضو من أعضائه بمرض، ألا ترون أن باقى الأعضـاء تتأثر وينزل بها الألم أيضًـا؟. وهكذا المجتمع المؤمن: كـيان واحد، نابض بالحياة والحركة، وعنوان حيويته هو هذا الشعور المتبادل، وهذا الإحساس بما يصيب أى جزء فيه، ولهذا قال ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه»**[2].

وما يجمع هذه الحقوق وصف الله لأصحاب رسول الله ﷺ حيث يقول ربنا: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[3]. فهـم قوة ترهب أعـداء الله، تراهم فى ساحـات القتـال ليوثًا تصـول وتجـول، يخشى بأسهم أهل الكفـر والضلال، ولكنك تراهم فيما بينهم يفـيضون رقة وأدبًا وخلقًا وتواضعًـا وودًا وتراحمًا، ولا عجب فـإن من صفات المؤمن أنه أليف مـألوف. قال رسـول الله ﷺ: **«أقـربكم منى مـجلسًـا يوم القـيامـة أحاسنكم أخلاقًا الموطئـون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون»**، فإحساس المؤمن بإخوانه وشعوره بحاجتهم، وحـرصه على ما ينفعهم أسس فى العلاقات بين أخوّة الإيمان.

---

(١) رواه البخارى فى الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم فى البر والصلة، باب تراحم المومنين وتعاطفهم.

(٢) رواه الشيخان والترمذى.

(٣) الفتح: ٢٩/٤٨.

حقوق أخوة الإيمان

وإذا أردنا تفصيلا لهذه الحقوق وتلك العلاقات، فإننا نجد الكثير والكثير، وفى مقدمة ذلك **الموالاة**. والموالاة: تعنى الحب والنصرة، وإذا كان الكافرون ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[1]، فإن فى مواجهة ذلك: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[2].

فالكافرون فيما بينهم حزب الشيطان، والمؤمنون فيما بينهم حزب الرحمن، وهذا ليس مجرد حق على الإنسان المؤمن يؤديه لإخوانه وأمته المؤمنة، إنما هو جوهر هذا الدين ومدى الولاء له. فمن والى أعداء الله ومن نصرهم ومن ساندهم وأحبهم فهو منهم، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3]. وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[4].

ولنفقه قول الله ـ تعالى ـ فى سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ

---

(١) الأنفال: ٨/ ٧٣.
(٢) التوبة: ٩/ ٧١.
(٣) المائدة: ٥/ ٥١.
(٤) المائدة: ٥/ ٥٥ـ٥٧.

بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

فصدق الإيمان يقتضي ألا نعطي ولاءنا لمن استحبوا الكفر على الإيمان، مهما كانت درجة قرابتهم منا؛ لأنهم بكفرهم أصبحوا أعداء لله، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾[2] إلى آخر الآيات فى سورة الممتحنة وفى كل آية دروس نافعات، وعظات بالغات تجعل المؤمن رفيقًا محبًا مواليًا للمؤمنين، مبغضًا كارهًا معاديًا للكافرين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[3].

ومثل هذا النهى عن موالاة الكافرين ما نقرؤه فى سورة آل عمران، حيث يقول ربنا: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾[4].

وفى سورة النساء نجد بأن موالاة الكافرين من صفات المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم.

قال ـ تعالى ـ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾.

---

(١) التوبة: ٩/ ٢٣، ٢٤.
(٢) الممتحنة: ٦٠/ ١.
(٣) الممتحنة: ٦٠/ ٤.
(٤) آل عمران: ٣/ ٢٨.

ثم يتوجـه بالنداء للمؤمنين، فيـقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا** (١٤٤) ﴾[1].

وما رأيك فى إخـوة أشقاء، خرج على إجـماعهم واحد منهم فـعاداهم وأحب سواهم، ونـاصر من عاداهم، فـهل يبقى له عنـد إخوانه ودٌّ وحبٌّ؟ وهل أبقى هو مكـانًا لهـذا الود وذلك الحب؟ وأخـوّة الإيمـان أعلى وأغلى وأعظم من أخـوة الـنسب، فـمن خـان إخـوته فى الإيـمـان وخـرج على إجماعهم، وأحب سواهم، وناصر من عاداهم، فقد ارتكب إثمًا عظيمًا، بل لقد خرج من الإيمـان جملة وتفصيلا؛ لأنه بـولائه لأعداء الله وأعداء رسله أصبح واحـدًا من جماعة هـؤلاء الأعداء، وكما قـال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** (١٤٠) ﴾[2].

نعم لقـد أصبح واحدًا منـهم، لقد خلع ربقـة الإسلام من عنقـه حين فارق جماعة المسلمين، ورضى عمن سخروا من دين الله واستهزؤوا بآياته. روى أبو داود والترمذى والإمام أحمد وغيرهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من فارق الجماعة شبرًا ـ وفى رواية: قيـد شبرٍ ـ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»**[3]. ولن تجد مؤمنًـا صادق الإيمان يحمل ودًا وحبًـا لمن حارب الله ورسوله. قـال ـ تعالى ـ: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ**

---

(١) النساء: ٤/١٣٨، ١٣٩، ١٤٤.
(٢) النساء: ٤/ ١٤٠.
(٣) أخرجـه أبو داود فى السنة باب قتل الخوارج، وأخـرجه الإمام أحمـد والترمذى فى الأمثـال الباب الثالث، وقال: حديث حسن صحيح.

فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾(١).

فأهل الإيمان حزب واحد، وأهل الكفر حزب واحد، أهل الإيمان حزب الرحمن: ﴿**أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾، وأهل الكفر حزب الشيطان: ﴿**أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾، والنصر والغلبة لحزب الرحمن: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾**﴾(٢).

ولهذا فإن أول حق فى أخوّة الإيمان هو نصرة المؤمنين، وربط مصيرك بمصيرهم، ومستقبلك بمستقبلهم، لا تطيع فيهم كافرًا، ولا تنصر عليهم غادرًا ولا فاجرًا.. فأنت وإخوتك من أهل الإيمان جسد واحد وكيان واحد، ورجل واحد، إذا اشتكى عينه اشتكى كله، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله.

وإذا كان هذا هو الحق الأول فى حقوق هذه الأخوّة، فهناك الكثير من الحقوق الواجبة فى أخوة الإيمان.. فماذا نرى؟؟

نرى أمة متكافلة متعاونة متضامنة، لا يبغى أحد فيها على أحد، ولا يضيع فيها حق أحد، ولا يذل أو يهون فيها أحد، إنما هى منطلقة إلى غايتها، قوية بربها، واثقة من الحق الذى معها، وكل فرد فيها يبحث عن إخوته ليجبر كسيرهم، وليساعد ضعيفهم، وليداوى جراحهم، وليفك عانيهم، وليدخل السرور والسعادة إلى قلوبهم.

ولنستمع فى بيان ذلك إلى خير الهدى هدى محمد ﷺ وهو يقول: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى**

(١، ٢) المجادلة: الآيات ٢١، ٢٢.

حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[1].

ففى هذا الحديث بيان لأخوة الإسلام، وأن هذه الأخوة تقتضى من الأخ ألا يظلم أخاه، وعليه إذا ما وقع هذا الظلم منه فى فترة من فترات الضعف الإنسانى أن يرد مظلمة أخيه، وأن يتحلله ويعتذر له، ويطلب منه الصفح والعفو. روى البخارى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: **«من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكون له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»**.

وفى هذا المعنى يروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، وقد شتم هذا وقذف هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار»** ولا يكفى أن يمنع الأخ عن أخيه ظلمه بل عليه ألا يسلمه، وأخطر ما تصاب به المجتمعات اهتمام كل امرئ بنفسه وفرار كل واحد من مسئوليته تجاه إخوانه وهو يراهم مقهورين مغلوبين مظلومين، ففى الحديث المتفق عليه عن أبى عمارة: البراء بن عازب - رضى الله عنهما - قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعى،

---

(١) رواه أبو داود واللفظ له، والترمذى، وقال: حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر، ويشهد له بالصحة رواية مسلم والنسائى وابن ماجه له بألفاظ متقاربة.

وإفشاء السلام . . الحديث . . فنصرة المظلوم مما أمر به رسول الله ﷺ .

وفى حديث البخارى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ : «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًا، أرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: تحجزه ـ أو تمنعه ـ من الظلم فإن ذلك نصره**» .

وروى أبو داود بسنده عن جابر وأبى طلحة ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**ما من مسلم يخذل امرأ مسلمًا فى موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا فى موضع ينتقص فيه من عرضه وتنتهك فيه حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته**» .

وروى الطبرانى عن رسول الله ﷺ قال: «**لا يقفن أحدكم موقفًا يُضْرَبُ فيه رجل ظلمًا، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه**» .

وهكذا يتبين لنا ما فى ظلم الأخ لأخيه من عواقب وخيمة ، ويتضح لنا ما فى تركه نهبًا للظالمين وغرضًا للجاهلين من تقصير وخطأ وخطر ؛ لأن المظلوم لو ترك دون أن يرى بجانبه إخوته سرعان ما ينعزل بنفسه عن مجتمعه ، وسرعان ما يتنازل عن الكثير مما له من حقوق . «وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» .

ومن حقوق الأخوّة **أن تكون فى حاجة أخيك** كما قال الرسول ﷺ : «**من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته**» فمن جعل قوته وصحته وجاهه وماله أسبابًا لقضاء حوائج إخوانه ، كان جديرًا بهذه البشارة : «كان الله فى حاجته» أى يسر له أمره ، وقضى له حاجته ، وله مع ذلك فى الآخرة الجزاء الأوفى والحظ الأوفر ، وفى الحديث الذى رواه الطبرانى فى الأوسط والحاكم

بسند صحيح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال النبى ﷺ: «**من مشى فى حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق كل خندق أبعد ما بين الخافقين**». وفى القرآن العظيم: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾[1].

فمن كان سببًا فى إيصال الخير لإخوانه كان له الثواب العظيم. وقد روى الطبرانى وابن حبان عن أم المؤمنين «عائشة» ـ رضى الله عنها ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذى سلطان فى مبلغ برٍّ أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط عند دحض الأقدام**»؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يطلب من أصحابه أن يشفعوا عنده ليكون لهم هذا الثواب:

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال: «**كان رسول الله ﷺ جالسًا فجاء رجل يسأل فأقبل علينا بوجهه وقال: اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء**».

وإذا كان قيامك بقضاء مصلحة أخيك فيه هذا الثواب العظيم فى الدنيا والآخرة فلابد أن نعلم بأن ذلك محض الفضل من الله وأن الله هو الذى جعلك مقصد الطالبين وعون المحتاجين، ونصير المظلومين، ولو شاء لجعلك طالبًا محتاجًا، وشكْر هذه النعم إنما يكون ببذلها لمستحقيها والقيام بحقوقها، وإلا تحولت إلى غيرك.

روى الطبرانى عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله عند أقوام نعمًا أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج المسلمين ما لم يملوهم، فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم**»، وروى الطبرانى عن عائشة ـ

(١) النساء: ٤/ ٨٥.

رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ما عظمت نعمة الله عز وجل على عبـد إلا اشتـدت إليه مـؤنة الناس ـ أى مصالحـهم التى تثقل كـاهلهم ـ ومن لم يحمل تلك المؤنة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال»**.

ومن حقــوق الأخوة **تفريج الكربات عنهم**: ومن فرّج عن مــسلم كربة فرّج الله عنــه بها كربة من كــرب يوم القيــامة. وفى حديث مــسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبــى ﷺ قال: **«من نفّس عن مـؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كـربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر عـلى معسر يسّـر الله عليـه فى الدنيا والآخـرة، ومن سـتر مـسلمًـا سـتره الله فى الدنيـا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»**.

والكُرْبة ما أهمّ النفــس وغمّ القلب، وأحس الإنسان معــه أنه فى ضيق شديد، فمــاذا يفعل من وقعت به هــذه الكربات؟ وهل يتُرْك وحــده ليموت همًّا وغــمًّا وكــمدًا وحــزنًا؟ هنـا تبرز أخــوّة الإيمان، وهنــا يجـد المــؤمن الأيدى الرحيمة وقــد امتدت له؛ لتفرج عنه همه وتنفس عنــه كربه وتيسر له أمــره، وتقــضى عنه دَيْنَه، وتدخــل الســرور إلى قلبــه. روى الطبــرانى فى الأوسط عن عمــر ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: **«أفضل الأعــمال إدخال السرور على المؤمن كسوت عورته، أو أشـبعت جوعته، أو قضيت له حاجة»**. وعن ابن عمــر عن رسول الله ﷺ: **«أحب الأعمــال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كـربة، أو تطرد عنه جزعًا، أو تقضى عنه دينًا»**.

ومن حقوق الأخوة **ستر أخيك المؤمن**: ومن ستر مسلمًــا ستره الله يوم القيامة» ومن من الناس لا يخطئ؟ ومن لا تخونه عزيمــته ويغلبه ضعفه؟ إنه قــد يكون على حال لا يحب أن يراه أحــد من الناس، ولكنه يحـيا مع أمــة

مؤمنة، وقد يراه واحد منها على حال يكرهه، هنا واجب الستر، وهنا مقام الأخوّة، فالمؤمن لا يبحث عن عيوب إخوانه ولا يتتبع عوراتهم، ولا يهتك ستر الله عليهم، ولا يفضحهم فى المجالس، وإن كان هذا لا يعنى أن يترك النصح لهم وألا يردعهم فيما بينه وبينهم، كما لا يعنى أيضًا تعمية ولى الأمر والتستر على المجرمين، فمن واجب المسلم إذا وجد من يتآمر على الناس وحياتهم وأموالهم وأعراضهم أن يتخذ من الوسائل ما يراه كفيلا لمنع وقوع الجريمة، وإلا فقد ارتكب إثمًا عظيمًا، وعرّض أمته وإخوته لخطر عظيم. إنما يكون الستر فى سقطة وقعت فاطلعت عليها وعلمت صدق أخيك فى التوبة منها، فعليك ألا تفضحه بين الناس.

وقد روى الإمام مسلم من حديث أبى هريرة: **«لا يستر عبد عبدًا إلا ستره الله يوم القيامة»**، وما ينبغى لمؤمن أن ينشر ستر أخيه، ومن فعل ذلك فقد عرض نفسه لسخط الله وغضبه. قال ـ تعالى ـ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾**[1]، وروى ابن ماجه بإسناد حسن عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال: **«من ستر عورة أخيه ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها فى بيته»**.

وانظروا إلى ما رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ إذ قال: **«صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى بصوت رفيع فقال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله»** ونظر ابن عمر

---

(١) النور: ٢٤/١٩.

إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وما أعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك.

ومن أدب الإسلام فى هذا المقام ما رسمه لأصحاب السلطان إذ ندبهم إلى الابتعاد عن تتبع عورات المسلمين لأن ذلك يؤدى إلى خلل وفساد فى الأمة. روى أبو داود وابن حبان فى صحيحه عن معاوية ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنك إذا تتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت تفسدهم**». وروى أبو داود عن شريح بن عبيد وأبى أمامة وغيرهما عن النبى ﷺ قال: «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم**»، ولهذا وجدنا أنه لا يجوز للإمام ـ أى خليفة المسلمين ـ أن يحكم بعلمه فيما رآه من الفاحشة إلا إذا اجتمع له الشهود وشهدوا معه بوقوعها كما كان من أمر عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حين رأى شيئًا من ذلك، فلم يستطع أن يتكلم بذلك ولا أن يحكم بما رأى؛ لأن الله أراد ستر هذه الخبائث حتى لا تفوح رائحتها فى مجتمع الإسلام، ولهذا اشترط وجود شهود أربعة يشهدون بمواقعة هذه الفعلة، وإلا أقيم عليهم حد القذف كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾**﴾[1].

وإذا كانت هذه العقوبة فى الدنيا، فهناك عقوبة فى الآخرة أنكى وأشد.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾**﴾[2].

---

(١) النور: ٢٤/ ٤، ٥.

(٢) النور: ٢٤/ ٢٣ـ٢٥.

وكيف يكشف مؤمن عورة أخيـه، ويفضحه بين الناس وهو لسانه الذى يدافع عنه، وثوبه الذى يستـره، ويده التى يدافع بها، وعينه التى يـبصر بها. روى التـرمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه، وإن أحدكم مرآة أخـيه، فإن رأى به أذى فليُمطْه عنه»**، وعند أبى داود **«المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكفّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه»**.

فـأخوّة الإيمـان تقـتضـى من الأخ ألا يخذل أخـاه وألا يكذبه فى حـديث أو نصيحة، وألا يظلمه، وليعلم أنه مرآة أخيه يرى فـيه عيوبه فيسترها ويبينها له فى رفق وأدب، وليعلم أن الأخوّة فى الإيمـان تقتضى أن يكف على أخيه ضيـعته أى يحفظ عليه صناعته وحرفتـه وماله، وليعلم كذلك أنه مكلف بأن يحوط أخاه من ورائه، أى يحفظه من ألسنة الحاقدين، ويحميه من مكر الماكرين، ويدافع عن عرضه وشرفه ضد هجمات الحاسدين، ويقوم بشئونه ويتحـمل عنه أعباءه فى غيبته.. إلى غير ذلك مما جاء به هذا الدين العظيم من تلك المعانى السامية.

ومن حقوق أخـوّة الإيمان: **التواضع لإخوانك**، فإن الله لا يحب كل مـختال فخور، والسـؤال عنهم إذا غابوا، وعيادتهم إذا مرضوا، وإجـابة دعوتهم إذا دعوك، وأن تحب لهم ما تحب لنفسك، **«فلا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** وأن تعفوا عن إساءتهم، وألا تسمع فيهـم وشاية نمَّام حاقد حاسد، فمن نَمَّ إليك نم عليك، ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غـيرك بخبرك، كما قال الخليل بن أحمد، ومن حقوق الأخوّة ألا تهجرهم فوق ثلاث، فقد قال ﷺ: **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام»**[1].

ولنستمع إلى هذا الحديث الجامع الذى رواه البخـارى ومسلم ـ رحمهما الله تعالى ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخـوانًا كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمـه ولا يخذله ولا يحقره، التقـوى ههنا، التقوى ههنا ـ وأشـار إلى صدره ـ بحسب امـرئ من الشر أن يحقـر أخاه**

(١) متفق عليه.

المسلم، **كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله»** . ففى هذا الحديث كثير من الفوائد والحقوق التى لو قام بها أبناء الإسلام لسعدوا فى دنياهم وأخراهم.

٤ـ الأخوة فى الله:

الإنسان يحيا فى هذه الأرض يميل بطبعه وفطرته التى فطره الله عليها إلى جنسه من بنى الإنسان، فهو كما يقال: مدنى بطبعه، فهو يحيا مع إخوته فى الإنسانية، ومع إخوته من أمه وأبيه، وما يتبع ذلك من أقارب وأهل وعشيرة، ومع إخوته فى الدين.

وإذا كان الإنسان اجتماعيًا بطبعه، فإنه يميل إلى من وافقه فى طباعه، وكلما كان التوافق فى الطباع كان الميل والحب وارتباط المشاعر والقلوب، وقد يكون لك أخ من أبيك وأمك، ولكنك لا تستريح إليه؛ لأنكما مختلفان فى الطباع، وقد يكون لك أخ فى الإيمان والإسلام، ولكنك لا تربطك به وشائج قلبية ولا تجمعك به علاقة نفسية، ولا يعنى هذا تقصيرًا فى حق هذا أو ذاك، بل أنت تؤدى لشقيقك حق القرابة وحق الإسلام وحق الجوار، وتؤدى لأخيك فى الإسلام والإيمان كل الحقوق، ولا تتوانى فى خدمته والقيام بأمره، ولكن يبقى هذا الذى تحن إليه إذا غاب، وتسعد به إذا حضر، وتأنس له إذا جلست إليه وتشعر بأنه قريب من قلبك وعقلك، فتختاره من بين الناس لك أخًا، وتتخذه لك خليلا، تُفضى إليه بمكنون سرك، وتناجيه فى ودٍّ وحب، إنه أخ لك فى الله، أحببته لله ومن أجله، وأحبك لله ومن أجله، ولا عجب أن تختار من الناس إخوة لك فى الله، وأن تختصهم بهذا الحب العظيم. . فقد روى الإمام مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف..»** . فقد خلق الله الأرواح مؤتلفة ومختلفة كالجنود المجندة، إذا

تقابلت وتواجهت، ومعنى تقابل الأرواح ما جعلها الله عليه من السعادة والشقاوة فى مبدأ الكون والخليقة، فكل إلف يلوذ بإلفه، الخيِّر يحب الأخيار ويميل إليهم، والشرِّ يحب الأشرار ويميل إليهم. روى البخارى عن عمرة بنت عبدالرحمن قالت: قدمت امرأة مزّاحة من أهالى مكة المدنية فنزلت على نظيرة لها فقالت«عائشة» صدق حِبِّى رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «**الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**» وقال مالك بن دينار: لا يتفق اثنان فى عِشْرة إلا وفى أحدهما وصف من الآخر، وإن أجناس الناس كأجناس الطير، ولا يتفق نوعان من الطير فى الطيران إلا وبينهما مناسبة، وقد رأى يومًا غرابًا مع حمامة فعجب، من ذلك، فقال: اتفقا وليسا من شكل واحد ثم طارا فإذا هما أعرجان، فقال: من ههنا اتفقا.

وحديثنا عن تعارف الأرواح الخيرة وائتلاف القلوب الطاهرة، والتقاء النفوس المشرقة، وما يترتب على ذلك من أخوّة فى الله، ومحبة فى الله، وما لذلك من آثار طيبة فى الدنيا والآخرة، وإنما تبدأ هذه الأخوّة بالميل من إنسان مؤمن إلى أخ له فى الإيمان، وعليه فى هذه الحال أن يخبر أخاه بأنه يحبه لله. . روى أبو داود والترمذى عن المقدام بن معد يكرب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أحبَّ الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه**». وروى أبو داود بإسناد حسن عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ «**أن رجلا كان عند رسول الله ﷺ، فمر رجل، فقال: يا رسول الله، إنى أحب هذا، فقال له رسول الله ﷺ: أعْلَمْتَهُ؟ قال: لا، قال: فأعْلِمْه، فلحقه فقال: إنى أحبك فى الله، قال: أحبك الله الذى أحببتنى له**».

ومن أحب أخًا فى الله فقد فاز فى الدنيا والآخرة، أما الدنيا فهو مع رفقه صالحة وصحبة طيبة إن نسى ذكّرته، وإن غفل أيقظته، وإن زلّ أنهضته، وإن أخطأ صوبته، وإن انحرف قوّمته. وفى الحديث المتفق عليه عن أبى

مـوسى الأشعـرى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قـال: «**إنما مـثَل الجليس الصالح وجليس السـوء كحامل المسـك ونافخ الكير، فحـامل المسك إما أن يحذيك ـ أى يعطيك دون مـقابل ـ وإما أن تبـتاع منه، وإما أن تجـد منه ريحًا طيبـة، ونافخ الكير إمـا إن يحرق ثيـابك، وإما أن تجد منه ريحًـا نتنة**»؛ ولهذا أرشدنا المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى اختيار من نصاحبهم:

روى أبو داود والترمذى بإسناد لا بأس به عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «**لا تصـاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعـامك إلا تقى**» ورويا بإسناد صـحـيح عن أبى هريرة ـ رضى الـله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**».

إن الإخوان الصـالحين عُدَّةٌ لك فى الملمات، وسـاعدك الأيمن عند كل خطر، وراحـة نفـسك فى كل ضـيق؛ ولذلك قـال علـى ـ رضى الله عنه ـ "عليكم بالإخوان فإنهم عُدَّةٌ فى الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم؟".

وبالأخوّة الصـادقة فى الله تشعر بـحلاوة الإيمان، ففى الحـديث المتفق عليه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكـره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه اللـه منه كما يكره أن يقذف فى النار**».

وأجمل مـا فى الحيـاة أن يشعـر المؤمن بلذة الإيمان وأن يجـد له حلاوة تنسيه كل لذائذ الدنيا، بل إن لذائذ الدنيا لتتحول عند الإنسان المؤمن إلى لذة روحية؛ لأنه يوجهـها إلى مرضاة الله وطلب مثوبـته، ومن شرب من كأس

الإيمان ومن ذاق حلاوته، اعتدلت أحـواله كلها، وسار فى طريق صحيح، ففاز بالحظ الأوفر والنعيم الأكبر، والرضوان العظيم.

ومن ثمـرات هذه الأخوّة مـا يكون فى الآخـرة حيـث تكمل المسيـرة، وتنتقل هذه الأخوة من الدنيا للآخرة. قال ـ تعالى ـ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

وفى الحـديث عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قـال: «**لو أن رجلين تحابًّا فى الله أحـدهما بالمشرق والآخـر بالمغرب لجمع الله بينهـما يوم القيامة يقول: هذا الذى أحببته فىَّ**».

وروى عن أمـيـر المؤمنين على ـ رضـى الله عنه ـ فى بيـان الآية قـال: خليلان مـؤمنان وخليلان كافـران، فتوفى أحـد المؤمنين وبُشِّر بالجنة فـذَكر خليله فـقال: اللهم إن فـلانًا خليلى كـان يأمرنى بطاعـتك وطاعة رسـولك ويأمرنى بالخـير وينهـانى عن الشر، وينبـئنى أنى ملاقيك، اللهـم فلا تضله بعدى حـتى تريه مثل ما أريتنى، وترضى عنه كـما رضيت عنى، فيُـقال له: اذهب فلو تعلم ما لـه عندى لضحكت كثـيرًا ولبكيت قليلا، قـال ثم يموت الآخر فتجـتمع أرواحهما، فيقـال له: ليثن أحدكما على صاحبـه فيقول كل واحد منـهما لصـاحبـه: نِعم الأخ ونِعم الصاحب ونِعم الخلـيل. وإذا مات الكافـر وبُشِّر بالنار ذكـر خليله فيـقول: اللهم إن خليلى فـلانا كان يأمـرنى بمعصيتك ومـعصية رسولك، ويأمرنى بالشر، وينهانى عن الخـير، ويخبرنى أنى غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى وتسخط عليه كمـا سخطت علىَّ، قال: فـيموت الكافـر الآخر فيـجمع بين أرواحهـما، فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ وبئس الصاحب وبئس الخليل.

---

(١) الزخرف: ٤٣/٦٧.

وقد قــال الله ـ تعالى ـ فى سورة الفرقـــان : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾﴾[1].

ومن اتخذ مع الرسـول سبيـلا هو الفائز حـقًا، فإن المرء يحـشر مع من أحب، ويجتمع فى الجنة مع من أحب. روى البخارى ومسلم عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيـف ترى فى رجل أحب قومًا ولَمَّـا يلحق بهم؟ فقـال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحب» وإنهـا لبشـارة طيبة للـمتحـابين فى الله والمحبـين لأهل الفضل والخير.

ولكن فلنعلم بأن هذا إنما يكون فى الإنسـان المؤمن الذى يبذل قـصارى جهده فى أن يحظى برضوان اللـه، فيعمل ما وسعه العـمل، تنفيذًا لأمر الله ورسوله، ولكنه قد لا يصل إلى درجة من يحبـهم فيرفعه الله إلى درجاتهم، ليحظى بصحبتهم.

روى الطبرانى عن «عائشة» ـ رضى الله عنها ـ قال: جاء رجـل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلى من نفسى، وأحب إلى من أهلى، وأحب إلى من ولدى، وإنى لأكون فى البـيت فأذكرك فما أصـبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت خشـيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبى ﷺ حتى نزلت عليـه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[2].

---

(١) الفرقان: ٢٥/ ٢٧ـ٢٩.

(٢) النساء: ٤/ ٦٩.

وقد فـرح المسلمون كـما يقـول أنس بن مالك ـ رضى الله عنـه ـ بقول رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**» فرحًا عظيمًا، وقال: إنى لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر، وعمر ـ رضى الله عنهما ـ، وأرجو أن يبعثنى الله معـهم وإن لم أعمل كعمـلهم». فانظر لتواضع هذا الصـحابى الجليل الذى تربى فى أحـضان الرسول الكريم، وخـدمه عـشر سنين، وكـان من أجلاء الصحـابة ـ رضوان الله عليهم أجـمعين ـ. فـإذا كنت تحب أخًا لك فى الله وتريد أن تصل إلى درجته، وتُرفع إلى منزلته، فاقـتدِ به فى صلاحه وتقواه، ولذلك قال الحسن: يا ابن آدم لا يغـرنك قول من يقول: المرء مع من أحب، فإنك لن تلحق بالأبرار إلا بأعمالهم، فإن اليهـود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا مـعهم. وقال الفضيل بن عيـاض: تريد أن تسكن الفردوس، وتجاور الرحمن فى داره مع الـنبيين والصـديقين والشهـداء والصالحـين؟ بأى عمل عملته؟ بأى شهوة تركتهـا؟ بأى غيظ كظمته؟ بأى رحم قُطعت وصلتها؟ بأى زلة لأخيك غفرتها؟ بأى قريب باعدته فى الله؟ بأى بعيد قاربته فى الله؟.

والحب فى الله باب عظيم لمرضاة الله ومـحبته. روى الإمـام مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أن رجلا زار أخًا له فى قرية أخرى فأرصد الله ـ تعالى ـ على مدرجـته ملكًا ـ أى ملكًا ينتظره على طريقه ـ فلما أتى عليه قـال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لى فى هذه القـرية، قال: هل لك عليه من نعمـة تربُّها عليه؟ ـ أى تقوم بها وتسعى فى إصـلاحها ـ؟ قال: لا، غير أنى أحببته فى الله تعـالى، قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه.

وروى التـرمذى عـن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسـول الله ﷺ قال: «**من عاد مريضًا أو زار أخًا له فى الله ناداه مناد: بأن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا**».

ويوم القيامة من الأيام العصيبة التى يشتد فيها الكرب، ويعظم الحزن، ويحتاج الناس فيها إلى العمل الصالح، والأُخُوَّة فى الله تأتى فى جملة هذه الأعمال الصالحة التى تنجى صاحبها من الهم والغم والحزن والكرب العظيم. روى الإمام مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله - تعالى - يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى»**.

وروى أبو داود بإسناد حسن عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ هذه الآية ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾»**.

وروى النسائى فى سننه الكبرى بإسناد رجاله ثقات عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور، ووجوههم نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء، فقالوا: يا رسول الله، صفهم لنا، فقال: هم المتحابون فى الله، والمتجالسون فى الله، والمتزاورون فى الله»**.

ولننظر إلى هذه المنزلة العظيمة التى أعدها الله للمتحابين فى الله، ولنستمع إلى ما رواه الشيخان - البخارى ومسلم - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ وهو يقول: **«سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق**

بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إنى أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه».

ففى هذا الحديث الشريف نرى كيف كان المتحابان فى الله مع هؤلاء الكرام من خلق الله، وكيف فازا بالرضا والأمان مع من فاز فى هذا اليوم العصيب، ألا ترى معى أن الاستكثار من الإخوان باب من أبواب السعادة والعزة فى الدنيا والآخرة؟ ولذلك فإن سلفنا الصالح استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك.

من تختار لصحبتك؟

وإذا كنت تريد أخًا لك فى الله فلابد أن تختار من تذكرك بالله رؤيته، ومن يزيد فى عملك كلامه، ومن يرغّبك فى الآخرة عمله، وإياك والأحمق من الناس، فإن الأحمق داء وبلاء، يضرك وهو يريد أن ينفعك؛ ولذلك قال على ـ رضى الله عنه ـ:

فلا تصحب أخا الجهل	وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى	حليمًا حين آخاه
يقاس المرء بالمرء	إذا ما المرء ماشاه
وللشىء من الشىء	مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب	دليل حين يلقاه

واحذر مؤاخاة سيئ الخلق، فإن طبعه اللئيم يغلب عقله، فينقلب عليك شيطانًا متجبرًا، فلا خير فى صحبته، ولا يخفى عليك من تراه من حال الفسّاق المصرّين على ارتكاب المعاصى، وهؤلاء قد تعجبك فيهم صفات لا

تخلو منها النفس البشرية، ولكنى أربأ بك عن مصاحبة أمثال هؤلاء، لأنه لا أمان لهم ولا خير فيهم. قال - تعالى -: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[1].

وقال - تعالى -: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾[2].

وقال عز من قائل: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾[3].

وهناك صنف من الناس فى مؤاخاتهم ومصادقتهم خطر عظيم، ذلكم هم أهل البدع الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فإياك وإياهم، فهم كالبعير الأجرب، تنتقل عدواه إلى غيره، وقد قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم، فإنهم زينة فى الرخاء وعُدَّة فى البلاء، وأخيرًا لا تصحب حريصًا على الدنيا؛ لأنه ينسيك ربك ويلهيك عن آخرتك ويبيعك بثمن بخس، وما أخالك تميل لمن كانوا على هذا النحو، فأنت خَيِّرٌ، والطيور على أشكالها تقع. . وإنى أسوق لك وصية علقمة العطاردى لابنه حين حضرته الوفاة قال: يا بنى إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك - أى إن افتقرت أغناك عن الحاجة - اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى منك سيئة سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتدأك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولتما أمرًا أمرك، وإن تنازعتما آثرك.

---

(١) الكهف: ٢٨/١٨. (٢) طه: ١٦/٢٠.

(٣) النجم: ٢٩/٥، ٣٠.

وهذا قول على - رضى الله عنه -:

إن أخـاك من كـان مـعك ... ومن يضـر نفسـه لينفـعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فـيه شمله ليجـمعك

وإياك والحمـقى، وسيـئى الخلق، والفسـاق، وأصحاب المـعاصى، وأهل الأهواء والبدع، وطلاب الدنيـا، فإن وجدت إنسانًا قد برئ مـن هذه الصفات، تراه عاقلا لبيبًـا مستقيمًا، طائعًا لربه لا مبـتدعًا، تذكرك بالله رؤيته، ويزيد فى عملك قوله، فـلذ به ولا تفرط فيه، واتخذه لك رفـيقًا وأخًا وصـديقًا وخليلا؛ لتحظى بالخير فى دنياك وأخراك، وقد قال تقى الدين أبو بكر ابن حجة الحموى:

فـإنما الرجـال بالإخـوان ... واليـد بالسـاعـد والبنان
لا يحقر الصـحبة إلا جاهل ... أو مـارق من الرشاد غـافل
صـحـبـة يوم نسب قـريب ... وذمـة يحـفظهـا اللـبـيب

ولأبى الفتح البسنى:

من استنام إلى الأشرار نام وفى ... قـميـصه مـنهم صل وثعبـان
لا تودعِ السرَّ وشـاء به مذلا ... فما رعي غنمًـا فى الدَّوِّ سرحان
ما كـل ماء كصـداء لوارده ... نعم، ولا كل نبت فهو سعدان
لا تستشر غـير ندب حازم يقظ ... قد اسـتوى فيه إسـرار وإعلان
فللتدابير فـرسان إذا ركضوا ... فيها أبروا، كما للخرب فرسان

ولا يخفى عـليك ما سقنـاه لك من بشارات للمـتحابين فى الـله، فهى حوافز للعـمل، ودافع للتحاب والتآخى فى الله، ومن أجلـه، ولنستمع فى ذلك أيضًا لحديـث أبى مالك الأشعرى - رضى الله عنه - قـال: قال رسول

الله ﷺ: «يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا، واعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله، فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس، وألوى بيده إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله؟ انعتهم لنا ـ أى صفهم لنا ـ جلهم لنا، فَسُرَّ وجه النبى ﷺ بسؤال الأعرابى، فقال رسول الله ﷺ: هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله، وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[1].

(١) رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

الفصل الثاني:

حقوق الأخُوَّة في الله

حقوق الأخوة فى الله

الأخوة فى الله كالشجرة تحتاج إلى عناية ورعاية، حتى تدوم خضرتها، وتبسق أغصانها، وتمتد فروعها، وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، هذه هى حقوق الأخوة فى الله، فاحرص عليها، فبها تدوم المودة وتبقى الألفة، ويمتد حبل الإخاء حتى ينتهى بك وبأخيك إلى رفقة فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، ولعلنا على ذكر مما ذكرناه من حقوق الأخوة فى الإنسانية، والأخوة فى النسب، والأخوة فى الإيمان، وهنا جماعها، وهنا فى مجال الأخوة فى الله مكانها، ولكن أداء تلك الحقوق فى هذا المجال المبارك ينبع من نفس محبة وقلب خافق بالود وعامر بالرضا، يؤديها الأخ لأخيه، لا يشعر معها بثقل الواجب ووطأة التكليف، وإنما يؤديها والشوق مركبه، والرضوان حاديه، والحب يستحث خطاه.

وما أجمل حياة هذا الإخاء أساسها، وما أكرم عيشًا يظله هذا الحب بظله الرحيب، وحقوق الإخوان كثيرة، حقوق مالية وحقوق أدبية، وهى فى النهاية تشكل سياجًا متينًا يحوط هذه الأخوة من كل جانب، يحميها من كل خطر، ويدفع عنها كل سوء، ولِم لا؟ وهى أخوة نبتت فى جو الطهر، وسُقيت من معين الإيمان، ورعتها العناية الإلهية، وحرستها القوى الربانية، إنها أخوة لله وفى الله ومن أجل الله، لا يجتمع أصحابها من أجل غرض من أغراض الحياة، ولا عرض من أعراضها الزائلة، فتزول بزوال هذا الغرض، وتتحول بتحول هذا العرض، إنما هى باقية ممتدة؛ لأنها مرتبطة بالباقى الذى لا يزول، ولذلك بقيت وامتدت إلى يوم القيامة وإلى ما بعد يوم القيامة: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا

الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾[1].

وأول حقوق الأخوة في الله: الإعانة بالمال؛ فلا تحوجه إلى سؤالك لإعانته فيما ينوبه من نوائب الزمان، إنما تتفقد حاله فتجبر كسره، وترد لهفته، وتستر عورته وتمد له يد المساعدة، وهذه أدنى درجات الأخوة، وهناك درجة أعلى وهى أن تجعله شريكًا لك فى مالك فتشاطره إياه عن طيب خاطر، وربما ارتقت بك الهمة فآثرته على نفسك، وقدمت حاجته على حاجتك، وهكذا كان سلفنا الصالح، فهؤلاء المهاجرون والأنصار، انظر إليهم كيف كانوا؟ كانوا إخوة فى الإسلام، وإخوة فى الإيمان، وإخوة متحابين فى الله، إذ حين قدم عليهم إخوانهم المهاجرون من مكة نزلوهم فى قلوبهم وبيوتهم، وقدموا لهم أموالهم، وأصبحوا وإياهم إخوة فاقت أخوتهم أخوة النسب، وتدبروا معى ما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ حيث قال: قدم عبدالرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى، وعند الأنصارى امرأتان، فقال لعبدالرحمن: إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين بينى وبينك، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لى أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب ـ أى ما عاد من السوق ـ إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو إلى السوق، ثم جاء يوما وبه أثر صُفْرة ـ أى من طيب يستعمله العروسان ـ فقال النبى ﷺ: مهيم؟ ـ أى ما هذا؟ ـ قال: تزوجت امرأة من الأنصار، قال: كم سقت إليها ـ أى كم دفعت من المهر؟ ـ قال: وزن نواة من ذهب، فقال:

---
(١) الزخرف: ٤٣/ ٦٧-٧٣.

«أولم ولو بشاة»، فأغنى الله عبدالرحمن وأصحابه من فضله، ولكن بقى هذا الإيثار مضرب الأمثال يذكره فم الزمان كلما كر الجديدان وتقلب الملوان.

وقد روى الإمام البخارى أيضًا عن أبى هريرة - رضى الله عنه قوله: قالت الأنصار للنبى ﷺ: اقسم بيننا وبينهم النخيل، قال: لا، قال: تكفوننا المؤونة وتشركوننا فى الثمر، قال المهاجرون: سمعنا وأطعنا». وقد مدحهم الله فى كتابه حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾[1].

وانظر إلى إيثار القوم وعلو همتهم، ومدى نقاء سريرتهم وحبهم لإخوانهم، وأنت تقرأ معى ما رواه البخارى - رحمه الله - عن أنس - رضى الله عنه - إذ قال: «**دعا النبى ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال - صلوات الله وسلامه عليه -: أما لا فاصبروا حتى تلقونى فإنه سيصيبكم بعدى أثرة**» إذ لم يكن عنده ﷺ ما يكفى المهاجرين والأنصار، فدعاهم إلى الصبر، وبين لهم أنهم سوف لا يحصلون من الدنيا إلا على القليل وسوف يستأثر بها غيرهم، ولابد لهم أن يصبروا حتى يلقوا رسول الله على الحوض، وهناك فى الآخرة يكون لهم الحظ الأوفر والنصيب الأعظم.

فمن واجب الأخوة فى الله أن تؤثر أخاك بمالك، وأن تقدمه على نفسك، يقول أبو سليمان الدارانى: لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخ من إخوانى لاستقللتها له. وقال أيضًا: إنى لألقم اللقمة أخًا من إخوانى فأجد طعمها فى حلقى، ويعبر عن ذلك قول على بن الحسين - رضى الله عنهما - لرجل: هل يدخل أحدكم يده فى كُمِّ أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد

(١) الحشر: ٥٩/٩.

بغير إذنه؟ قال: لا، قال: فلستم بإخوان. وإذا كان هذا هوالحق الأول وهو: الإعانة بالمال، فإن الحق الثانى هو:

الإعانة بالنفس، فالأخ ينظر إلى حـاجات أخيـه فى الله، فيـبادر إلى القيام بهـا قبل أن يسأله إياها، وإن سأله هش لذلك وبـش وظهر السرور فى وجهه، وسـارع لإجابة مطلب أخيه، وقـد ذكر الإمام الغزالى ـ عليـه رحمه الله ـ أن من السلف من كان يتفقد عيـال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة، يقوم بحاجـتهم، ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من مـاله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه، بل كانوا يرون منه مـا لم يروه من أبيهم فى حياته، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخـيه ويقول: هل لكم زيت؟ هل لكم ملح؟ هل لكم حاجـة؟ وكان يقوم بهـا حيث لا يعرفـه أخوه[1]. وإذا لم يكن بين الإخوان مثل هذا الود وهذه المشاعر النبيلة فليسوا بإخوان.

وقد قضى ابن شبرمة حاجة كبـيرة لبعض إخوانه فجاءه بهدية، فقال ابن شبـرمة: ما هذا؟ قـال: لما أسديتـه إلى، فقال: خـذ مالك، عـافاك الله إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه فى قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده فى الموتى" وكان من عادة سلـفنا الصالح أن يتفقدوا إخوانهم إذا غابـوا عنهم، وقد قـال عطاء: تفقـدوا إخوانكم بعـد ثلاث، فإن كـانوا مرضى فـعودوهم، أو مشاغـيل فأعينوهم، أو كـانوا قد نسوا فـذكروهم"، ولعل هذا بعض ما يوحى به قـول الله ـ تعالى ـ فى وصف أصحـاب رسول الله ﷺ ﴿رحمـاء بينهم﴾، ومن مقـتضيـات ولوازم هذه الرحمـة أن يسأل الواحد عن أخـيه إذا غاب، وأن يعينه إذا احـتاج، وأن يتفقد أحـواله ويقوم على خدمتـه دون طلب. وبهذا تسعد الأمم وترقى الشعوب، وتحـيا فى جو من الأمان والسلام والمحبة والوئام.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى جـ٢ ص١٧٥، ط: دار المعرفة بلبنان.

وهناك **حقوق أدبية** لا تقل درجة عن الحقوق المادية، وبها تدوم الألفة، وتعظم المحبة، ومن ذلك أن تكون مع أخيك فى الله على أعلى درجات الأدب والوقار والاحترام إذا تكلم استمعت إليه، وإن وجدت به عيبًا فاستره عليه ولا تتكلم به فى حضرته ولا غيبته، فهذا من الغيبة التى لا تجوز فى حق أى إنسان، فمالك بالأحباب والإخوان؟ ولتعلم بأنك لن تجد فى الدنيا مُبَرًّأ من النقائص خاليًا من العيوب:

من ذا الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

فإذا غلبت محاسنه مساوءه فهذا غاية ما يطلبه العقلاء من الناس، وعليك إذا حدثك بحديث أن لا تفشيه فإن أفشاء السر مما يزرع العداوة والبغضاء فى قلوب الأحباب، وإفشاء السر من صفات الحمقى الذين لا يعرفون كيف يحفظون أسرارهم، فكيف يحفظون أسرار غيرهم؟ ولهذا كنا نتذاكر فيمن يجب أن نتوقى صحبتهم فذكرنا هؤلاء الحمقى، لأنهم يضرونك من حيث يريدون أن ينفعوك، وليس فى صحبتهم خير ولهذا قال أبو سعيد الثورى: إذا أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه ثم دُسَّ عليه من يسأل عنك وعن أسرارك، فإن قال خيراً وكتم سرك فاصحبه. وقيل لأبى يزيد: من تصحب من الناس؟ قال: من يعلم منك ما يعلمه الله ثم يستر عليك كما يستره الله. وقال ذو النون: لا خير فى صحبة من لا يحب ألا يراك إلا معصومًا، ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم؛ لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها، ولكن كما قال القائل:

وما السر فى صدرى كثاو بقبره لأنى أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكننى أنساه حتى كأننى بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بينى وبينه عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

وإياك ومماراة إخوانك وردَّ أقوالهم، فإن هذا عنوان الكبر والتعالى على الأقران، ونسبتهم إلى الجهل وعدم المعرفة، وهذا مما يوغر الصدور، ويغير القلوب، ولهذا وردت السنة المطهرة بالنهى عن الجدال فى أسلوب ينفر ويخوف من الوقوع فى هذا المحظور، فقد روى البخارى ومسلم وغيرهما عن «عائشة» رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلى الله تعالى: الألدُّ الخَصِمُ**» والألد الخصم: هو شديد الخصومة، والخَصِمُ: الذى يخصم أقرانه ويحاجهم. ويروى الترمذى وابن ماجه والإمام أحمد عن أبى أمامة الباهلى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾**»[1].

وقد يكون المجادل على حق، ولكن لأن الجدال يفسد القلوب، ندبنا رسولنا الكريم إلى تركه؛ لأنه لن تصل به إلى غاية. روى أبو داود بسند حسن عن أبى أمامة الباهلى ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**من ترك المراء وهو مبطل بُنِى له بيت فى ربض الجنة، ومن تركه وهو مُحِقٌّ بنى له فى وسطها، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها**». وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: لا تمار أخاك فإن المراء لا تفهم حكمته، ولا تؤمن غائلته، ولا تَعد وعدًا فتخلفه» وقد قال بعض السلف: أعجز الناس من قصّر فى طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم. وكثرة المماراة توجب التضييع والقطيعة وتورث العداوة. وقال بعضهم: من لاحى الإخوان وماراهم قلّت مروءته وذهبت كرامته. ويكفيك فى هذا أن الجدال يعنى التحاسد والتدابر والتقاطع، وقد نهانا رسولنا عن ذلك فقال: «**لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه**

---

(١) الزخرف: ٥٨/٤٣.

ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

وليس هناك من احتقار وازدراء بعد تجهيله وتبهيته ورد قوله عليه، وإذا كان هذا لا يجوز منك لأخيك المسلم، فإن الأخوة فى الله تدعوك لالتزام هذا الأدب مع إخوانك فى الله من باب أولى.

ويبقى لك مجال واحد فى الرد على أخيك هو أن تأمره بمعروف أو أن تنهاه عن منكر، فهذا مما لا يجوز فيه السكوت بل هذا فى الواقع من واجبات الأخوة فى الله؛ لأنك بأمرك لأخيك بالمعروف تسدى له نصحًا وتحثه على طاعة الله، وبنهيك له عن منكر تأخذ بيده بعيدًا عن المهالك، ولكن فليكن ذلك كله برفق وأدب لا بالتعالى والتفاخر.

وقد جاء فى الحديث: «المؤمن مرآة أخيه»، وقال الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ: من وعظ أخاه سرًا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فضحه وشانه. وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحنى فيما بينى وبينه فنعم، وإن قرعنى بين الملأ فلا.

وإذا كان عدم النطق بما يسوء إخوانك في الله حقًا من حقوقهم فإن **الثناء عليهم وذكر محاسنهم والدفاع عن كرامتهم وشرفهم وأعراضهم** حق آخر من حقوقهم، فهذا يؤكد روابط الأخوة في الله، ويزيدها توثقًا وإحكامًا. وإذا كان الرسول الكريم ﷺ قد قال: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره**»، فإنما أراد بذلك أن تزداد المحبة بين الأخ وأخيه حين يعلم بحبك له، وإذا كان ﷺ قد قال في بيان أخوة الإسلام: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يثلمه**»، فإن الأخوة في الله تستوجب ذلك أيضًا وتزيد، ومن الانثلام أن تخذل أخاك وأن تري الآخرين يمزقون عرضه فلا تنتزعه من بين أنيابهم، ولا تدفع عنه عدوان المعتدين،

ولتتصور أن أخاك في هذا المجلس يسمع فيك ما تسمع فيه، فماذا كنت تحب أن تري منه؟ ولو كان أخوك جالسًا في موضع لا تراه فاطلع عليك، فماذا ترجو أن تكون وأنت تبصر المغتابين ينهشون لحمه ويأكلونه ميتًا؟. ولذلك قال بعضهم: ما ذكر أخ لي إلا تصورت نفسى فى صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقول فيّ.

ومن حقوق الأخوة: **أن تعلم أخاك مما علمك الله**، فإن العلم أغلى من المال، وحاجته إلى العلم أعظم من حاجته إلى المال، فليحرص كل من الأخوين أن يعلّم كل منهما الآخر. وقد قال ﷺ: «**بلغوا عنى ولو آية**»، فلو أن كل من حفظ آية من كتاب الله أو حديثًا من أحاديث رسول الله ﷺ أو حكمًا من أحكام الفقه الإسلامى، أو دعاءً نافعًا جامعًا من أدعية رسول الهدى ﷺ علمه لإخوته فى الله لكان فى ذلك عظيم الخير، وجليل النفع، وأعظم الأثر.

والعفو من شيم المتقين. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[1].

والعفو من شيم الكرام وأصحاب الهمم العالية، وهو حق عليك لأخيك فى الله، وأنت أمام هفوات أخيك وسقطاته تنظر: هل هى سقطة فى دينه أو فى دنياه، أو فى حقك أنت؟، أما سقطته فى دينه وزلته فعليك أن تسدى له النصح وأن تأخذ بيده فى رفق، فإن لم ينتصح وبقى مصرًا على معصيته، فقد رأى الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ

(١) سورة آل عمران: ٣/١٣٣، ١٣٤.

مقاطعته، وجعل هذا من الحب فى الله والبغض فى الله، ورأى غيره من أصحاب رسول الله ﷺ الإبقاء على أخوته أملاً فى إصلاحه. يقول أبو الدرداء: إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه، فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوجُّ مرة ويستقيم مرة أخرى.

وحُكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: أحوج ما كان لى فى هذا الوقت لما وقع فى عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له فى المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه. وفى دوام المصاحبة مع وجود المعصية ما يدعو إلى الحياء والإقلاع عن الذنب، ولو ترك وهو على حال من معصية الله لانفرد به الشيطان وقاده إلى المهالك؛ ولذلك قال بعض سلفنا الصالح: ودَّ الشيطان أن يلقى على أخيكم مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه، فماذا اتقيتم من محبة عدوكم؟

أما إذا كان تقصير الأخ فى أمور دنياه بتفريطه أو إفراطه إذ لم يأخذ ببعض الأسباب كسلا منه وتهاونًا، فأدى ذلك إلى حرمانه بعض ما كان يحب، فهذه تحتاج إلى مؤازرة الإخوان، ليبعثوا النشاط فى أخيهم، فإن الأخذ بالأسباب للوصول إلى النتائج سنة من سنن الله فى الكون، وإن كان مرد ذلك كله إلى فضل الله سبحانه.

بقى الأمر الثالث: وهو زلة الأخ فى حق أخيه وتقصيره فى القيام بواجبه، وهنا مجال العفو، وهنا تبدو الأخوة فى وجهها المشرق وهى تحمل من الأخ لأخيه كل العذر، وتحمل معها الصفح عن الزلات وإقالة العثرات.

خذ من خليلك ما صفا ... ودع الذى فيه الكدر

فالعمر أقصر من معاتبة الخليل على الغير

ولنذكر قول الشاعر:

ولست بمستبق أخـــا لا تلمـه   على شعث، أى الرجال المهذب؟

ولهذا قال الحسن بن وهب: من حقوق المودة أخذ عفو الإخوان، والإغضاء عن تقصـير إن كان، وقد روى عن عـلى ـ رضى الله عنه فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فـاصفح الصفح الجميل﴾، قال: الرضا بغير عتاب. وقد قال أبو العتاهية:

إن فى صـــحـــة الإخـــاء من النـاس وفى خلة الـوفـــاء لقـلة

فـالبس الناس مـا استـطعت على النقص وإن لم تسـتـقم لك خلة

عش وحـيـــدًا إن كنت لا تقـــبل العـذر وإن كنـت لا تجـاوز زلة

من أب واحــــد وأم خلقـنا غـــيــــر أنـا فى المال أولاد عـلة

وقيل لخالد بن صفوان: أى إخـوانك أحب إليك؟ قال: من غفر زللى، وقطع عللى، وبلغنى أملى.

وقال الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ:

أحب من الإخـوان كل مـواتى   وكل غضيض الطرف عن عثراتى

يوافــقنى فـى كل أمـــر أريده   ويحـفظنى حـيًا وبعـد وفـاتى

فمن لى بهذا؟ ليت أنى أصـبته   فقـاسمته مـا لى من الحسنات

تصفـحت إخوانى وكـان أقلهم   على كثرة الإخوان ـ أهل ثقاتى

وأنشد ثعلب:

إذا أنت لم تستقبل الأمر لم تجد   بكفـيك فى أدبـاره مـتـعلقـا

إذا أنت لم تتـــرك أخـاك وزلة   إذا زلهـا أوشكتـما أن تـفرقـا

وحكى الأصمـعى عن بعض الأعراب أنه قال: تناس مسـاوئ الإخوان يدم لك ودهم.

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها؟؟ كفى بالمرء نبلا أن تعد معايبه[1]

ومن حقوق الأخوة فى الله **الدعاء له بظهر الغيب في حياته ومماته**:

والدعاء دليل حب وعنوان صلة، فأنت تذكر أخاك فتدعو له كما تدعو لنفسك، وقد جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن أبى الدرداء: **«إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك»** وعنه أيضًا عن رسول الله ﷺ: **«دعوة الرجل لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل: آمين، ولك بمثل»**. والإخوان بعد الموت فى حاجة إلى دعاء إخوانهم؛ ولهذا جاء قول الله ـ تعالى ـ يعلمنا ذلك، فقال عز من قائل: **﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾**[2].

ومما يستبقى لك الود وفاؤك لأخيك دائمًا وأبدًا فى حياته، وبعد مماته، ببر أبنائه وأصدقائه وأحبابه، وأن يدوم هذا الود مهما تغيرت بك الأحوال وأقبل عليك الزمان:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الخشن

ومن وفائك لإخوانك أن تتألم لفراقهم، وأن تحن للقائهم، وأن تكون أنت وهم كالجسد الواحد لا يستغنى بعضه عن بعض.

ومما يديم لك الحب زوال الكلفة، وتخفيف المؤونة، فأنتما تآخيتما فى الله، فلا حاجة لكما إلى التكلف، ولذلك كان جعفر الصادق يقول: أثقل

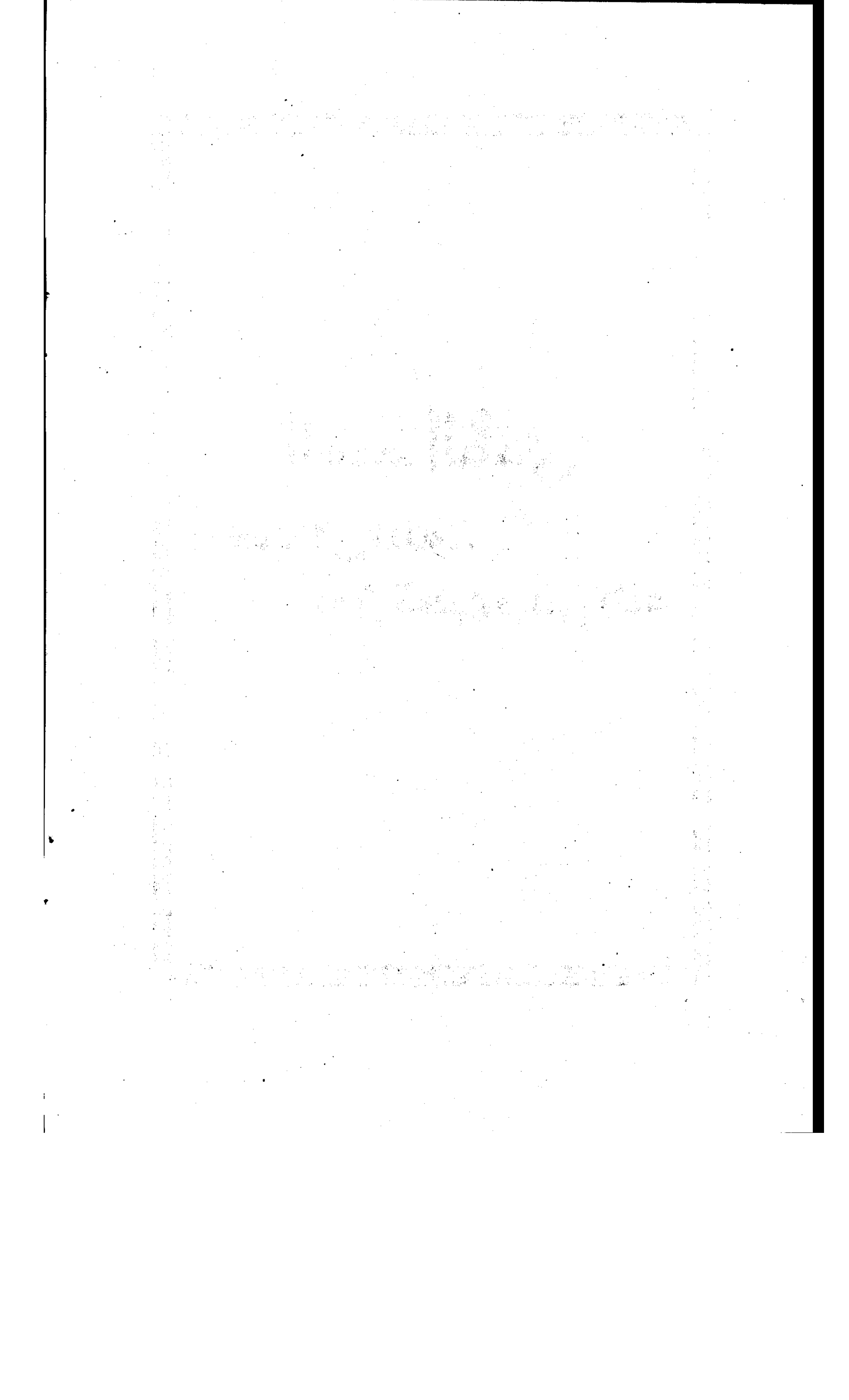
(١) انظر: أدب الدنيا والدين، ص١٧٩.
(٢) الحشر: ٥٩/ ١٠.

إخواني على من يتكلف لي، وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي. وقد قيل: من سقطت كلفته دامت ألفته، ومن خفت مؤونته دامت مودته.

هذه بعض حقوق الأخوة في الله، وبها تدوم المحبة وتعظم الألفة، ويحيا الناس إخوة متحابين. فما أكرم حياة هذا الحب فيها، وما أجمل عيشًا هؤلاء الإخوان عون عليه.

الباب الثانى

الحب فى الله..
ومن نحبهم فى الله



مدخل

في الحب في الله والبغض في الله

من لا يعرف الحب لا يعـرف البغض، ومن لا يعـرف الحب ولا البغض فَقَدْ فَقَدَ صفة من صفـات إنسانيته، ودلّ على أنانيته، وأنه لا يعرف من دنياه إلا مطامعه ومطامحه وشهواته، وهو بذلك فاقد للإيمان، منحرف عن هدى الله وهدى رسـوله، ومخالف لـنهج الأنبياء والـصالحين في عـدائهم لأهل الكفر. قال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[1].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾[2].

وقال في وصف المؤمنين الصـادقين: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3].

وقـد تذاكرنا من قـبل أول حق من حـقوق إخـوّة الإيمان فكان مـوالاة المؤمنين، ومناصرتهم، وقطع كل صلة قلبية ومودة نـفسية مع غير المؤمنين، إذ كيف تحب من سخـر منك ومن إخوانك المؤمنين، واستهـزأ بالله ورسوله

(١) الممتحنة: ٦٠/ ٤. (٢) المائدة: ٥/ ٨٠، ٨١.
(٣) المجادلة: ٥٨/ ٢٢.

وكتابه؟. قــال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَــذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنــتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[1].

وقد قال القائل:

من حبنى فليجتنب من سبنى	إن كان صان مــودتى ورعانى
وإذا محــبى قد ألاذ بمبــغضى	فكلاهما فى البغض مشتركان

وقــد جاءت السنة المطهــرة وأقــوال وكلمات السلــف الصالح تبـين هذا وتوضحه وتؤكــده: روى الإمام أحمد بسنده عن مــعاذ بن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه ســأل رســول الله ﷺ عن أفــضل الإيمــان، فقــال: «**أن تحب لله وتبغض لله، ويعمل لسانك فى ذكر الله، قال: وماذا يا رسول الله، قال: وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك**».

فقــد بيّن لنا المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليــه ـ فى هذا الحديث أن أول عمل من الأعــمال الفاضلة التى تدل على إيــمان المؤمن، الحب فى الله والبــغض فى الله، ومــا ذلك إلا لأن الحب فى الــله والبــغض فى الله همــا منطلق الإنسان المؤمن فى هذه الحياة، وبهما تتحدد علاقته بأهل الإيمان، بل وبهــما يعــرف إيمانه، ولنتــــدبر قول الله ـ تعــالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[2].

وصدق الله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، فإن من أحب قــومًا كان معهم فى الدنيا والآخرة. يقــول ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: "لو أن رجلاً

(١) المائدة: ٥/٥٧.

(٢) المائدة: ٥/٥١.

قام بين الركن والمقـام يعبد الله سبعـين سنة لبعثه الله مع مـن يحب" ، فهذا الذى والى أعداء الله وأحبـهم لايزال فى كل لحظة يتنازل عن شىء من دينه، تقليدًا لمن والاهم حتى تنحل فيه عرى الإسلام عروة عروة، فيترك دينه جملة وتفصيلا، ولا يبقى له من الإسلام إلا اسمه ولا من الدين إلا رسمه.

ولذلك كان بغض أهل الكفر والمعاصى من الأعمال التى تُقرّب العبد من الله. يقـول الحسن ـ رضى الله عنه ـ: "مـصارمـة الفاسق [أى مـقاطعـتـه وعداوته] قربان لله". وقال «عيسى» ـ عليه السلام ـ: **«تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصى، وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم، والتمسوا رضا الله بسخطهم، قالوا يا روح الله فـمن نجالس؟ قال: جـالسوا من تذكركـم بالله رؤيته، ومن يزيد فى عملكم كلامه، ومن يرغّبكم فى الآخرة عمله»**.

وقال عبـدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ: "والـله لو صمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالى غلقًا غلقًـا فى سبيل الله، أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله، وبغض لأهل معصية الله ما نفعنى ذلك شيئًا".

وإذا كـان الأمـر علـى هذا النحـو من الخطورة، وكـان الحب فى الله والبغض فى اللـه دليل الإيمان وعنوان الإسلام، وإذا كنا نـحب أهل الطاعة ونكره أهل المعصية، فـهيا نتجول جولات فى كتـاب ربنا وسنة نبينا، لنعرف بشىء من التفصيل من هم أهل طاعـة الله، الذين نحبهم فى الله، ومن هم أهل المعاصى الذين يجب أن نـبغضهم فى الله ومن أجـله، فبمعـرفة هؤلاء وأولئك نضع النقـاط على الحروف، ونرى صـورًا مشرقـة للخيـر، وصورًا أخرى مظلمة للشر، فنسير فى طريقنا آمنين مطمئنين.

ومادام الحب فى الـله والبغض فى الله، فـإنا معاشـر المؤمنين نحب من

يحبهم ربنا، ونبغض من يبغضهم، فالله يحب المتقين[1]. قال ـ تعالى ـ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾[2]. والتقوى كما وردت على ألسنة السلف الصالح: هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل، والمتقون كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[3].

والتقوى باب واسع يحلو فيه الحديث ويطيب، وأهل التقوى موضع محبة الله، وهم فى مقدمة من نحبهم فى الله، ومن نبحث عنهم لنعقد معهم صلات الود والإخاء؛ لنحظى بشفاعتهم فى الآخرة، وبالسعادة والثقة والاطمئنان فى صحبتهم فى الدنيا والآخرة.

والله يحب المحسنين. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[4].

وقال عز من قائل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[5].

والرسول الكريم ﷺ يوضح لنا هذا فى حديث «جبريل» ـ عليه السلام ـ حين سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال: **«أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج**

---

(١) سيأتى الحديث مفصلا عن التقوى بعد قليل.

(٢) آل عمران: ٣/ ٧٦.

(٣) البقرة: ٢/ ١٧٧.

(٤) البقرة: ٢/ ١٩٥.

(٥) آل عمران: ٣/ ١٣٣، ١٣٤.

البيت إن استطعت إليه سبيلا»، ثم سأله عن الإيمان فقال له: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**»، ثم سأله عن الإحسان فقال له: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فبين لنا بهذا أن الإحسان درجة عالية من الإخلاص لله فى الظاهر والباطن، فلا يؤدى المسلم ما وجب عليه مجرد أداء، إنما يتحرى الدقة والكمال، حتى يأتى عمله على أحسن وجه وأتمّه، فيحظى بالقبول والرضوان، ولذلك بعد أن عرف المتقين بأنهم الذين ينفقون فى السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، عقب على ذلك بقوله ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾، وكأنه بهذا التعقيب يطالب المتقين أن يلتزموا بهذا السلوك الكريم على وجه المراقبة الشديدة والإحساس العميق باطلاع الله عليهم، حتى تأتى أعمالهم وأقوالهم على أعظم درجات الإحسان، فيكون لهم الخير العميم، والفضل العظيم.

ومثل هذا المعنى ما نجده فى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)**﴾[1].

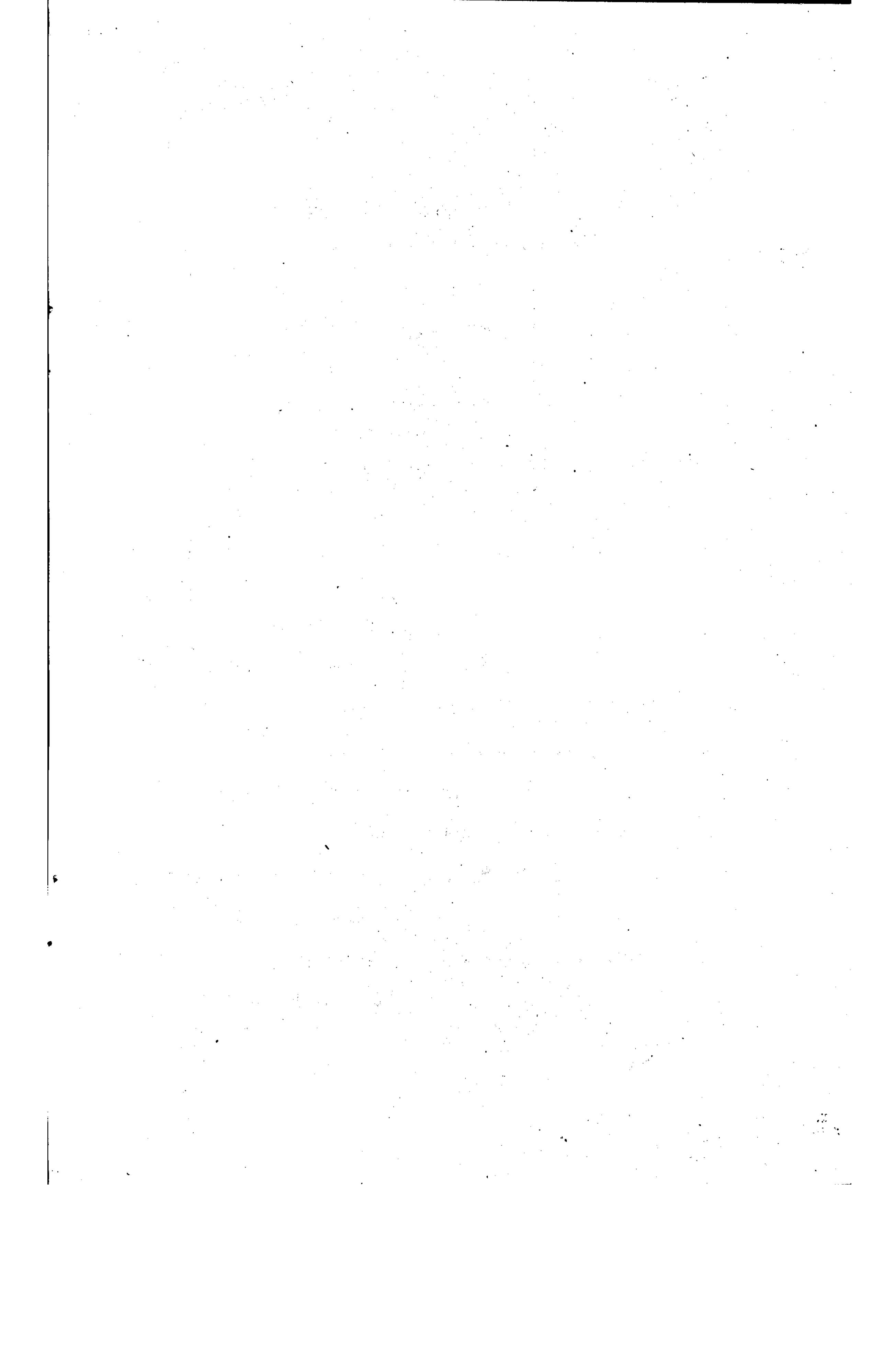
وإذا كان الله يحب المحسنين، فنحن كذلك نحبهم، فهم الصورة المشرقة التى تبدد الهموم والغموم، وتلقى بصحبتها فى النفس والقلب برد الأمان والسلام.

فى هذا المجال مجال المحبة فى الله ومن نحبهم، ومجال البغض فى الله ومن نبغضهم، سنحيا لنحدد للمسلم موقفه من كل ما حوله ومن حوله ليحيا إسلامه حركة نابضة بروح هذا الدين.

ولنبدأ بمن يحبهم ربنا، تشريفًا لهم وتكريمًا، ثم ننتقل للحديث عمن يبغضهم ربنا، والله المستعان.

---

(١) المائدة: ٥/ ٩٣.



الفصل الأول:

إن الله يحب المتقين

١ـ التقوى: منزلتها فى الكتاب والسنة.

٢ـ جزاء المتقين.

٣ـ المتقون هم الفائزون.

٤ـ إن المتقين فى مقام أمين.

٥ـ المتقون: من هم؟

إن الله يحب المتقين

١ـ التقوى: منزلتها في الكتاب والسنة

هذا خلق عظيم من أخلاق الإسلام، به حظى المؤمنون بمحبة الله ونصره وتأييده، وتوفيقه وتسديده، ذلكم هو التقوى، والحديث عن التقوى يطول ويحلو، ويتشعب ويمتد، وتتشابك أغصانه وتعظم ثماره، إذ ما من قول أو فعل أو حركة أو سكون فى حياة المسلم إلا وهو يرنو إلى هذا الخلق، وبدونه لا قيمة لأى عمل أو قول، فهو الروح المحركة، والحركة الدائبة، والقوة الدافعة التى تمنح أهل الإيمان إخلاصًا وصدقًا، وعزيمة وثباتًا، ولذا نجد أن القرآن يفيض فى الحديث عن التقوى، حتى لقد وردت بتصاريفها المختلفة فى هذا الكتاب المبين ثمان وخمسين ومائتى مرة، وجاءت بها السنة المطهّرة، وأفاض السلف الصالح فى الوصية بها، وما ذلك إلا لما لها من منزلة فى هذا الدين العظيم، بل إنها وصية الله لكل أمة، ووصية كل نبى لقومه. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[1].

واقرأوا إن شئتم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾[2].

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾

(١) النساء: ١٣١/٤.
(٢) الشعراء: ٢٦/١٠٥ـ١١٠.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾[1]. ومثل هذا قاله «صالح» و«شعيب»، وقاله «موسى» و«عيسى»، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[3]. وقال عز من قائل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾[4].

وجاء الدين الخاتم يدعو الناس إلى هذه التقوى، فجاءت دعوته مواكبة لعالميته، وأقام كل أوامره ونواهيه على قاعدة من تقوى الله ـ عز وجل ـ، بل جعلها الغاية من تشريعاته.

ترى ذلك فى الحدود: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[5]. وفى الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[6]. وفى الحج: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾[7]. إلى غير ذلك من التشريعات الإلهية، والتى شرعها الله ليربى الأفراد والمجتمعات على الخوف منه، ومراقبته، والسير على منهاجه، فإن تحقيق التقوى هو الغاية من عبادة الله، وعبادة الله هى الغاية

(١) الشعراء: ٢٦/ ١٢٣ـ١٢٦.
(٢) العنكبوت: ٢٩/ ١٦.
(٣) الصافات: ٣٧/ ١٢٣، ١٢٤.
(٤) الزخرف: ٤٣/ ٦٣، ٦٤
(٥) البقرة: ٢/ ١٧٩.
(٦) البقرة: ٢/ ١٨٣.
(٧) البقرة: ٢/ ١٩٧.

من إيجاد الخلق، فالتقوى غـاية الغاية، ونهاية القول، والأمل المرجى. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[2]. فى ختام وصايا سـورة الأنعام يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[3].

فـمن لم يحقق هذه الغـاية التى شـرع الله من أجلها مـا شرع، فـلابد له أن يراجع نفسه، وأن يحاسبها قـبل فوات الأوان؛ لأن هذه العبادات التى يتعبد بها لربه، وهذه الأوامر، وتلك النواهى التى ائتمـر بها وانتهى عنها، لم تؤدّ على وجـهها الصـحيح، شـأن المريض إذا أخذ الدواء عـلى غير مـا وصف الطبيب، فإمـا أن يضره هذه الدواء، وإما أن يبقى المرض ولا يستـفيد من هذا الدواء، ولذلك قـال ـ تعـالى ـ فى الصـلاة: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[4]. وجاء فى الحديث عن عمران بن حـصين قال: سُئل النبى ﷺ عن هذه الآية فقال: **«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»**، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهمـا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لم تنهه صلاته عن الفـحشاء والمنكر لـم يزدد من الله إلا بعدا»**. وهكذا الزكاة والتى يقول فيها المولى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[5]. فالزكاة تزكية للنفس، وتطهير لها من الشح والبخل، وكم أهلك الشح والبـخل أمما حملهم على أن سـفكوا دماءهم، واسـتحلوا محارمهم كما يقول رسولنا الكريم ﷺ.

(١) الذاريات: ٥١/٥٦، ٥٧.
(٢) البقرة: ٢/٢١.
(٣) الأنعام: ٦/١٥٣.
(٤) العنكبوت: ٢٩/٤٥
(٥) التوبة: ٩/١٠٣.

ومن لم يرتفع بالزكاة عن الحقد والحسد وضيق النفس، ومن لم يتحرر بها من أنانيته وحبه للدنيا، ومن لم يرتبط بها بمجتمعه وأمته، من لم تؤدّ الزكاة فيه هذه المعانى، وتؤصل فيه هذه القيم، فمعنى ذلك أن زكاته غير مقبولة، لأنه أدّاها على غير ما أمر الله من الإخلاص وابتغاء مرضاة الإله الكريم، إنما أدّاها رياء وفخرًا وخيلاء واستعلاء على الضعاف من الناس، فلم يزدد بذلك من الله إلا بعدًا، ولم يزدد بدفعها على هذه الصفة المقيتة إلا مرضًا. ونستطيع أن نقول هذا فى كل عبادات الإسلام وشرائعه، فإنها مناهج ربانية تأخذ بيد المسلم فى رفق إلى أن تقيمه على الجادة، فلا يراقب إلا ربه، ولا يخشى غير مولاه، ولعل هذا هو بعض ما يشير إليه حديث جبريل حين جاء يسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فبين له أن الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. وأن الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وأخيرًا ذكر له الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فجاء الإحسان جامعًا للإسلام والإيمان، وكأن الإسلام وما جاء فيه، والإيمان وما يدعو إليه، كلها طرق توصل إلى مرتبة الإحسان، والذى هو المراقبة الدائمة والرعاية الكاملة لحقوق الله عز وجل، ولهذا أمر الله بالتقوى فى كثير من آيات القرآن العظيم. قال ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴿١٠٢﴾﴾[1].

وقد روى الحاكم وابن مردويه عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حق تقاته: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر**». وقال ابن عباس: ألا يعصى طرفة عين، ولما شق على المسلمين

(١) آل عمران: ٣/١٠٢.

ذلك وقالوا: ومن يطيق ذلك يا رسول الله؟ جاءتهم الإجابة من الإله الرحيم إذ قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1]. فهو جهاد المؤمن الدائب وسعيه الحثيث المتواصل، وبذل قصارى الجهد من أجل البقاء على طريق الحق، ولعل هذا هو ما يشير إليه قوله ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

إن الوفاة على الإسلام منّة من الله سألها الأنبياء والصالحون، والبقاء على الإسلام محض الفضل من الله عز وجل. قال «يوسف» ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾[2]. ، وكان أكثر دعاء رسولنا ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، ومع ذلك فإن الله ييسر لمن سلك طريقه سبيله، وعلى المؤمن أن يجتهد، وأن يلوذ ويعتصم بربه حتى يحفظ عليه دينه، فإن فرّط وضيع، كان عرضة لسوء الخاتمة ـ والعياذ بالله ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)﴾[3].

ويقول ربنا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾[4]. فهم الذين اهتدوا وسلكوا طريق الهداية، فزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم، فاللهم آت نفسى تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

والتقوى هى ميزان الحق الذى لا يخطئ، وعنوان القبول والتكريم الإلهى، فالله لا يفضل إنسانًا على آخر لحسب أو نسب أو جمال خلقة من

(١) التغابن: ٦٤/١٦. (٢) يوسف: ١٢/١٠١.
(٣) الليل: ٩٢/٥ـ١٠. (٤) محمد: ٤٧/١٦، ١٧.

طول أو قصر، إنما مقياس التفاضل بين الناس هو التقوى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]. ويقول الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: **«يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم جمية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: برٌّ تقى كريم على الله، وفاسق شقىٌّ هيّن على الله»**[2].

والتقوى هى الزاد الذى يعين على مشقات الطريق، يقول ربنا: **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب﴾**. وقد أخرج البخارى وأبوداود والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال: "كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ـ أى لا يحملون معهم طعامًا ـ ويقولون: نحن متوكلون، ثم يقدمون فيسألون الناس، فأنزل الله الآية: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾، فقد أمرهم بأن يحملوا معهم طعامهم وشرابهم ونفقتهم، أى عليهم أن يأخذوا بالأسباب، فهذا هو التوكل على الله، أما ترك الأسباب فهو تواكل لا توكل، ثم دلّهم على الزاد الحقيقى الذى يعينهم فى رحلة طويلة، لدار قرار، وليس هذا الزاد سوى التقوى، فمن اتقى ربه، فهو الذكى الفَطِن اللبيب؛ ولهذا وجه الأمر لأولى الألباب فقال: واتقون يا أولى الألباب، أى يا أصحاب العقول الفاقهة الذكية، وأنت:

أترضى أن تكون رفيق قوم	لهم زاد وأنت بغير زاد؟
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى	ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله	وإنك لم ترصد كما كان أرصدا

وهذا هو الصحابى البطل الشجاع عمير بن الحمام ـ رضى الله عنه ـ حين سمع رسول الله ﷺ ينادى المجاهدين فى بدر فيقول: **«قوموا إلى جنة**

(١) الحجرات: ٤٩/١٣.

(٢) الجامع للترمذى، ومشكاة المصابيح: باب المفاخرة، ص٦٥٨.

عرضها السموات والأرض»، فيقول عمير: جنة عرضها السموات والأرض؟ وكانت بيده تمرات يأكلها فألقاها، وقال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، وسلَّ سيفه ونزل إلى ساحة الوغى يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد … إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد … وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

فقاتل قتال الأبطال، حتى سقط شهيدًا، عليه رضوان الله.

يقول أبو العتاهية:

طوبى لعبد لمولاه إنابته … قد فاز عبد منيبَ القلب أواه
يا بائع الدين بالدنيا وباطلها … ترضى بدينك شيئًا ليس يسواه
حتى متى أنت في لهو وفي لعب … والموت نحوك يمشي فاغرًا فاه؟
تلهو وللموت ممسانا ومصبحنا … من لم يصبحه وجه الموت مساه
كم من فتى قد دنت للموت رحلته … وخير زاد الفتى للموت تقواه
كم نافس المرء في شيء وكايد … فيه الناس ثم مضى عنه وخلاه
وكل ذي أجل يومًا سيبلغه … وكل ذي عمل يومًا سيلقاه

وإذا كانت التقوى هي الزاد، بل هي خير الزاد، فإنها أيضًا كساء وغطاء، وستر ولباس، بل وخير لباس. قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

فقد نادى الإله الكريم بني آدم ليبين لهم أنهم جنس مكرّم يمتاز بصفات

(١) الأعراف: ٧/٢٦.

خاصة وغرائز من لون فريد، نعمة من الله وكرمًا، وتلكم هى الغريزة والفطرة التى خلق الله عليها الإنسان، فجعلته يستر عورته ويبحث عن ألوان من الجمال فيما يلبس، وهذا هو معنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾

وهذا مما يردُّ على من قال بأنَّ الإنسان حيوان ناطق، فالإنسان إنسان، له خصائصه ومميزاته، ومنها ما نرى من بحثه عما يحجب عورته عن الأعين، ولم يكتف بهذا حتى أخذ يتفنن فى اختيار ملابسه: فى ألوانها وخيوطها وحياكتها، ولذلك نقرأ فى الآيات السابقة فى سورة الأعراف ما كان من أمر أبينا آدم وأمنا حواء قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

وإذا كانت هذه هى الفطرة التى عملت عملها، فجعلت آدم وحواء يبادران إلى أوراق الجنة، ليأخذا منها ما يستر سوءاتهما، فإن هذه الفطرة قد أودع فيها شىء آخر أهم وأعظم وأكمل وأبقى، وبه النجاة والفوز: إنه توحيد الله ومعرفته، إذ ما من مولود إلا يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصّرانه، أو يمجّسانه كما يقول رسولنا ﷺ. قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾[2].

(١) الروم: ٣٠/ ٣٠.
(٢) الأعراف: ٧/ ١٧٢، ١٧٣.

ومن عرف الله إلـهًا واحدًا مـتصفًـا بصفات الجـلال والكمال، خـافه واتقاه، فخوف العبد من الله على قدر علمه؛ ولذلك قال ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله وأنا أشدك خشية**» وهذا ما يعنيه قول الله ـ تعالى ـ: ﴿**ولباس التقوى ذلك خير**﴾، فهو خير من اللبـاس الظاهرى، وخير من الزينة والرياش، فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم، إنما يـنظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وما فائدة الوجه الصبوح والثوب الفاخر لرجل لا يعرف الله، ولا يؤدى له حقه، ولا يرتدع عن معاصى الله؟؟

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجـــوس

فماذا تغنى القناديل والمصابيح والأضواء عن صاحـب قبر مجوسى كافر بالله؟

ولباس التقـوى ذلك الذى بلغ الغاية فى العظمة والرفعـة خير فى ذاته، فإن الخير يفوح من أردانه، ويواكبـه فى غدوه ورواحه، فإن من يرتدى لباس التقوى يعيش فى سـتر من ربه، وعافية فى دنياه وأخـراه، ويبدو بهذا الثوب الرائع جـميل المنـظر بهى المظهر، ولـعلك ترى هذا التَقِّـىَّ فى روعة خلقـه وموفـور أدبه، وعظمة إخـلاصه، ولين جانبـه، وقوة يقـينه، وسداد رأيه، وطيب حديثه، وسعة أفقه، ونور بصيرته، وصدق مودته، فتحبه، ومالك لا تحبـه وأنت ترى صورة من الكمـال الإنسانى، تبـدو فى هذا اللباس الجـميل لباس التقوى؟ إنهما لباسان: لباس ظاهرى: يستر الأجساد، ولباس معنوى: يستر العـيوب ويغفر الله به الذنوب، وكـلاهما من لوازم ومقتضـيات وجود الإنسان المستـخلف فى هذه الأرض، وثانيهما أعظم من أولهما، وهـما معًا عنوان الوجود الإلهى ومظهر العناية الربانية.

ولكم يحتاج ذلك إلى التدبر والتفكّر والتـذكّر، ليعرف الإنسان أن ذلك

من آيات الله، ولذلك قال: ﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾، ومن تذكر وخاف وقدّر الله حق قدره، واتقى ربه، فلم يتبذل ولم يخلع لباسه وثيابه، ولم يكشف عورته على الناس كما تفعل الكاسيات العاريات من النسوة فى أنحاء الأرض، ولم يخلع لباس التقوى فيتعرى عن الفضائل، ويبدو وجهًا كالحًا خاليًا من الخير، يعلوه ظلام المعصية، وتفوح من حركاته وشاراته رائحة النفس الخبيثة الوبيئة الغارقة فى حمأة الرذيلة.

ولكم حذر الله من ذلك، ولعلك تلمح معى النداء الثانى فى سورة الأعراف، الذى جاء بعد هذا النداء الذى نتدارس بعض أسراره ونحن نتحدث عن منزلة التقوى فى دين الله، وذلكم حيث يقول ربنا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾(١).

فالله سبحانه ينادى مرة أخرى أبناء آدم ليحذرهم مما وقع لأبيهم ـ عليه السلام ـ، فقد كان فى ستر من الله، وكان فى الجنة فى جوار الإله الكريم، لا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، ولكن بشرط أن لا ينسى عهده، وأن لا يأكل من الشجرة المحرمة، ولكن عدو الله وعدوه لم يتركه، إنما حاول أن يفتنه فكان ما كان. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾(٢)، وخرج آدم من الجنة، ونزل إلى الأرض، وبدأت قصة الصراع بين آدم وذريته وهذا الشيطان اللعين، فمن عاداه فاز ونجا، ومن والاه هلك وخسر خسرانًا مبينًا، ونزع الشيطان عنه لباسه وأظهر على الملأ سوأته، وبدا عريانًا وإن ظن ـ لفرط جهله ـ أنه مستور.

---

(١) الأعراف: ٧/ ٢٧.

(٢) طه: ٢٠/ ١١٥.

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى تقلب عريانًا وإن كان كاسيا

وخير خصال المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

وكقول الشاعر:

إلهي إنني أبغي رضاك وما لي في الورى أحد سواك

وكقول الآخر:

يا رب عدت إلى رحابك تائبا مستسلمًا مستمسكًا بعراك

وبحثت عن سر السعادة جاهدا فوجدت هذا السر في تقواك

أدعوك يا ربي لتغفر حوبتي وتعينني وتمدني برضاك

والتقوى مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة، فالرزق الوفير، والخير العميم أساسه تقوى الله. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾[2].

والخروج من كل ضيق، وفتح أبواب الفرج، واليسر بعد العسر، والأجر العظيم ـ والذى سنتحدث عنه بإسهاب فيما بعد ـ مردّ ذلك إلى تقوى الله. يقول ربنا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ

---

(١) الأعراف: ٧/ ٩٦. (٢) المائدة: ٥/ ٦٥، ٦٦.

يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾[1].

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية، ثم قال: **«يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم»**.

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ: **«من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»** وانظر معى إلى ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ؛ لترى ما كان عليه سلفنا الصالح، وما كان من إكرام الله لهم، يقول أبو هريرة: دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة ـ أى من الجوع ـ خرج إلى البرية ـ أى إلى الصحراء ليصطاد شيئًا ـ فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها وإلى التنور فسجرته ـ أى قامت إلى الرحى التى تطحن فأعدتها للطحن وإلى الفرن الذى يخبز فيه فأوقدته ـ ثم قالت: اللهم ارزقنا، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور، فوجدته ممتلئًا ـ أى وجدت الدقيق فى الإناء تحت الرحى واللحم فى التنور ـ كما فى الرواية الأخرى: فنظرت إلى تنورها ملآن من جنوب الغنم، فرح الزوج فقال: أصبتم بعدى شيئًا؟ قالت امرأته: نعم من ربنا، فأم إلى الرحى ـ أى ذهب إليها ـ فرفعها فذكر ذلك للنبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: **«أما أنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة»**[2]. وليس هذا بالأمر المستبعد أو المستغرب، فإن الله يتولى عباده الصالحين بالرعاية والعناية، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، وهذه «مريم» أم «عيسى» ـ عليه السلام ـ، يقول الله فى شأنها: **﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا**

(١) الطلاق: ٦٥/ ٢ـ٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٨٣، ٣٨٤.

الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

وهل يترك الولي وليه، والحبيب حبيبه؟ فما بالكم وقد اختص الله المتقين بولايته فقال: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وجعلهم موضع محبته، فقال: ﴿ومن أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾[3]، وقال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[4]، وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[5]، وأهلا لمعيته فهو معهم دائمًا بفضله وعلمه وإحسانه وجوده وحسن رعايته. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[6]، ويقول: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[7]. ومن كان الله وليه وحبيبه، ومن كان الله معه هل يخاف أو يحزن؟ إنه لا يحزن على ما فات، ولا يخاف مما هو آت، إنه مطمئن بربه وصدق وعده لعباده المتقين.

ولهذا قال سبحانه: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[8].

فهم لا يخافون حين يفزع الناس، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، لأنهم يرون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، تأتيهم ملائكة الرحمن بالبشرى حين الاحتضار، يزفون إليهم ما أعد الله

(١) آل عمران: ٣/ ٣٧.
(٢) الأنفال: ٨/ ٤٣.
(٣) آل عمران: ٣/ ١٧٦.
(٤) التوبة: ٩/ ٧
(٥) المائدة: ٥/ ٥٤.
(٦) البقرة: ٢/ ١٩٤.
(٧) النحل: ١٦/ ١٢٨.
(٨) يونس: ١٠/ ٦٢/ ٦٤.

لهم من كريم المنازل، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾[1].

وفى حديث البراء ـ رضى الله عنه ـ أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب فقالوا: اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء، وما أعظمها بشارة، وأما بشارتهم فى الآخرة فهى أعظم وأكمل. يقول ربنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[2]. ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾[3].

وقد روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال: أولئك أولياء الله يمرون على الصراط، وهم أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثيا، ومصداق ذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[4].

وقد نجّاهم ربهم وأمنهم من الفزع الأكبر، وساق لهم البشرى، لأن عملهم بنى على أساس متين مكين: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ

(١) فصلت: ٤١/ ٣٠، ٣١.
(٢) الأنبياء: ٢١/ ١٠١-١٠٣.
(٣) الحديد: ٥٧/ ١٢.
(٤) مريم: ١٩/ ٧١، ٧٢

وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1].

والعمل القائم على التقوى هو العمل المبرور المقبول، وقد قالها منذ فجر الإنسانية هابيل لأخيه قابيل. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[2].

ولقد كانت التقوى صمام الأمان الذى عصم أصحابه من الوقوع فى حبائل الشيطان، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[3]، إنهم دائمًا معتصمون بربهم، يفقهون عن الله هديه ووحيه، وتشرق أرواحهم بنوره، وانظر إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[4]، وإلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[5]، وإلى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[6]، لتعرف أن هذا الهدى وتلك المواعظ وهذا التذكير لا ينتفع بما فيه من خير إلا أهل التقوى، فإن الله قد منحهم نورًا فى البصائر، فرّقوا به بين الحق والباطل، وأدركوا ما ينفعهم وما يضرهم، وانكشفت لهم الحقائق، واتضحت أمامهم السبل. قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[7].

ولله درّ القائل:

---

(١) التوبة: ٩/١٠٩.
(٢) المائدة: ٥/٢٧ـ٢٩.
(٣) الأعراف: ٧/٢٠١.
(٤) آل عمران: ٣/١٣٨.
(٥) البقرة: ٢/٢.
(٦) الحاقة: ٦٩/٤٨.
(٧) الأنفال: ٨/٢٩.

المتقــون نجوم الأرض صفــوتها ... تفوح أخلاقهم بين الورى عطرا
يحـبــهم ربهم بل إنه مــعــهم ... فــلا يخافــون إرهاقًا ولا ضــرا
جنبهم اللــه من أهوال لفحتــها ... يصير ما عجلوا من حرها سترا
ييــسر الله لليــسرى صــراطهم ... ولا يضــيع من أعــمــالهم نزرا
يؤتيهم اللــه فرقانًا ويخــرجهم ... من كل ضيق ويؤتى الرحــمة الكبرى
تقــبل الله منهم كل ما عــملوا ... وليـــهم ربهم يعلى لهــم ذكــرا
إن العواقب للتقــوى فمن ثقلت ... بهــا موازينه لــم يحتــمل وزرا

٢ـ جــزاء المتقــيـن:

المتقون هم الفــائزون بمحبة الله، وتأييده، ونصــره، وعونه، وتسديده، وتوفيــقه، قــال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1]. الفائزون فى الدنــيا، والفائزون فى الآخــرة، وهو فوز وأى فوز؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[2].

وقبل أن نعرف مــا أعد الله للمتقين من عظيم الأجــر، ورفيع الدرجات فى الآخرة، وكــيف فازوا فــوزًا عظيمًا، يطيب لــنا أن نتوقف عند بعض اللمــحات القرآنية والنبوية فيما حظى به المتقون من عزة وسيادة وفوز فى الدنيا:

وأعظم نعمة فى الدنيا هى نعمــة التوفيق والسداد، وهى منحة من الله

(٧) النور: ٢٤/ ٥٢.
(٧) الأحزاب: ٣٣/ ٧٠، ٧١.

لأهل التقوى، يقول - تعالى - : **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾** فالتقوى باب من أبواب العلم الذى لا ينضب معينه، وهى علاج ناجع لما يشكو منه كثير من طلاب العلم من نسيان، ولما نشاهده من ضعف علمى، إذ قد عقمت الأمة فلم يتخرج فيها منذ أجيال حفاظ للعلم، كما كان حال هذه الأمة فى زمن مضى، وإلا فأين الأفذاذ من أئمة المذاهب، وحملة السنة، وأساطين اللغة وبحور العلم؟ ورحم الله الإمام الشافعى، فقد قال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى … فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور … ونور الله لا يهدى لعاصى

وهو من هو فى زهده وورعه وتقواه، وكان منهج السلف أنهم لا يتعلمون العلم للحصول على الشهادات، والوصول بها إلى درجات دنيوية، إنما كانوا يتعلمون العلم للعمل، وهذه هى التقوى. يقول ابن مسعود وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ: "كنا إذا سمعنا عشر آيات من القرآن لم نتجاوزهن حتى نعلم ما فيهن من العلم والعمل. قال: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا". وكنت إذا مررت ببيوت أصحاب رسول الله ﷺ فى غسق الدجى تسمع لها دويًا بالقرآن كدوى النحل، لقد تحولت بيوتهم إلى خلايا كخلايا النحل تحفظ كتاب الله وتتدارسه لتعمل به.

وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»**. إنهم عرفوا طريقهم، واتقوا ربهم، وعملوا

بما علموا، ففتح الله لهم أبواب العلم والمعرفة، وهم بذلك قد استجابوا لله وللرسول: روى مكحول عن عبدالرحمن بن غنم أنه قال: حدثنى عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: كنا ندرس العلم فى مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: **«تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا»**[1]. والأعمال إنما تقاس بعواقبها، فقد يعيش فرد أو جماعة فترة من الزمان يقاسون الشدائد، ويتحملون الآلام، ويلاقون الأهوال فى سبيل ربهم وما يؤمنون به، وقد يسقط فى الطريق أناس دون أن تقر أعينهم بما وعد الله عباده المجاهدين من نصر، ولكن ليس هذا هو المقياس، فإن مطموسى البصيرة يرون بمقاييسهم أن هذا الجهد لا ثمرة له ولا فائدة من ورائه، إلا أن تكون هذه الفائدة الدماء والأنفس، ومفارقة الدار والأهل والأحباب، والحرمان من المستلذات، والتعب، والشدة، ولكن هذا مقياس طائش، إنما المقياس الحقيقى هو مقياس الله عز وجل، وقد حكم وهو أحكم الحاكمين بأن العاقبة للتقوى، والفوز للمتقين، ولذلك قال ـ تعالى ـ بعد أن قص ما قص من خبر «نوح» وقومه، وما كان من نصر الله له: **﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾**[1].

وقال: **﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾**[2].

ونحن نذكر قصة «يوسف» ـ عليه السلام ـ، وما كان من أمر إخوته معه، وقد أيقنوا بإلقائهم ليوسف فى الجب أنهم فازوا بأبيهم ومحبته، وأنهم

---

(١) رواه الدرامى موقوفًا على معاذ بسند صحيح.

(٢) هود: ١١/٤٩.

(٣) طه: ٢٠/١٣٢.

أزالوا «يوسف» من طريقهم، وما علموا أن مقاليد الأمور بيد الله، وأنه خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين، وذلك حين رجعوا يشكون ليوسف ما نزل بهم من ضر وفاقة، وهم لا يعلمون أن هذا هو «يوسف» الذى ألقوه فى الجب، قال لهم ما ذكره القرآن عنه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[1]. نعم إنه من يتّق ويصبر فإن الله لا يضيعه ولا يخذله، ولابد أن يحظى بالرعاية والعناية، وأن يؤثره الله على من عاداه وخذله.

وهذا «موسى» ـ عليه السلام ـ يأتى فرعون بالآيات البيّنات الواضحات، فيؤمن بموسى ذرية من قومه، ويكفر فرعون ومن معه من ملئه، وتكون المواجهة بين الكفر والإيمان، والكفر مسلح بالمال والعتاد والرجال والقوة الأرضية، والإيمان مسلح بالثقة فى الله، وأنه لا يترك أولياءه للضياع، وتتعدد فى قصة «موسى» ألوان المواجهة، ولنكتف هنا بموقف واحد: ذلك ما يقصه القرآن من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[2].

(١) يوسف: ١٢/ ٨٩ـ٩٢.
(٢) الأعراف: ٧/ ١٢٧ـ١٢٩.

وكان نصر الله لموسى ومن معه، وخذلان الله لفرعون وجنده: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾[1]. وصدق الله إذ قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[2]، وإذ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[3]، وإذ قال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[4].

والدار الآخرة هى نهاية المطاف ودار الخلود، والسعيد حقًا من فاز فيها بالرضا والرضوان، والنعيم والجنان، والحور والولدان، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم، والشقى حقًا من لفحت النار فيها وجهه، وصب من فوق رأسه الحميم، وذاق النكال والوبال، وتجرع الحسرات أبد الآبدين، أما هذه الدنيا، فإن متاعها قليل، وما هى إلا لحظات أو ساعات، أو أيام معدودات تنقضى، وهى بجانب الآخرة ساعة من نهار، ولذلك يُسأل المجرمون يوم القيامة: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾[5]. والرفعة الحقة، والدرجات الجديرة بأن يُبذل من أجلها الغالى والنفيس، والربح الحقيقى الذى يجب أن يتنافس فيه المتنافسون، وأن يعمل له العاملون هى الرفعة هناك فى الدار الآخرة، وما فيها من درجات وفوز، وعزة، وكرامة، وأهل التقوى هم الفائزون بهذه الدار: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾[6].

---

(١) الشعراء: ٢٦/ ٦٤ـ٦٨.
(٢) الصافات: ٣٧/ ١٧١ـ١٧٣.
(٣) المجادلة: ٥٨/ ٢٠، ٢١.
(٤) القصص: ٢٨/ ٨٣.
(٥) المؤمنون: ٢٣/ ١١٢ـ١١٤.
(٦) البقرة: ٢/ ٢١٢.

ولا يعنى هذا أن المتقين لا يحفلون بالدنيا ولا يهتمون بشئونها، إنما هم فقط يضعونها حيث وضعها الله، إنهم فيها السادة والقادة والأعزاء، يمتلكون أموالها ويوجهون سياستها، ويديرون عجلتها فى قوة وثبات، ولكنها تبقى فى أيديهم لا فى قلوبهم، لا يغريهم بريقها، ولا يشغلهم عن ربهم ما فيها من زينة وزخرف ومتاع، إنهم أصحاب همم عالية، يريدون أن يحققوها، أما الذين كفروا فهم كالأطفال يلهون ويلعبون، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم، ولهذا ينظرون إلى أصحاب الاهتمامات الكبيرة نظرة سخرية وازدراء، ويخيل إليهم أنهم هم الفائزون، وأنهم بامتلاكهم لبعض أعراض هذه الدنيا سبقوا المؤمنين، وأصبحوا قممًا شامخة، وأن المتقين مازالوا فى السفح، وما دروا أن من سخروا منهم هم محل الرفعة والرضوان عند الله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾[1].

إن الفلاح، والنجاح، والعزة، والسيادة، والقوة، والأمن، والدعة، والسعادة، والرضا مطالب غالية يطلبها الناس، وأحلام عذاب تراود كل البشر، ولكن ما الطريق لتحقيق هذه المطالب والآمال والأحلام؟ من لا نور لهم يرون ذلك بالاستحواذ على المال، وجمع الدنيا من هنا وهناك، ومن أنار الله بصائرهم وقلوبهم يرون الطريق أمامهم لتحقيق هذا كله شيئًا آخر، إنها التقوى، تقوى الله فى السر والعلن، تقوى الله التى اختلطت بأرواحهم وأحاسيسهم ومشاعرهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2]. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[3].

(١) المؤمنون: ٢٣/ ١٤٢-١٤٣.
(٢) الحجرات: ٤٩/٣. (٣) الفتح: ٤٨/٢٦.

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقيّ هــو السعيــد

إن المتقين هم الفائزون فى الدنيا، وهم أيضًا الفائزون فى الآخرة، وإنهم يحوزون الدنيا لإقـامتها على منهج الله، وأنهم إن حـرموا من بعض لذائذها ومشتهـياتها، فإنما ذلك لحكمة أرادها الله، وإن الدنيـا لو كانت تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء، فهو لذلك يعطيها لمن أحب، ومن لا يحب، ولكنه لا يعطى الدين إلا لمن أحب، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ، ولكنها حـين تفتح عليهم لا تتعـدى أيديهم إلى قلوبهم، فلا سلطان لشهوة أو نزوة، أو مال، أو جاه أو غـير ذلك من أعراض الدنيا على قلوب أهل التقوى، وهذا هو الفوز الحقيـقى، وماذا بعد أن يحيا الإنسان فى هذه الأرض حرًا طليقًا لا يستعبـد إلا لربه؟ إنها السعادة كل السعادة، وبقيت هناك سعادة أكبر وأعظم، إنها الفوز بالجنة والنجاة من النار، إنها الآخرة التى جعلها الله للمتقين: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾[1]: أى لولا أن يعتقد كـثير من الجهلة بأن إعطاءنا المال دليل محبتنا لمن أعطيناه، فيـؤدى ذلك إلى فتنتهم، وكفرهم لأجل المال، لما أعطينا المؤمنين منه شيئًا وجعلنا ذلك خـاصًا بالكافرين، ولكن شاء الإله الحكيم أن يعطى هذه الدنيا للكافر والمـؤمن، أما الآخرة وما فيهـا من متاع عظيم باق، فهو شىء خاص بالمتقين، فلله الحمد والمنة.

والآخرة تبدأ من لحفظة مفارقـة الحياة، وهنا تكون البشارة، ومن هنا تبدأ لحظات السعادة لأهل التقوى، روى الإمام أحمد بسنده عن البراء بن

(١) الزخرف: ٤٣/ ٣٣ـ٣٥.

عازب ـ رضى الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفى يده عود ينكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثًا ـ ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن، وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها ـ يعنى على ملأ من الملائكة ـ إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة، فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماءالتى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة،فيقول الله اكتبوا كتاب عبدى فى عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه فى جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت،فينادى مناد من السماء أن

صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا فى الجنة. قال: فيأتيه من رورحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول: رب أقم الساعة،رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى[1] ـ أى ومالى من النعيم المقيم ـ» .

أرأيتم هذه السعادة تغمر أهل الإيمان والتقى وهم فى حال الاحتضار، وكيف تفيض أرواحهم على هذا النحو الطيب الكريم، وقد روى النسائى بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن نبى الله ﷺ قال: **«إذا حضر المؤمن، أتت ملائكة الرحمن بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجى راضية مرضيًا عنك إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا حتى يأتوا به أبواب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التى جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحًا من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه فإنه كان فى غمّ الدنيا، فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ قالوا: ذُهب به إلى أمه الهاوية، وأن الكافر إذا حضر أتته ملائكة العذاب بمسح [أى بثوب أسود] فيقولن: اخرجى ساخطة مسخوطًا عليك إلى عذاب الله عز وجل، فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الروح حتى يأتوا به أرواح الكفار»[2]** .

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب، ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائى، وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو.

(٢) أخرجه النسائى ٨/٤، ٩ فى الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، وإسناده حسن، ورواه أحمد وغيره.

وروى الإمام مسلـم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذاخرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها، قال حماد فى روايته: فذكـر من طيب ريحها، وذكـر المسك، قال: فيقـول أهل السماء: روح طيـبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسـد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه، ثم يقـول: انطلوا به إلى آخـر الأجل ـ أى إلى يوم البـعث ـ قـال: وإن الكافر إذا خرجت روحه، قال حمـاد: وذكر من نتنها فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفـه هكذا ـ بيانًا وإيضاحًا لخبث ريحـها ـ وذكر لعنا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال انطلقوا به إلى آخر الأجل»**[1].

وهذه هى أول مرحلة من مراحل الآخرة، رأينا بعض ما جاء فيها ـ وهو كثير ـ فيها من البـشارة ما لا يخفى، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[2].

إنها البشرى تُزف لأهل الإيمان عنـد الاحتضار، ومن حولهم من الأهل والأحـباب لا يشـعرون ولا يرون شـيـئًا من ذلك؛ لأن رؤية الملائكة فـوق طاقتهم وقدرتهم.

فإذا ما نتقلنا خطوة أخرى، إلى القبر، تلكم الحفرة الرهيبة المخيفة، التى

---

(١) أخرجه مسلم فى باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه.

(٢) الواقعة: ٥٦/ ٨٣-٩٦.

يُلقى فيها الأحبة، ويهال عليهم فيها التراب، وما هى إلا لحظات حتى يعود الأهل والأحباب إلى ما كانوا فيه، ليبقى من فى هذه الحفرة وحيدًا فريدًا لا أنيس معه ولا جليس، إلا ما قدم من عمل. فإن نجا الإنسان فى قبره، وألهم الرشاد والسداد، فقد فاز فوزًا عظيمًا. روى الترمذى بإسناد حسن عن هانئ مولى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتذكر القبر فتبكى؟ فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه، قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظرًا قط إلا القبر أفظع منه، قال هانئ: وسمعت عثمان ينشد على قبر:

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة ... وإلا فإنى لا أخالك ناجيا

ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر من التعوّذ من عذاب القبر، فقد روى البخارى ومسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «**عذاب القبر حق، قالت: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر**»، فماذا يكون عليه أهل التقى فى مثل هذا الموقف العصيب؟ إن لهم بشارة عظيمة من الله يسوقها لهم حيث يقول: **﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾**[1].

وما أعظم هذه البشارة الغالية العظيمة، فإن فتنة القبر فتنة عظيمة، ولكم يحتاج فيها العباد إلى توفيق الله وتسديده، وهذا إنما يكون لأهل الإيمان الصادق ممن عاشوا فى هذه الدنيا على خوف من الله، يراقبونه فى كل قول

(١) إبراهيم: ١٤/٢٧.

وعمل. وقد روى البخاري والنسائي عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: «**قام رسول الله ﷺ خطيبًا فذكر فتنة القبر التي يفتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة**». أخرجه البخاري هكذا، وزاد النسائي: «**حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ فلما سكنت ضجتهم قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله لك ماذا قال رسول الله ﷺ آخر قوله؟ قال: قد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور قريبًا من فتنة الدجال**»[1].

وأخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾. قال: نزلت في عذاب القبر. وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «**المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فذلك قوله: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت**»، وفي أخرى: قال: «**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، نزلت في عذاب القبر. يقال له: من ربك؟ فيقول ربي الله ونبيي محمد ﷺ**»[2].

وقد سبق أن تذاكرنا حديث أبي داود والنسائي عن البراء بن عازب فيما جاء في سؤال منكر ونكير للإنسان المؤمن. وقد روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قبر**

---

(١) رواه البخاري ٣/ ١٨٧ في الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، والنسائي ٤/ ١٠٣، ١٠٤ في الجنائز، باب: التعوذ من عذاب القبر.

(٢) رواه البخاري ٣/ ١٨٧ في الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، وفي تفسير إبراهيم، باب: ثيبت **الله الذين آمنوا بالقول الثابت**. ومسلم في الجنة، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه. والترمذي رقم ٣١١٩ في التفسير، باب: ومن إبراهيم، وأبو داود رقم ٤٧٥٠ في السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر.

الميت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر، والآخر: النكير، يقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول هو عبدالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعًا، ثم يُنَوَّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ، فيقول: أرجع إلى أهلى فأخبرهم فيقولان: نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقًا قال: سمعت الناس يقولون قولا فقلت كمثله، لا أدرى، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض التئمى عليه، فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[1].

وعند البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه الملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل، محمد؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبدالله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، قال النبى ﷺ: فيراهما جميعًا، وأما الكافر أوالمنافق - فى رواية: وأما الكافر والمنافق - فيقول: لا أدرى كنت أقول ما يقوله الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين، أى الإنس والجن»**، وهذا لفظ البخارى، وعند الإمام مسلم أن النبى ﷺ قال: **«إن العبد إذا وضع فى قبره، ثم ذكر نحو ما تقدم إلى قوله: فيراهما جميعًا، قال قتادة:**

(١) أخرجه الترمذى رقم ١٠٧١ فى الجنائز، باب: ما جاء فى عذاب القبر.

وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا ويملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون»(١).

وروى البخاري ومسلم ومالك والترمذي والنسائي عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»**(٢).

أما ضمة القبر فحسبك فيها ما سمعته من قول رسول الله ﷺ فيما يكون من أمر المنافق أوالكافر بعد أن يُسْألا فلا يجيبا فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وهذه الضمة لا ينجو منها أحد، ولكنها بالنسبة للمؤمنين أمر عارض سرعان ما يزول، ليعودوا إلى النعيم المقيم، وقد روى الإمام النسائي بسند صحيح عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: "هذا الذي تحرك له العرش - يعني سعد بن معاذ - رضي الله عنه - وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لقد ضُمَّ ضمة ثم فرج عنه"(٣).

هذه مرحلة من مراحل الدار الآخرة، رأينا كيف فاز فيها المتقون، فكانوا أسعد الناس وهم يفارقون هذه الدنيا، وأسعد الناس وهم في قبورهم، بل إنهم ليتمنون أن تقوم الساعة ليفوزوا بما أعد الله لهم مما تشتهيه الأنفس وتلذ

---

(١) رواه البخاري ٣/١٨٨ في الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، وباب: الميت يسمع خفق النعال. ومسلم في الجنة، باب: عرض معقد الميت من الجنة أو النار عليه.

(٢) رواه البخاري ٣/١٩٣، ومسلم في الجنة، ومالك في الموطأ ١/٢٣٩ في الجنائز، والترمذي رقم ١٧٠٢ في الجنائز باب: ما جاء في عذاب القبر، والنسائي ٤/١٠٧ في الجنائز باب: وضع الجريدة على القبر.

(٣) أخرجه النسائي ٤/ ١٠٠، ١٠١ في الجنائز، باب: صفة القبر وضغطته.

الأعين، فإذا مــا جاء الهول الأعظم، وأذن الله بانتهــاء أيام الدنيا، ونفخ فى الصور، فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا ما شاء الله، فإن لأهل التقوى الأمان والسلام، ولهم الأمان والسلام إذا ما نزل الفزع الأكبر، وزجر الناس زجرة واحدة فــإذا هم قيام ينظرون، هنالك يبدو فــوز المؤمنين واضحًا كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1].

وانظروا إلى حال غير الأتقياء من الأشقــياء والتعساء وأنتم تقرأون قــول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾[2]. وهذا هو حال الفريقين يوم اللقاء الأعظم يوم الحشر، يصوره قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾[3].

وفى مسند الإمــام أحمد عن النعمــان بن سعيد، قــال: كنا جلوسًا عند على ـ رضى الله عنه ـ فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: لا والــله ما على أرجلهم يحــشرون، ولا يحــشر الوفــد على أرجلهم ولكن على نوق لم ير الخلائق مثلها عليها، رحائل من ذهب، فيركبون عليها

(١) الأنبياء: ٢١/ ١٠٣.
(٢) يس: ٣٦/ ٥١ـ٥٨.
(٣) مريم: ١٩/ ٨٥ـ٨٧.

حتى يضربوا أبواب الجنة . إنه الوفد الكريم الذى يقدم على رب كريم، ليمنحهم العطاء الجزيل والأجر العظيم، أما المجرمون المكذبون للرسل، فإنهم يساقون فى ذلة وصغار إلى أرض المحشر، وردًا - أى عطاشى - لينالوا جزاءهم من الخزى والعذاب المهين، وهنا يقال: أى الفريقين خير مقامًا وأحسن نديا؟. وقد سبق هذه الآية فى سورة مريم ولحقها حديث عن المتقين والكافرين. قال - تعالى -: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[1].

فهنا يقسم المولى عز وجل بأنه لابد أن يحشر الكافرين وما يعبدون من دون الله، ثم يكون من أمره معهم ما صورته كلمات بل وحروف الآيات من النكال والعذاب، وبيّن سبحانه بأن جميع الخلائق واردون إلى النار، فأما الكافرون فهم يلقون فيها أبد الآبدين، وأما المتقون فهم من الناجين الفائزين، والآيات بذلك كما ترون تذكر مشهدًا كاملا من مشاهد يوم القيامة، بدأ بالحشر وانتهى بهذه النهاية للفريقين، وفى أواخر سورة مريم يبين الله ما كان من حال المؤمنين والمتقين فى الدنيا وما أكرمهم الله به فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾[2]. فأهل الإيمان والتقى جعل الله لهم فى قلوب العباد محبة، وقبولا أينما حلّوا وحيثما ساروا، وهذا من تيسير الله لهم حياتهم وأمورهم، حيث يجدون الرضا والمودة عند الناس، كما بين ربنا أنه إنما جعل هذا القرآن مفهومًا ينطق به الرسول الكريم بلسان عربى فصيح،

---

(١) مريم: ١٩/٦٨-٧٢.

(١) مريم: ١٩/٩٦، ٩٧.

ليحمل البشرى لمن اتقى، والإنذار للمعاندين المكذبين، وبين الموضع الأول والثاني يأتي قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾، تطمينًا للمؤمنين الصادقين وترهيبًا وتخويفًا للمجرمين الظالمين.

وقد جاءت السنة المشرفة تؤكد هذا المعنى وتوضحه، فقد روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنفا مشاة، أي على أقدامهم، وصنفًا ركبانًا، وصنفًا على وجوههم، قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك»**.
وهذه الصورة الأخيرة يرويها البخاري ومسلم عن قتادة عن أنس - رضي الله عنه - أن رجلا قال: « **يا رسول الله: قال الله - تعالى -: ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه؟ قال قتادة: بلى وعزة ربنا»**.

وفي القرآن: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[1].

وإذا كان أهل التقى هم أصدق الناس قولا وعملا، وأطهرهم سلوكًا واتجاهًا، فإن هناك يومًا عصيبًا رهيبًا يتمنى فيه الخلائق الانصراف ولو إلى

(١) القمر: ٥٤/٤٧-٥٥

النار، لما يجدونه من شدة وتعب، والمتقون فى هذا اليوم هم الفائزون. روى الإمام مسلم فى صحيحه عن المقداد - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، قال مسلم بن عامر: والله ما أدرى ما يعنى بالميل: مسافة الأرض أو الميل الذى تكحل به العين، قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه - وهو موضع الإزار، وهو الخاصرة - ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»**.

وروى الإمام أحمد، وأبى يعلى، وابن حبان فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال **«يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة»، فقيل: ما أطول هذا اليوم؟ قال النبى ﷺ: «والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة»**، فالزمن بالنسبة للمؤمن يمر سريعًا بمقدار ما يؤدى صلاة فرض من صلوات يومه، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً.

إن يوم الحشر ليوم من الأيام التى يبحث فيها كل إنسان لنفسه عن مخرج، ويشغل فيها كل امرئ بنفسه، ويبحث الناس فيه عمن يشفع لهم عند ربهم، فيأتون الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة فيعتذر كل نبى، إلى أن يأتوا إلى الشفيع المشفع والنبى الخاتم نبينا «محمد» ﷺ، فيقولون - كما روى البخارى ومسلم -: **«يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ يقول الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد من قبلى، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه واشفع تشفع،**

فأرفع رأسى فأقول: أمتى يارب، أمتى يارب، أمتى يارب، فيقال: يا محمد أدخل أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة،وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال ﷺ: والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى، وحينذاك يكون الحساب، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

وقال سبحانه: **﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾[2].**

وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما عن «عائشة» ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ قال: **«من نوقش الحساب عُذِّب! فقلت: أليس يقول الله فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا وينقلب إلى أهله مسرورا؟، فقال: إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»** فنسأل الله السلامة والعافية.

٣ـ المتقون هم الفائزون:

الفوز الأكبر والربح الأعظم هو الفوز فى دار القرار بجنات النعيم، والمتقون هم الفائزون فى هذه الدار حقًا، ومن عداهم من أصناف الخلق خسر خسرانًا مبينًا، وقد تتبعنا حياة القوم فوجدناهم ربحوا فى كل مرحلة ربحًا لا يوزن بمال، ولا يقدر بكل ما فى الأرض من متاع وزينة، إنهم ربحوا فى

---

(١) الأنبياء: ٢١/٤٧.

(١) الزمر: ٣٩/٦٩، ٧٠.

الدنيا رضا وسكينة وهدوء بال، وأخذوا من الدنيا ما أذن الله لهم به من عزة وسيادة وكرامة، وما أتيح لهم من رزق وفير ومال كثير، وبسطة فى الجاه والسلطان، وإن كان ذلك كله لم يتعد أيديهم إلى قلوبهم، فإن قلوبهم معلقة بالله، **«لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار»**. والمتقون فازوا كذلك فى الآخرة، وقد رأيناهم وقد سيقت لهم البشرى فى حال احتضارهم، ولحظات مفارقتهم لهذه الحياة، وعلمنا حالهم من السعادة حين نزلوا إلى قبورهم فألهمهم الله وثبتهم بالقول الثابت، وشهدوا شهادة الحق، فكانت قبورهم أرضًا خضرة، ووسع لهم فيها، ورأوا مقعدهم من الجنة، وحين قام الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلا يلجمهم العرق إلجامًا كان المتقون فى ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، وكانوا أسعد الناس بشفاعة النبى الرحيم والرسول الكريم سيدنا ونبينا «محمد» عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ونصبت الموازين القسط ليوم القيامة، فرجحت كفة المتقين، وظهر فضلهم على مرأى ومسمع من العالمين، فابيضت وجوههم، وسعدت قلوبهم، وأخذوا كتابهم بيمينهم، ففرحوا بفضل الله عليهم، ورحمته بهم، ومازلنا مع هؤلاء الفائزين، نتنقل معهم فى مشاهد القيامة لنراهم فى كل مشهد وكل موقف يحظون بالرضا والرضوان والأمان والسلام، والآن نحن معهم وهم يمرون على الصراط.

ولنستمع إلى ما رواه الإمام مسلم بسنده عن حذيفة بن اليمان وأبى هريرة - رضى الله عنهما - فى حديث الشفاعة، وفيه ذكر الصراط وكيف يمر عليه الخلائق، وذلك حيث يقول ﷺ: **«فيمر أولكم - أى على الصراط - كالبرق: قال: قلت: بأبى وأمى أى شىء كالبرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق، كيف يمر وكيف يرجع فى طرفة عين؟ ثم كمر الطير، وشد الرحال تجرى**

بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلِّمْ سلِّمْ حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا، قال: وفى حافتى الصراط كلاليب[خطاطيف من حديد] معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج [أى مصاب بخدش من أثر احتكاكه وشده بهذه الكلاليب] ومكدوش فى النار [مأخوذ بقوة وشدة وعنف] والذى نفس أبى هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعين خريفًا».

فنعوذ بالله من جنهم وما قرب إليها من قول أو عمل، ولا ريب أن الذين رسخت أقدامهم فى أرض التقى هم هؤلاء الذين يمرون على الصراط مرَّ البرق، جعلنا الله منهم فإننا نحبهم والمرء مع من أحب.

وفى حديث الإمام البخارى - رحمه الله - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - كثير من الدروس والعبر، ومن المناسب أن نذكره وذلكم **«أن الناس قالوا: يا رسول الله: هل نرى ربنَا يوم القيامة؟ قال: هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك، يُحشر الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت [أى الأصنام والشياطين]، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، وذلك بعد أن يريهم علامة يعرفونه به كما ورد فى رواية مسلم، فيدعوهم، ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم [أى وسطها] فأكون أول من يجوز [يمر] من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وسلام الرسل يومئذ اللهم سلم، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظَمها إلا الله، يخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، أى يهلك، ومنهم من يخردل، ثم**

ينجو - والمخردل كما في رواية مسلم المجازى، فهو يشد بالكلاليب فيقع في النار ليلقى جزاءه ثم يخرج - حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم بآثار السجود. وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار وقد امتحشوا [أى احترقوا] فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في خميل السيل [أى بسرعة] ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قِبَل النار، فيقول: يارب اصرف وجهى عن النار قد قشبنى ريحها [أى ملأ خياشيمه وآذاه] وأحرقنى ذكاها [أى لهبها] فيقول: هل عسيت أن أفعل أن تسأل غير ذلك، فيقول: لا وعزتك، فيعطى الله ما شاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يارب قدمنى عند باب الجنة، فيقول الله: أليس قد أعطيتنى العهد والميثاق ألا تسأل غير الذى سألت؟ فيقول: يارب لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت أن أعطيك ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسأل غير هذا، فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور، فسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يارب أدخلنى الجنة، فيقول الله: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيتنى العهود ألا تسأل غير الذى أعطيت، فيقول: يا رب لا تجعلنى أشقى خلقك فيضحك الله منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول: تمنَّ فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله: تمن من كذا وكذا، يذكره ربه، حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله: لك ذلك ومثله معه»

قال أبو سعيد الخدرى لأبى هريرة - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله، لك ذلك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة - رضى الله عنه -: لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله: « لك ذلك ومثله معه»، قال أبو سعيد - رضى الله عنه -: أشهد أنى سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لك ذلك

وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخول الجنة. رواه البخارى.

فانظروا إلى كرم الرب الكريم الحليم العظيم، وكيف منح عبده هذا الفضل العميم، فما بالكم بمن خافه واتقاه، وعاش فى هذه الدنيا لا يرجو سواه، ولا يخشى من عداه، إنه من الفائزين بفضل الله، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، إنما يدخل بفضل الله ورحمة الله، فلنر حال المتقين وهم قادمون إلى جنة ربهم، إن الجنة فى شوق إليهم، قد زينت لهم وأعدت إعدادًا كريمًا، وها هم أولاء قد احتشدوا على أبوابها تستقبلهم ملائكة الرحمن بالبشر والترحاب، ولنستمع إلى قول الله ـ تعالى ـ: **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾**[1].

وإذا كانوا هم قد سيقوا إلى الجنة، فإن الجنة قد قربت إليهم كما قال عز من قائل: **﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾**[2].

ولنستمع إلى ما رواه الإمامان: البخارى، ومسلم عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف متماسكون ـ أى مصطفون متحدون ليندفعوا مرة واحدة ـ آخذ بعضهم ببعض لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»**.

---

(١) الزمر: ٣٩/٧٣، ٧٤.

(٢) ق: ٥٠/٣١-٣٥.

ولذلك ورد الخبـر عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ كـما رواه الشيخان: «والذى نفس محمد بيده إن مـا بين مصراعين من مصـاريع الجنة كما بين مكة وهجـر»، وروى مسلم عن عتبة ابن غزوان ـ رضى الله عنه ـ «**ولقد ذكر لنا أن مصراعـين من مصاريع الجنة بينهمـا مسيرة أربعين سنة، وليـأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام ـ أى ممتلئ مكتظ بالداخلين إلى الجنة ـ**.

٤ـ إن المتقين فى مقام أمين:

إن الجنة قد هُيئت وزينت للمتـقين. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[1]. وقد روى الإمام مسلم عن سهل بن سعد الساعدى ـ رضى الله عنه ـ قال: شهدت من رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتـى انتهى ثم قال فى آخر حديثه: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشـر، ثم قرأ هاتين الآيتين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[2]**».

وروى الإمام مـسلم عن المغيـرة بن شعبـة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ «**أن «موسى» ـ عليه السلام ـ سأل ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ فقال: رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ـ أى درجاتهم ـ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيـقول: رضيت رب، فيقول: هذا ولك عـشر أمثاله، ولك ما اشـتهت نفسك ولذّت عينك، فيقـول رضيت رب، قـال: ـ أى موسى عليـه السلام ـ رب فـأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر**».

---

(١) آل عمران: ٣/ ١٣٣.

(٢) السجدة: ٣٢/ ١٦، ١٧.

وقد جاء فى القرآن ما يسعد القلوب المؤمنة التقية النقية مما أعده الله للمتقين، وهذا ما نقرؤه من قول الله - تعالى - فى سورة آل عمران وهو يقارن ويقابل بين متاع زائل فان قليل لا قيمة له مهما بدا فى نظر غير الفاقهين لأبعاد هذه الحياة مطلبا تبذل فيه الأعمار، وتراق من أجله الدماء، ومتاع باق خالد عظيم، ليتبين لأهل الحق والنهى والتقى ما هم فيه من منزلة وعزة وكرامة. فيقول عز من قائل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[1].

وفى آخر سورة آل عمران أيضًا يذكرنا بهذه المقارنة فيقول: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾[2].

ومثل هذه المقارنة يحملها القرآن فى سورة النساء، وهو يرد على من قالوا: ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب، فقال لهم: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[3].

ويذكرها كذلك فى سورة القصص وهو يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾[4].

---

(١) آل عمران: ٣/ ١٤-١٧.
(٢) آل عمران: ٣/ ١٩٦-١٩٨.
(٣) النساء: ٤/ ٧٧، ٧٨.
(٤) القصص: ٢٨/ ٦٠، ٦١.

إنهما حقًا لا يستويان. قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[1]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾[2].

ولذلك يروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قوله: **«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك من نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا ـ أى فى الدنيا ـ من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت شدة قط؟ هل مر بك من شدة قط؟ فيقول: لا والله يارب، ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط»** لقد فاز المتقون حقًا. قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾[3]. إنهم نزلوا دار القرار فهم فيها خالدون.

وقد روى الشيخان عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار،جىء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار فيذبح ثم ينادى مناد: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، وأهل النار**

---

(١) ص: ٣٨/ ٢٨. (٢) الحشر: ٥٩/ ١٨ـ٢٠.
(٣) النبأ: ٧٨/ ٣١ـ٣٦.

حزنًا إلى حزنهم»، وفى رواية: أن النبى ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كُلٌّ خالدٌ فيما هو فيه».

قال ـ تعالى ـ فى بيان حال الفريقين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾[1].

وقال أيضًا: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾[2]. وقال ـ تعالى ـ فى سورة الرعد: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾[3]. فما أعظم ما بين الفريقين وما أكرم ما أفاء الله به على المتقين.

ولننظر إلى ما رواه الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا ـ وفى

(١) الفرقان: ٢٥/ ١١ـ١٦.　　(٢) محمد: ٤٧/ ١٥.
(٢) الرعد: ١٣/ ٣٥.

رواية: تبتئسوا ـ. فذلك قوله عز وجل ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾»[1].

إنهم فى جنات النعيم. قال ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾[2]. وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[3] إلى آخر الآيات من سورة الطور، وفى سورة الدخان تقرأ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾[4].

وفى المرسلات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾[5]. والآيات فى هذا الباب كثيرة.

وقد روى الإمام البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك،**

---

(١) رواه مسلم فى صفة الجنة، باب: دوام نعيم أهل الجنة. والترمذى رقم ٣٢٤١ فى التفسير، باب: ومن الزمر.

(٢) القلم: ٦٨/ ٣٤.

(٣) الطور: ١٧ـ٢٠

(٤) الدخان: ٤٤/ ٥١ـ٥٧.

(٥) المرسلات: ٧٧/ ٤١ـ٤٥.

فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأى شىء أفضل؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[1].

نسأل الله أن نكون من هؤلاء المتقين، وأن نحظى معهم بلذة النظر إلى وجهه الكريم.

٥ـ المتقون.. من هم؟

لقد طوفنا طويلا فى رياض القرآن والسنة، لنجد روضة بهية الرواء، جميلة المنظر، شذية العطر، تلكم هى روضة التقوى، وفيها وقفنا فعرفنا عظيم مكانتها فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما حظى به المتقون من فوز فى الدنيا وأجر عظيم فى الآخرة، فاشتاقت منا القلوب لمعرفة هذا الصنف الممتاز من بنى الإنسان، وكان لابد لنا من أن نتساءل عن حقيقة هذه التقوى، وعن أصحابها، وكيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه من عزة فى الدنيا، وسعادة فى الآخرة.

فالتقوى وقاية، وصيانة، وحذر، وحماية، يعبر عنها أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ حين سأله عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال: "أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما فعلت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذاك التقوى". وقال على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ: "التقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل". وقال عمر بن عبدالعزيز ـ رضى الله عنه ـ: "ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: ترك ما حرم، وأداء ما افترض الله، فمن رُزق بعد ذلك خيرًا فهو

---

(١) رواه البخارى ١١/٣٦٣، ٣٦٤ فى الرقائق، باب: صفة الجنة والنار، وفى التوحيد، باب: كلام الرب مع أهل الجنة، ومسلم فى صفة الجنة، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة.

خير إلى خير" . وقال الحسن البصرى: "المتقون: من اتقوا ما حرم الله، وأدوا ما افترض عليهم" . والتقوى كما يقول طلق بن حبيب: "أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله" .

فهى عمل مبنى على علم ويقين وقصد، وليست عملا عفويًا يصادف الحق أحيانًا ويخالفه فى كثير من الأحيان، إنما هى شعور مستقر فى القلب المؤمن، يحركه لفعل الخير وترك الشر، ويدفعه لالتزام كل أمر، والانتهاء عن كل نهى، ويقوده إلى أن يترك ما لا بأس به حذرًا أن يكون فيه بأس، ويجعله يقيم سدًا منيعًا بينه وبين ما حرم الله، فيترك كل ما فيه شبهة ويركن إلى ما اطمأنت إليه نفسه، واستراحت إليه مشاعره، وانشرح به صدره، ولذلك قال ﷺ فى الحديث المتفق عليه، عن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنهما ـ: **«إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»**. فصلاح القلوب بالإيمان الصحيح هو الأساس الذى يقوم عليه بناء هذا الدين، وبه تصلح الحياة والأحياء.

وفى الحديث الذى رواه الإمام مسلم ما يوضح هذا المعنى، فقد روى بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله،**

ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه» .

فأنت ترى فى الحديث الشريف أنه أمر بأشياء، ونهى عن أشياء، ولفت الأنظار إلى جملة من حقائق هذا الدين وقال: «التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا (ثلاث مرات)؛ لأن الذى يقود إلى ذلك كله سلبًا وإيجابًا، فعلا وتركًا، هو خوف العبد ومراقبته لربه وإحساسه بالهيمنة عليه، وشعوره بما لربه من صفات الجلال والكمال، وما يجب عليه إزاء هذا الرب العظيم من حقوق وواجبات، يؤديها له وفاء لحقه، وعبودية وطاعة لهذا الخالق العظيم؛ ولذلك قال الحسن ـ رضوان الله تعالى عليه ـ: "ما نظرت ببصرى، ولا نطقت بلسانى، ولا بطشت بيدى، ولا نهضت على قدمى، حتى أنظر: أعلى طاعة أم على معصية، فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت" .

وهذا هو الإخلاص فى العبودية لله، وهذه هى حقيقة التقوى، فإذا أردنا أن نتعرف على المتقين من هم؟ من خلال ما ذكره ربنا فى كتابه، فسوف يتبين لنا أنهم أصحاب صفات عظيمة، استحقوا بها هذا الإكرام، وذلك التكريم، وهذا الفوز العظيم، فمن ذلك ما ذكره الله فى أول سورة البقرة: **﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾**[1] .

(١) البقرة: ٢/١ـ٥ .

فالقرآن الذى بلغ الغاية فى الهداية والإرشـاد لطرق السعادة الكاملة الشاملة، فى الدنيا والآخرة، والذى أنزله الله نوراً يهدى الحيارى إلى الطريق الأقوم، والسبـيل الأعظم، لا ينتفع بما فيـه إلا أهل التقوى، وأهل التـقوى هم من؟ إنهم الموصوفـون بهذه الصـفات الخمـس: يؤمنون بالغيب، والغـيب كل ما أخبر به الصادق المعصوم مما لا سبيل لرؤيته إلا عن طريق الإيمان به كما أخبر به رسل الله ـ عليهم السلام ـ؛ ولذلك قـال ﷺ فى بيان معنى الإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكتـه، وكتبه، ورسله، واليـوم الآخر، والقدر خـيره وشره**». وقد يبـدو أن الإيمان بالكتب والرسل أمـر مُشـاهَد ملموس، ولكنهـما من جانـب آخر يحـتاجـان إلى إيمان بالمصـدر الذى أنزل هذه الكتب، وأرسل هؤلاء الرسل، وهذا هو الله رب العالمين الذى لا تدركـه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهل يقام بناء بدون أساس؟

أما الصفة الثانية: فهى إقـامة الصلاة، وإقامة الصلاة تعنى أداءها كاملة الأركان والشـروط والآداب، وأن يؤديها الرجال جـماعة فى المسـجد، وأن يعدوا لهـا هذه المساجد، ومـا يلزمها من خطبـاء وأئمة، ولا يكون ذلك إلا بتعليم وتثقيف وجهاز متكامل، والقاعدة تقول: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والذى يقوم بهذه المهمة ويتحمل مسئـوليتها وتصبح شعاراً له وصفة تدل عليه هم المتقـون، أما غيرهم فلا يعنيهم هذا الأمر فـى قليل ولا كثير، ولهذا كانت إقامة الصـلاة من أول المهام التى يقوم بها المؤمنون المجاهدون فى سبـيل الله، الذين مكنهم فى الأرض كما قـال ـ تعالى ـ: **﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾**[1].

---

(١) الحج: ٢٢/ ٤٠، ٤١.

فإذا وجدت من يحافظ على صلاته ويؤديها كما أمر الله، ومن يدعو إليها ويحث الناس عليها، ويقيم لها دور العبادة، ويجعلها قاعدة لإصلاح الإنسانية فى أرض الله، فاعلم أن هذا ممن اتصفوا بصفة من صفات المؤمنين.

وقد جاء ذكر الصلاة كما ترى بعد الإيمان بالغيب؛ لأنها المظهر العملى لهذا الإيمان، فإن الإيمان تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، ولذلك روى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال لوفد ربيعة: «**هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس**».

فهذه مظاهر الإيمان التى تدل عليه، ومما يوضح هذه الحقيقة قول الله - تعالى - فى بيان من هم المؤمنون حقًا ما تقرؤه فى أول سورة الأنفال، حين جعل الإيمان أساس التقوى وما يتبعها من كل عمل صالح، فقال: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾. ثم بيّن صفات المؤمنين، فقال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)**﴾[1].

ولهذا تأتى الصفة الثالثة بعد إقامة الصلاة فى قوله - تعالى -: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾، والإنفاق هنا يشمل الزكاة المفروضة، والصدقات التى تدل على إحساس المتقين بأمتهم وإخوانهم، يجبرون كسرها، ويداوون جراحها، ويلمون شعثها، لا يعرفون البخل ولا الشحّ، وكيف وهم المشهود

(١) الأنفال: ٨/ ١-٤

لهم بالفلاح من قبل الله ـ تعالى ـ وقد قال سبحانه وهو يمدح الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ثم عمَّم الحكم فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. فالجود والكرم والعطاء والإنفاق في وجوه الخير سمة بارزة في حياة أهل التقى؛ لأنهم واثقون أن ما بين أيديهم إنما هو محض الفضل من الله، وهم فيما عند الله أوثق مما في أيديهم، فهم ينفقون لا يخشون من ذي العرش إقلالا، ولذا فهو دائم يفتح لهم أبواب الرزق: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾

أما الصفة الرابعة للمتقين فهي ما تقرؤه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾، والإيمان بالكتب المنزلة واحد من مفردات الإيمان الكامل، ولكن الإيمان هنا يعني الاتباع لهذه الكتب، وإذا كان القرآن قد جاء مصدّقًا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنًا عليه، فإن الإيمان بهذه الكتب المنزلة معناه التصديق بأنها أنزلت من الله على أنبيائه، والإيمان بالكتاب الخاتم يزيد على ذلك اتباعه والعمل به، وقد روى الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن نقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، ما يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده، وينثره نثر الدقل ـ والدقل: رديء التمر ـ. فالإيمان إنما يكمل بالعمل بالقرآن والسير على منهجه، وهذه صفة المتقين.

أما الصفة الأخيرة فهي الإيقان الجازم والتصديق الذي لا يعتريه شك في اليوم الآخر وما فيه، وهذه الصفة مظهر من مظاهر الإيمان، وعلامة مميزة

(١) الحشر: ٥٩/٩.

لأهل التقى حتى إن القرآن ليكتفى فى كثير من الأحيان بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر عن غيرهما من مقتضيات الإيمان، وما ذلك إلا لأن الإيمان باليوم الآخر يعنى تصديقًا يقينًا بأمر غيبى هو مرحلة ما بعد الموت، من البعث والحساب والجنة والنار، وغير ذلك من أمور لا مجال للعقل فيها، إنما تؤخذ من الصادق المعصوم - صلوات الله وسلامه عليه - فهو الطريق الذى يوصلنا إلى معرفة ما فى هذا اليوم، فمن وجدناه مؤمنًا موقنًا باليوم الآخر، عرفنا أنه مؤمن بالرسل والكتب والملائكة، ومؤمن بالله حق الإيمان، ومن حاز ذلك ومن اتصف بالصفات المذكورة تمكن من الهداية، وركب متنها، وكان جديرًا بالفلاح الذى ما حظى به إلا من كان على مثل حاله: ﴿**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾.

وفى سورة البقرة - مرة أخرى - يعرّف الله المتقين فيقول: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)**﴾[1].

والآية الكريمة فى الرد على اليهود الذين أثاروا فتنة شعواء، حين حوّل الله القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، فقالوا: ﴿**ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها**﴾، وأخذوا ينشرون الشكوك فى القلوب الضعيفة، وكما قال - تعالى -: ﴿**وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله**﴾، فكان أن نزل الوحى يرد على هؤلاء السفهاء قولهم، ويفنّد آراءهم الباطلة، ويبين ما هم فيه من جهل وحماقة، فقال لهم فيما قال: «ليس البر أن تولوا

(١) البقرة: ٢/١٧٧.

وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر» والبر هو : العمل الخير القائم على الإخلاص لله.

وكيف لا يكون جماع الخير وقد حمل ما فيه صلاح الفرد والجماعة، وواكب مسيرة الإنسان فى دنياه وأخراه، فأرشده إلى ما فيه سعادته وعزته وكرامته، وهذه هى التقوى وهؤلاء البررة هم المتقون.

ولنبدأ معًا فى متابعة خطوات هذه المسيرة، والتى حين يحقق العبد خطوة منها يكون بذلك قد تحقق بصفة من صفات المتقين.

وبداية الانطلاقة: من الإيمان، الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وإذن فأول صفة من صفات المتقين هى الإيمان بالله، وما يتبع ذلك من الإيمان بأن لقاء الله حقّ، وأن الجنة حقّ والنار حقٌّ، وما فى اليوم الآخر كله مما أخبر الله به فى كتابه وجاء على لسان نبى الله حقٌّ، وعلى قدر إيمان المؤمن يكون حظه من التقوى، فمن عَظُم إيمانه عظمت تقواه، ومن ضَعُف إيمانه وقل يقينه لم يبال الله فى أى واد من أودية الجهل والغفلة والذنوب هلك. ونعوذ بالله من ذلك، ونسأل المولى الكريم قلبًا خاشعًا، ونورًا ساطعًا، ويقينًا ثابتًا، وهداية إلى طريق الرشاد.

والإيمان له ثمرات وثمرات، بل له علامات وشارات، وهو الشجرة الطيبة المباركة: أصلها ثابت وفرعها فى السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وهو كالرائحة الطيبة، يفوح شذاها فى كل مكان مهما حاول صاحبها وحاملها أن يخفيها عن الناس، وثمرة الإيمان وعلامته تبدو مشرقة فى العمل الصالح، ولذا نجد القرآن يجمع بين الإيمان والعمل الصالح فى كثير من آياته، تقرأ ذلك فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾[1].

وفى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴿٢٣﴾﴾[2].

وفى قوله ـ تـعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات، وهى كثيرة فى كتاب الله، وهنا فى مجـال البحث عن صـفات المتـقين نجـد هذا المعنى، إذ بعد أن وُصـفوا بالإيمان، يوصـفون بالعمل الـصالح، وهذا العمل ذو شـقين يجمـعان كل صلات الإنسان وعلاقاته فيما بينه وبين الخالق، وفيما بينه وبين المخلوقين.

وقد بدأ القـرآن فى بيان سلوكـهم مع المخلوقين؛ لأنه هو المظـهر الجلى الذى يبدو به إيمان المؤمن فقال: **﴿وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب﴾**. فالبارُّ التقى إنسان يحب المال كما يحبه الناس، إنهـا غريزة حب التملك، تدعوه من داخله إلى جمع المال والاسـتكثار منه، ولكـنه يمتـاز على الناس بأنه أفلت من قـبضـة هذا الحب، الذى كثـيراً ما يـعمى ويصم، ويردى أصحـابه ويهلكهم، كمـا جاء فى وصيـة رسول الله ﷺ، وهو يحذر من الشح فـيقول: «اتقـوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[1].

فمن صفات الأتقياء: الجـود، والكرم، والبذل، والسخاء، إنهم يقيلون العثرات، ويفعلون المكرمات، إنهم الذين تحرروا من عبودية المال إلى عبودية من أعطاهم هذا المال، ومع أنهم يحبـون المال غريزة وفطرة وجبلة، إلا أنهم

(١) يونس: ١/٩.
(٢) إبراهيم: ١٤/٢٣.
(٣) البينة: ٩٨/٧.
(٤) رواه مسلم.

صارعوا أهواءهم حتى صرعوها، وانتصروا على دواعى النفس الأمّارة بالسوء، فجادوا بأموالهم ليسعدوا القريب، وليمسحوا دموع اليتامى والمساكين، وليكونوا عونًا وسندًا لكل عابر طريق، وليحفظوا على كل سائل محروم كرامته وإنسانيته، وليهبوا الحرية لكل الأرقاء، بمشاركتهم فى تحرير الرقاب، إنهم ينبوع خير وبركة وحب ورحمة وحنان، فاض خيرهم وبرهم على من عرفوه ومن لم يعرفوه، وكانوا لَبِنة قوية فى بناء أمتهم، بل ركنًا فى إقامة صرحها الشامخ، إنهم بنوا حياتهم مع الناس على الحب والعطف والمودة، فَنِعْمَ ما صنعوا.

وإذا كانت هذه علاقتهم مع الخلق، فلننظر كيف تكون علاقتهم مع الخالق؟ إن ذلك ما نقرؤه فى قول الله ـ تعالى ـ: **﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس﴾**، وهى صفات للمتقين جديرة بالنظر والتأمل، فالصلاة صلة بين العبد وربه، فيها راحة للنفس، وانشراح للصدر، وهى أول مظهر للإيمان بعد النطق بالشهادتين، وهى الركن الثانى من أركان الإسلام، وهى الفرق بين الكافر والمسلم، وقد شرعها الله وبيّنها لنا رسول الله ﷺ وقال: «**صلوا كما رأيتمونى أصلى**»، والمتقون يؤدونها فى مواقيتها بأركانها وسننها كما أمر الله وبين رسول الله ﷺ، وتلكم هى إقامتهم للصلاة، إنهم يرفعون علمها فى كل مكان، يعلمونها للناس ويأمرون بها الأهل والأبناء، ويتواصون فيما بينهم على إقامتها، وما إن تتاح لهم فرصة من التمكن فى أرض الله حتى يبادروا بإعلاء كلمة الله ورفع اسمه، ترى ذلك فى بنائهم للمساجد، ونشرهم لعلوم الإسلام، وإعدادهم للدعاة، وما إلى ذلك مما يعين على إقامةالصلاة. قال ـ تعالى ـ: **﴿الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾**.

إن أهل التقى هم المؤهلون لإقامة الصلاة، لأن خوفهم من الله يدعوهم إلى أن يجعلوها شعارًا لهم ودثارًا ومنهجًا وسلوكًا، يصلحون به أنفسهم ومن حولهم، وإذا كانت الصلاة عملا خالصًا لله، فهناك عمل آخر يبدو فيه رعاية أمر الله، وهو فى الوقت نفسه إسعاد للمجتمع، ذلكم هو إيتاء الزكاة، والزكاة فريضة من فرائض الإسلام وركن من أركانه، تزكّى صاحبها وتطهّره من الشحّ والبخل والحقد، والغل، وتغرس فيه الكثير من أخلاق الإسلام، وفيها الرحمة والمحبة، والإخاء، والمودة، والتعاون، والإخلاص لله، وإيتاء الزكاة وما يحمله من هذه المعانى الكريمة صفة من صفات المتقين.

أما الوفاء بالعهد فإنه صفة بارزة للمتقين، وهذا العهد الذى وفوا به يشمل عهدهم مع الله بتوحيده، والقيام بحقوقه، وعهدهم مع الناس، فهم إذا عاهدوا وفوا لا يخلفون موعدًا ولا يخونون موثقًا.

كما أن من صفاتهم الصبر على كل حال، وهذا ما نجده فى قوله - تعالى -: **﴿والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس﴾**. فمع هجوم كوارث الدهر وبلايا الأيام، تراهم الشُمَّ الرواسى لا تتزلزل أقدامهم، وفى ساحات الوغى حين تتطاير الأشلاء وتتمزق الأجساد وتطير الهامات، وحيث التضحيات الجِسام ترى شجعانًا وفرسانًا أقوياء، أشداء على أعداء الله.

ولكم نحن فى حاجة إلى أمثال هؤلاء القوم ليصلح بهم ما فسد من الزمان، فإن هؤلاء كما قال الله: **﴿أولئك الذى صدقوا وأولئك هم المتقون﴾**. رزقنا الله التقوى وجعلنا من عباده المتقين.

الفصل الثاني:

إن الله يحب التوّابين

إن الله يحب التوابين

ممن يحبهم الله التوابون، قال ـ تعالى ـ في سورة البقرة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[1]. والصلة بين التوبة والطهر صلة وثيقة سنعود لها ـ بإذن الله ـ في حديث لاحق، فليكن حديثنا عن التوابين، والتوبة ومحبة الله للتائبين ودعوته عباده للتوبة، وما أعد الله للتائبين من عظيم الأجر ورفيع المنازل، وما علينا من محبة التائبين، فإنا نحبهم لأن مولانا وإلهنا يحبهم، وما أحبهم ربنا إلا لما لهم من عظيم الصفات وصادق العزيمة وحسن التوجه لله، ولذلك قال عمر ـ رضى الله عنه ـ: "اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرقُّ أفئدة"، فهم بذلك أقرب الناس إلى الله، ولا غرو فإن التوبة تعنى الاعتراف لله بما اتصف به من صفات الكمال، وتعنى إظهار العجز والنقص والتقصير بين يدى التواب الرحيم، وهى بذلك عنوان صدق الإيمان، وبرهان على حسن إسلام العبد، ولذلك رأينا فى مقدمة التائبين الأنبياء وأتباعهم، فهذا آدم ـ عليه السلام ـ حين وقع فى المعصية هو وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2].

وهذه هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه فاستجاب له وغفر له وتاب عليه كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[3]. وهذا «موسى» ـ عليه السلام ـ حين طلب من

(١) البقرة: ٢/٢٢٢. (٢) الأعراف: ٧/٢٣.
(٣) البقرة: ٢/٣٧.

ربه الرؤية، ماذا كان من أمره وبماذا أجابه ربه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[1].

وهذا أبو الأنبياء «إبراهيم» - عليه السلام - يرفع القواعد من البيت و«إسماعيل» ويتقربان إلى الله بهذا العمل المبرور، سائلين ربهما القبول، ضارعين إلى المولى الكريم: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[2].

ومن صفات الخليل - عليه السلام - ما ذكره ربنا حيث قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[3]. والأواه: الذى يكثر التأوه من ذنوبه، ومعاذ الله أن يقع الأنبياء فى الذنوب والمعاصى، فهم معصومون بفضل الله ورحمته، وهم الهداة الدالون على الله، حفظهم ربهم من كل خطأ وخطيئة، وحماهم من نزغات الشياطين، ولكنه الكمال الإنسانى الذى وصل إليه هذا الصنف الفريد من البشر، فلا تراهم إلا ضارعين لله، باكين فى محراب مولاهم، لا يكُفُّون عن الدعاء والاستغاثة بربهم، ولذلك رأينا إمام الأنبياء وخاتمهم نبينا «محمد» ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه، وحين تقول له أم المؤمنين «عائشة» - رضى الله عنها - لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

(١) الأعراف: ٧/١٤٣. (٢) البقرة: ٢/١٢٧، ١٢٨.
(٣) هود: ١١/٧٥.

فيقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[1]. وهو القائل: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[2]. والقائل: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة**»[3].

وفي القرآن: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)**﴾[4].

ومعنى أنهم خلفوا أنهم حين جاءوا معتذرين لرسول الله ﷺ، معترفين بخطيئتهم وتقصيرهم، وكّل رسول الله ﷺ أمرهم إلى الله، وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، وقد لبثوا خمسين ليلة لا يكلمهم أحد من المسلمين حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم.

وهؤلاء بخلاف المنافقين الذين جاءوا معتذرين لرسول الله كذبًا وليس لهم عذر، فأنزل الله فيهم: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)**﴾[5].

ولنتدبر معًا قول الله ـ تعالى ـ لرسوله المصطفى ﷺ: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)**﴾[6]. فقد أمره بأن يداوم

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه مسلم عن الأغر بن يسار المزني.

(٤) التوبة: ٩/١١٧، ١١٨.

(٥) التوبة: ٩/٩٥، ٩٦.

(٦) هود: ١١/١١٢.

على ما هو عليه من استقامة وتمسك بما أوحى إليه، كما أمر أصحابه بذلك أيضًا، ولكنه حين عبر عن أصحابه قال: «ومن تاب معك». وما أعظم هذا الوصف لأصحاب رسول الله ﷺ فى هذا المقام، فهم فى قمة التائبين العابدين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ.

ولنذكر أن الدعوة إلى الرجوع إلى الله والإنابة له منهج من مناهج دعوة الأنبياء لأممهم، فهذا «نوح» ـ عليه السلام ـ يقول لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾[1].

وهذا «هود» ـ عليه السلام ـ يقول لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾[2].

وبمثل ذلك قال «صالح» ـ عليه السلام ـ لثمود كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾[3].

وقال «شعيب» لأهل مدين: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾[4].

وهكذا كل الأنبياء والمرسلين جاءوا بهذه الدعوة المباركة، يحملون لمن استجاب لهم البشرى الطيبة بالأمان، والسلام، والعزة، والسعادة، والرفعة فى الدنيا والآخرة.

وقد جاء الإسلام وهو الدين الخاتم يدعو الإنسانية إلى ربها، ويرشدها إلى خالقها، وبيّن ما للتائبين من فضل، وما لهم من عزة وكرامة.

ومن البداية عذر الله الإنسان، وعرفه أنه غير معصوم من الخطأ، فمن

---

(١) نوح: ٧١/ ١٠-١٢.
(٢) هود: ١١/ ٥٢.
(٣) هود: ١١/ ٦١.
(٤) هود: ١١/ ٩٠.

شأن الإنسان أن ينسى، ولكن صدق اليقين يدعوه إلى أن ينهض من كبوته، وأن يقوم من عثرته، وألا يستمر فى خطئه مُصرًا على خطيئته، ولذلك وجدنا فى صفات المتقين أنهم «**إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم**» مع جملة الصفات العظيمة لأهل التقوى تقرؤها فى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

وقد أوضح لنا هذا رسول الله ﷺ حين قال: «**كل بنى آدم خطّاء وخير الخطّاءين التوابون**»[2]. وروى مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «**والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**».

من أجل ذلك دعا ربنا عباده للتوبة، وحثّهم عليها، فقال مناديًا المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[3]. وقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4].

ونادى عباده إلى الدّخول فى حماه، وأزال عنهم كل يأس وقنوط، وبيّن

---

(١) آل عمران: ٣/١٣٣ـ١٣٦.

(٢) أخرجه الترمذى عن أنس بن مالك حديث رقم ٢٥٠١ فى صفة القيامة، باب: المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه، وأخرجه ابن ماجة رقم ٤٥٢١ فى الزهد، باب: ذكر التوبة. والدارمى ٢/٣٠٣ فى الرقاق، باب: التوبة، وأحمد ٣/١٩٨، وإسناده حسن.

(٣) التحريم: ٦٦/٨. (٤) النور: ٢٤/٣١.

لهم أن كل الذنوب مهما عظمت فهى محل المغفرة إن تاب العبد لربه وأناب لخالقه. قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

وفى هذا يروى الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر عن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يقول: يا عبدى ما عبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان منك، يا عبدى إنك إن لقيتنى بتراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لقيتك بقرابها مغفرة»**.

وفى حديث مسلم عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»**.

وهذه رحمة الله بالتائبين نلمحها فيما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ حيث سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إن عبدًا أصاب ذنبًا، فقال: يارب إنى أذنبت ذنبًا فاغفره، فقال له ربه، علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ـ أى يعاقب عليه ـ فغفر له، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبًا آخر،وربما قال: ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: يارب إني أذنبت ذنبًا آخر، فاغفره لى، قال ربه: علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبًا آخر ـ وربما قال: ثم أذنب ذنبًا آخر ـ فقال: يارب إنى أذنبت ذنبًا فاغفره لى، فقال ربه: علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به فقال ربه: غفرت لعبدى فليعمل ما شاء»**.

(1) الزمر: ٣٩/ ٥٣ـ٥٥.

يقول الإمام الحافظ المنذرى فى توضيح قول رسول الله ﷺ : «فليعمل ما شاء» معناه ـ والله أعلم ـ: أنه ما دام كلما أذنب العبد ذنبًا استغفر وتاب منه ولم يعد إليه بدليل قوله: ثم أصاب ذنبًا آخر، فليفعل ـ إذا كان هذا دأبه ـ ما شاء، لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفاية لذنبه فلا يضره، لا أنه يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع، ثم يعاوده فإن هذه توبة الكذابين»[1].

«**والتائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[2]. هكذا يقول رسول الله ﷺ، و "المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه" هكذا يقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ. ومصداق ذلك من كتاب الله وذلك حيث يقول فى صفة عباد الرحمن: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾**﴾[3].

وحيث يقول عز من قائل: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾**﴾[4].

وقد جاء فى حديث البخارى ومسلم ما يفتح باب الرجاء للعصاة على مصراعيه، فقد رويا بسندهما عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن نبى

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى: ٤/ ٩١.

(٢) رواه ابن ماجه والطبرانى عن ابن مسعود، ورواه الطبرانى رواة الصحيح.

(٣) الفرقان: ٢٥/ ٦٨ـ٧٠.

(٤) النساء: ٤/ ١٧، ١٨.

الله ﷺ قال: **«كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب فأتاه فقال: أنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على رجل عالم فقال: أنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق، أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»**.

وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر، فجعل من أهلها»، وفي أخرى: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر»[1].

ولكم يفرح الله بتوبة عبده المؤمن. روى البخاري ومسلم والترمذي عن الحارث بن سويد ـ رحمه الله ـ قال: حدّثنا عبدالله بن مسعود حديثين أحدهما عن رسول الله ﷺ، والآخر عن نفسه، قال: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا ـ أي بيده ـ فذبَّه عنه، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة ـ أي في فلاة مفازة وصحراء شاسعة ـ معه راحلته عليها**

(١) أخرجه البخاري: ٦/ ٣٧٣ في الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل. ومسلم رقم ٢٧٦٦ في التوبة، باب: قبول توبة القاتل.

طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اشتد عليه الجوع والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»[1].

وفى رواية لمسلم عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كيف تقولون بفرح رجل انفلتت منه راحلته تجر زمامها ـ أى حبلها ـ بأرض قفر ليس بها طعام ولا شراب، وعليها له طعام وشراب فطلبها حتى شُقَّ عليه، ثم مرت بجذل شجرة ـ أى بأصل شجرة ـ فتعلق زمامها فوجدها معلقة به. قلنا: شديدًا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: أما والله، لَلَّهُ أشد فرحًا بتوبة عبده من الرجل براحلته»**[2].

وفى رواية أخرى لمسلم عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ: «الله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

إننا نتعامل مع رب كريم رحيم: **﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾**[3].

وفى حديث مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ

---

(١) البخارى: ١١/٨٨، ٨٩، ٩٠ فى الدعوات، باب: التوبة، ومسلم رقم ٢٧٤٤ فى التوبة، باب: فى الحض على التوبة. والترمذى رقم ٢٤٩٩، ٣٥٠٠ فى صفة القيامة، باب: المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه.

(٢) مسلم رقم ٢٧٤٦ فى التوبة، باب: الحض على التوبة.

(٣) الشورى: ٤٢/ ٢٥.

قال: «**قال الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى، والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرّب إلىَّ شبرًا تقرّبت منه ذراعًا، ومن تقرّب إلى ذراعًا تقرّبت منه باعًا، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول**»[1]. فباب التوبة مفتوح للتائبين لا يُغلق إلى يوم القيامة، كما جاء فى أحاديث رسول الله ﷺ، ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**». وما رواه الترمذى بسند صحيح عن صفوان بن عسال ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «**إن من قبل المغرب لبابًا مسيرة عرضه أربعون عامًا أو سبعون سنة فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه**».

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[3].

وقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾[4].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾[5].

وإذا كان باب التوبة مفتوحًا إلى يوم القيامة، وكان الأمد ممتدًا إلى آخر العمر، وكما قال ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ـ أى ما لم تبلغ**

---

(١) رواه مسلم واللفظ له، والبخارى بنحوه.

(٢) النساء: ٤/ ١١٠.

(٣) طه: ٢٠/ ٨٢.

(٤) القصص: ٢٨/ ٦٧.

(٥) الأنعام: ٦/ ٥٤.

روحه حلقومه ـ»[1]. إذا كان الأمر كذلك فلابد من المبادرة إلى التوبة قبل فوات الأوان، فعسى أن نكون من المفلحين، فعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحسن فيما بقى ـ أى من عمره ـ غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقى أخذ بما مضى وبقى**»[2].

وعن عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت حتى تخرج إلى الأرض**»[3].

وكما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾**﴾[4].

وفى الحديث عن أبى ذر ومعاذ بن جبل ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**»[5].

والتوبة واجبة على أصناف الخلق، إذ لا يخلو الإنسان من تقصير، وقد رأينا حال الأنبياء والصالحين، وكيف كانوا يجأرون لربهم مستغفرين تائبين، ولسنا بأعظم منهم، ولسنا واثقين من طول العمر وامتداد الأجل، فلتكن توبتك توبة نصوحًا، وهى التى لا رجوع بعدها إلى ذنب أبدًا مع الشعور بأن ما مضى من العمر كان وقتًا غاليًا ضاع فى المعاصى، فأنت عليه نادم ومنه مشفق، ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال: "لو لم يبك العاقل فيما

---

(١) رواه ابن ماجه، والترمذى وقال: حديث حسن.

(٢) رواه الطبرانى بإسناد حسن.

(٣) رواه أحمد والطبرانى بإسنادين، رواة أحدهما رواة الصحيح.

(٤) هود: ١١/ ١١٤.

(٥) رواه الترمذى، وقال: حديث حسن.

بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقًا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف بمن يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله".

يقول الإمام الغزالى: "وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه عليها أشد، وكل ساعة بل كل نَفَسٍ جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد، وتنقذك من شقاوة الأبد، وأى جواهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانًا مبينًا، وإن صرفتها فى المعصية هلكت هلاكًا فاحشًا[1].

إن الحديث عن التوبة والتائبين حديث عذب حلو المذاق، وقد اتضح أن التوبة تعنى استنارة القلب بنور الله، وإحساس الفؤاد بهيمنة الله، وإشراق الروح بالرضا فى كنف الله، وهذه هى خلاصة الإيمان وصدق اليقين، ومن كان هذا حاله، كان جديرًا بأن يحظى بمحبة الله؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ: **﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾**، ونحن كذلك نحب التوابين، ونحب المتطهرين، فهم أهل لهذه المحبة، بل ومحبتهم فيها الخير العظيم فى الدنيا والآخرة.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى: ٤/ ١١، ١٢.

الفصل الثالث:

والله يحب المطّهرين

والله يحب المطّهرين

ممن يحبهم ربنا: أهل الطهر وأهل النقاء، قال - تعالى - إخبارًا عن محبته لهؤلاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]. وقال فى سورة التوبة: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[2]. فما هو التطهر الذى كان سببًا فى محبة الله للمتصفين به؟

إن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تجعل التطهّر قسمين: تطهّر حسى، وتطهّر معنوى، فالتطهّر الحسى معناه طهارة الثوب والبدن، والمحافظة على آداب الإسلام وشعائره فى الغسل والوضوء، واختيار الماء الطهور، والبعد عن النجاسات والتحرز منها، وأن يكون المؤمن عنوانًا للنظافة وحسن السمة وطيب المظهر، يألفه من يراه ويستريح إليه من يخالطه، يشرح الصدر ويملأ القلب بهجة ومهابة وجمالا.

وهذا باب واسع من أبواب علوم الفقه والحديث الشريف، والأدب النبوى العظيم، وفى القرآن ترى أن الله يصف الماء الذى ينزل من السماء بأنه ماء طهور، فيقول: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[3]. فهو طاهر فى نفسه مطهر لغيره. قال - تعالى - فى ذكر نعمه التى امتنّ بها على المؤمنين فى يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[4].

وفى الآخرة تجد وصف الله لشراب أهل الجنة، وما فيه من لذة وأنت

(١) البقرة: ٢/ ٢٢٢.
(٢) التوبة: ٩/ ١٠٨.
(٣) الفرقان: ٢٥/ ٤٨.
(٤) الأنفال: ٨/ ١١.

تقرأ فى سورة الإنسان قول الله ـ تعالى ـ: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾[1]. طهر بواطنهم من الحقد والحسد والغل والأذى، وسائر الأخلاق الذميمة، لأنهم فى الجنة كما قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2].

وقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: "إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هناك عينين فكأنهما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما فى بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن»[3].

والمسلم لا تصح له صلاة إلا بطهارة تامة بالوضوء أو الغسل أو التيمم، وبأن يكون طاهر الثوب طاهر البدن، يقف على مكان طاهر.

وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾[4].

وفى حديث مسلم عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صدقة من غلول ـ والغلول: هو الأخذ من مال

(١) الإنسان: ٧٦/٢١.
(٢) الحجر: ١٥/٤٧.
(٣) تفسيرابن كثير: ٤/٤٥٧.
(٤) المائدة: ٥/٦.

الغنائم بدون وجه حق ـ ولا صلاة بغير طهور».

وقد أثنى الله على أهل قباء حين قال: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا واللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾، وهذا التطهر الذى استحقوا به محبة الله ـ عزوجل ـ هو أنهم كانوا فى الاستنجاء يتبعون الحجارة بالماء، زيادة فى التطهر من الغائط، كما ورد ذلك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ، وقال أبو العالية فى بيان المراد بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿واللَّهَ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾. إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب، وقال الأعمش: "التوبة من الذنب والتطهر من الشرك". وقد روى فى الحديث المروى من طرق فى السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم فى الطهور، فماذا تصنعون؟ فقالوا: نستنجى بالماء»[1].

وفى آية سورة البقرة التى ذكرناها من قبل بيان لما فى غشيان الحائض من أذى، وأنه لا يحل للرجل حتى تطهر المرأة من حيضها: ﴿فإذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

ومعنى قوله: ﴿فإذا تطهرن﴾: أى فإذا اغتسلن، فقبل الغسل لا يجوز له هذا الأمر من امرأته، كما رجح ذلك كثير من الأئمة، أما ما شرعه الإسلام من سنن وآداب فى الغسل، وتقليم الأظافر، وحلق العانة، ونتف الإبط، وإحفاء الشارب، وإعفاء اللحى، وتسريحها وتنظيفها، فهو من الكثرة بمكان، وما ورد من اختيار الثوب النظيف الجميل، واستعمال الطيب والسواك يدل على ما امتاز به هذا الدين من حرص على ما ينفع الإنسان فى أولاه وفى أخراه، وقد روى الإمام مسلم وغيره عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/ ٢٩٠.

والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم ـ وهى العقد التى فى ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ ـ ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء» قال مصعب بن شبيبة: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة.

قال وكيع: انتقاص الماء يعنى: الاستنجاء[(١)]. وروى الإمام مسلم وغيره عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: وُقِّت لنا ـ وفى رواية ـ وَقَّتَ لنا رسول الله ﷺ: فى قص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط، وحلق العانة أكثر من أربعين ليلة[(٢)]. وروى الترمذى عن سعيد بن المسيب مرسلا، وعن عامر بن سعد عن أبيه عن النبى ﷺ أنه قال: **«إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود»**[(٣)].

وهذا رسول الله ﷺ يرى رجلا ثائر الرأس، فقال: **«أما يجد هذا ما يسكن به شعره»**[(٤)]. وروى أبو داود بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من كان له شعر فيكرمه»**[(٥)]. وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس [أى احتقارهم وازدراؤهم]»**.

وقد جاء فى كتاب الله قول ربنا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ

---

(١) رواه مسلم فى الطهارة، باب: خصال الفطرة.
(٢) رواه مسلم فى الطهارة، فى باب: الفطرة.
(٣) رواه الترمذى بسند حسن.
(٤) أخرجه النسائى فى الزينة، فى باب: تسكين الشعور، وإسناده صحيح.
(٥) أخرجه أبو داود فى الترجل، باب: فى إصلاح الشعر، وهو حديث حسن.

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

وقد جاءت هذه الآيات الكريمات فى الردّ على المشركين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة، فقال ـ تعالى ـ ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. يقول الإمام ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ : "ولهذه الآية وما ورد فى معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض ـ أى الثوب الأبيض ـ"، كما قال الإمام أحمد: حدثنا على بن عاصم حدثنا عبدالله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير، وصححه عن ابن عباس ـ مرفوعًا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**البسوا من ثيابكم البياض، فإنها خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أكحالكم الإثمد، فإنه يجلو البصر وينبت الشعر**» هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم[2].

هذه هى صورة المسلم من الظاهر، وهى صورة جميلة محببة للقلب، جديرة بالحب، إنها صورة إنسان نظيف طاهر جميل المنظر، وهى من الأسباب التى يتقرب بها المؤمنون لربهم، ومن أجلها أحبهم فإنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، ولكن بقيت طهارة أخرى تكتمل به الشخصية الإيمانية ألا وهى طهارة الباطن، طهارة القلب والعقل والفؤاد.

(١) الأعراف: ٧/ ٣١ـ٣٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/ ٢١٠.

تزكية النفس وتطهيرها:

وطهارة الباطن باب واسع يدخل فيه البحث عن أدران النفس، وأمراض القلب وما يحجبه عن الله، وتدخل فيه وسائل العلاج والوقاية من هذه الأدران وتلك الأمراض، كما يتبعه أثر هذه الطهارة فى واقع الأفراد والمجتمعات، وما لذلك من عظيم الثواب فى الدنيا والآخرة.

وفى مقدمة هذه الأدران وتلك الأمراض: الشرك بالله والكفر به، فهذه أكبر آفة تصيب الكيان الإنسانى، فتصرفه عن الجادة، وتلقى به فى مهاوى الهلاك والضياع. قال ـ تعالى ـ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾[1].

وقد وصف الله المشركين بالنجاسة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[2]. وهى نجاسة معنوية لا نجاسة حسية كما يقول جمهور الأئمة، فإن الله أحلّ لنا ذبائح أهل الكتاب، إنها نجاسة الإحساس والمشاعر والمدارك والتصورات، إنها العفن والخبث الذى يسيطر على كل تصرفات المشركين ويوجه حياتهم، ولابد أن تطهر هذه النجاسة بماء التوحيد، وبالانغماس فى نهر الإخلاص، فبذلك يبدو الإنسان فى إيمانه بهىّ المنظر، مشرق السريرة، زكى الرائحة، يفوح عطر مشاعره وشذى إخلاصه أينما حل وحيثما سار.

وبالتوحيد ينطلق الإنسان المؤمن إلى غاياته التى خُلق من أجلها، ولكن الشيطان له بالمرصاد، وإن كان الشيطان قد عجز عن جره إلى حظيرة الكفر

---

(١) الحج: ٢٢/ ٣٠، ٣١.
(٢) التوبة: ٩/ ٢٨.

بالله والإشراك به، فإنه قد يصل إلى بعض ما يريد من أغواء المؤمن، وصرفه عن كثير من دواعى الخير، وإيقاعه فى ذل المعاصى والآثام.

وهنا تبقى الحياة صراعًا بين الخير والشر، بين دواعى الخير ودواعى الشر، بين النور والظلام، بين التحليق إلى أعلى مع أشواق الروح والإخلاد إلى الأرض مع هواتف الأرض والتراب، وهنا كذلك تبدو الفوارق بين معدن ومعدن، بين أصالة الإيمان وزيفه، بين أصحاب العزائم الصادقة والهمم العالية، وغيرهم من أصحاب العزائم الخائرة، والهمم الفاترة، والمطالب الدنيا، هؤلاء الذين لا يثبتون أمام إغراء، ولا ينهضون لدعوة خير، إنما كل همهم مطعم ومركب وملبس وشهوة عارضة، وفى سبيل ذلك سرعان ما ينسون أنهم أتباع دين عظيم، ونبى عظيم، وكتاب عظيم، وإذن فلابد من التطهّر والتسامى والترفع عن الدنايا، بإخلاص النية لله فى كل عمل وقول، وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه فى همة ونشاط، والوقوف عند ما أحلّ وما حرَّم فى صدق وثبات، فهذا هو سبيل الفلاح فى الدنيا والآخرة. قال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾[(1)]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾[(2)]، وقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾[(3)].

ومادامت هذه التزكية هى وسيلة الفلاح والنجاة، فقد كانت من مناهج دعوات الأنبياء لأممهم، وكانت منة الله على الخلق إذ أخذ بأيديهم من الظلام إلى النور، ومن الرذيلة إلى الفضيلة، ومن الضعة إلى الرفعة، تجد هذا فى دعوة «موسى» لفرعون وهو يقول: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ

(١) الشمس: ٩١/٩، ١٠.
(٢) الأعلى: ٨٧/١٤، ١٥
(٣) فاطر: ٣٥/١٨.

رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[1]، وتلمح ذلك وأنت تقرأ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[2].

وتراه وأنت تقرأ قوله سبحانه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾[3].

نعم، لقد زكّى الأنبياء أممهم وطهّروهم من أقذار الشرك وأوضار الجهل، وحمأة الرذيلة، ورفعوهم إلى مراتب السموّ والكمال الإنسانى، فسعد الناس فى الدنيا، وفازوا برضوان الله فى الآخرة. وهؤلاء هم السحرة الذين آمنوا بموسى وصدّقوا رسالته، يقفون هذا الموقف الصارم من تهديد فرعون قائلين ما ذكره الله عنهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾[4].

فقد تعلّم هؤلاء أن الإيمان والعمل الصالح يؤديان إلى الدرجات العلا، ويوصلان إلى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء من تزكى وتطهّر من الكفر والفسوق والعصيان ومخالفة المرسلين. وقد جمع الله بين التزكية والطهارة، وهو يبين لنا تشريعه الخالد وهديه العظيم، فى كتابه العظيم، فنقرأ بعد أن ذكر لنا جملة من أحكام الأسرة وتشريع الطلاق

(١) النازعات: ٧٩/١٨، ١٩. (٢) آل عمران: ٣/ ١٦٤.
(٣) البقرة: ٢/ ١٥١. (٤) طه: ٢٠/ ٧٢-٧٦.

قوله سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وقال في بيان أثر الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[2].

فالزكاة والصدقات تطهير للنفس من الشح، وللمجتمع من التحاسد والتباغض، وتزكية للقلب حين يرتفع إلى هذه الدرجة من الأخوة والتكافل، وتزكية للأمة حين يسودها الحب والرضا والأمان.

والتزام شرع الله وهديه يحتاج إلى مجاهدة للنفس حتى يسلس قيادها، فقد قال رسول الله ﷺ: **«حفت النار بالشهوات، وحفّت الجنة بالمكاره»**[3]. فلابد أن يتحمل من يريد الجنة المشقات والمتاعب، حتى يصل إلى البغية ويحظى بهذا الفضل، ولننظر إلى توجيه النبى الكريم لأصحابه ليصلوا إلى هذه الغاية النبيلة، فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم عن أبى فراس: ربيعة بن كعب الأسلمى، خادم رسول الله ﷺ، وهو من أهل الصفة حيث قال: **«كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه - أى بالماء الذى يتوضأ به - وحاجته فقال: سلنى، فقلت: أسألك مرافقتك فى الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعنِّى على نفسك بكثرة السجود»**.

وكم فى هذا الحديث من دروس وعِبر، وكم فى هذه النصيحة النبوية من حكم وعظات!!

وفى هذا المعنى يروى الإمام مسلم عن أبى عبدالرحمن، ثوبان مولى رسول الله ﷺ، - رضى الله عنه - قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«عليك بكثرة السجود، فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة وحط عنك بها خطيئة»**.

---

(١) البقرة: ٢/ ٢٣٢. (٢) التوبة: ٩/ ١٠٣.

(٣) متفق عليه، وعند البخارى: حجبت بدل حفت وهما بمعنى واحد.

إنه السجود في محراب الله، كثرة العبادة لله، الإكثار من النوافل، والإكثار من الذكر حتى يصفو القلب، وترق المشاعر، ويشرق نور الإيمان فى الوجدان، كما جاء فـى حديث البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ـ تعالى ـ قال: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحبُّ إلىَّ مما افترضته عليه، ومايزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه**»[1].

إنها العبودية الدائمة لله، فاض منها الخير العميم، وإنها طهارة الظاهر وطهارة الباطن، إذن كانتا سبب محبة الله للمتطهّرين، ومن هنا فنحن نحب التوابين ونحب المتطهرين لأن الله يحبهم. فعسى الله أن يجمعنا بهم فى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الرقاق، باب: التواضع: ١١/ ٣٤٠، ٣٤١.

[illegible]

الفهرس

الصفحة	الموضـــــــــوع
٥	تقديم
٧	مقدمة الطبعة الثانية
٩	مقدمة الطبعة الأولى
١١	الباب الأول: الأخوة وحقوقها
١٣	الفصل الأول: الإخـــاء
١٥	١ـ الأخوّة الإنسانية
١٩	٢ـ أخوّة النسب
٣١	٣ـ أخوّة الإيمان
٣٦	حقوق أخوة الإيمان
٤٧	٤ـ الأخوة فى الله
٥٤	من تختار لصحبتك
٥٩	الفصل الثانى: حقوق الأخوة فى الله
٦١	الإعانة بالمال
٦٣	الإعانة بالنفس
٦٤	الحقوق الأدبية
٦٧	حقه فى التعليم
٦٧	والعفو من شيم المتقين
٧٠	الدعاء له بظهر الغيب

الموضوع	الصفحة
الباب الثانى: الحب فى الله ومن نحبهم فى الله	٧٣
مدخل: فى الحب فى الله والبغض فى الله	٧٥
الفصل الأول: إن الله يحب المتقين:	٨١
١ـ التقوى: منزلتها فى الكتاب والسنة	٨٢
٢ـ جزاء المتقين	٩٧
٣ـ المتقون هم الفائزون	١١٥
٤ـ إن المتقين فى مقام أمين	١٢٠
٥ـ المتقون.. من هم؟	١٢٥
الفصل الثانى: إن الله يحب التوابين	١٣٧
الفصل الثالث: والله يحب المطهرين	١٥١
الفهرس	١٦٣

وقعت بعض الأخطاء سهواً، وهذا بيان بتصحيحها، فنرجو أن تصحح هذه الأخطاء قبل قراءة الكتاب

ص	س	الكلمة	تصحيحها	ص	س	الكلمة	تصحيحها
٧	١٩	طلبهم	طلبتهم	٣٦	٩	وإن صام وصلى	تحذف هذه
٨	٨	الاثنين ١٧	الاثنين ١٧			وزعم أنه مسلم	العبارة
		شعبان	من شعبان	٤٠	١٣	وزكاة، وقد	وزكاة، وتأتي
٩	٨	الخاصر	الخائر				وقد..
٩	١٣	ازدرادا	ازدرادها	٤٦	١٦	تعفوا	تعفو
٩	١٤	واحْسا	واحساساً	٤٨	٣	والشر	والشرّير
١٠	٥	المقوة	القوة	٥٢	١٢	قُطعت	قَطعتْ
١٠	١٢	أن	آن	٥٥	٢٠	ابتدأك	ابتداك
١٠	٢١	٢٥ ذو	٢٥ من ذي	٦١	١١	نزلوهم	أنزلوهم
		القعدة	القعدة	٦٤	٥	فما لك	فما بالك
١٨	٧	فأنا	فإنا	٦٤	٨	مساوءه	مساوئه
٢١	٢١	سقط السطر	بالإساءة ولكن	٦٤	٩	أفشاء	إفشاء
		الأخير	أخوة النسب	٦٤	١٣	يسال	يسأله
			وحق القرابة	٦٥	١٢	لأنه	لأنك
			يسعان المسلم	٧٥	١٨	إخوةً	أُخُوَّة
			الحق من..	٧٧	٥	الأغمال	الأعمال
				٨٤	٣	في	وفي
٢٤	٢/هـ	ابن ماجة	ابن ماجه	٩٠	٣	أشدك خشية	أشدكم له خشية
				٩١	٢	وخاف	خاف
٣٥	الأخير	أخوةً	إخوةَ	٩٣	١٦	فرح	فرجع

ص	س	الكلمة	تصحيحها	ص	س	الكلمة	تصحيحها
٩٣	١٨	أنه	إنه	١١٥	٢/هـ	(١) الزمر	(٢) الزمر
٩٤		هامش (٦)	(٧)	١١٧	١٨	وذلك	وذلكم
		هامش (٧)	(٦)	١١٧	١٩	مسلم،	مسلم]
١٠٠	٢	وذلك	ولذلك	١١٧	٢١	يومئذ اللهم	يومئذٍ: اللهم
١٠٣	٣	وأنهم	وإنهم	١١٧	٢٤	أي يهلك	[أي يهلك]
١٠٣	٢٠	لحفظة	لحظة	١١٨	١	ـ والمتخردل	[والمخردل
١٠٤	١٠	من السقاء	من في السقاء	١١٨	٢	ثم يخرج ـ	ثم يخرج]
١٠٥	٢	رووحها	روحها	١٢٠	٣	عتبة ابن	عتبة بن
١٠٥	٢/هـ	ماجة	ماجه	١٢٠	١٨	هذا ولك عشر	هذا لك وعشرة
١٠٥	١٥	وأن	وإن	١٢٤	٢/هـ	ومن الزمر	ومن سورة الزمر
١٠٥	١٦	فيقولن	فيقولون	١٣١	٣	يقينا	يقينا
١٠٦	٥	انطلوا	انطلقوا	١٣٩	١٩	تتاح	تتح
١٠٦	الأخير	ما تنقلنا	ما انتقلنا	١٤٠	١٧	محمد	محمداً
١٠٧	١١	أخالك	إخالك	١٤١	٣	واستغفرو له	واستغفروه
١٠٨	٣/هـ	تثبيت	يثبت	١٤١	١١	إلى ثمود	وإلى ثمود
١٠٨	٥/هـ	ومن إبراهيم	ومن سورة إبراهيم	١٤١	٢٠	وبين	وبين
١١١	٢	ما شاء	من شاء	١٤٤	٢/هـ	ورواة	ورواته
١١٣	١٤	قادر	قادراً	١٤٤	٢/هـ	فقال: أنه	فقال: إنه
١١٤	٩	وأبي يعلى	وأبو يعلى	١٤٥	٢	والله الله	والله لله
١١٥	٢	أدخل أمتك	أدخل من أمتك	١٤٧	١	أغواء	إغواء

الأستاذ الدكتور

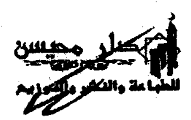
عبد الفتاح عاشور

المسلم في عالم اليوم

بحوث في الأخوة والموالاة وبناء المجتمع المسلم

الجزء الأول

القسم الثاني



ط ـ الأولى: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م
ط ـ الثانيـة: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م
ط ـ الثـالثة: ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

الطبعة الثالثة

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار محيسن
للطباعة والنشر والتوزيع

٤٢ طريق النصر (الأوتوستراد)
وحدة رقم ١ عمارات امتداد رمسيس ٢
مدينة نصر - القاهرة - ت: ٢٦٣١٤١٢ (٢٠٢)
ص.ب. ٨١٧٧ - مدينة نصر - الرقم البريدى: ١١٣٧١
المطابع: مدينة العبور - المجمع الصناعى - وحدة ٣٠٥
E-mail: dar_meheisen@hotmail.Com

رقم الإيداع: ٥٨٥٠ / ٢٠٠٣

تقديم

الحمـد لله الذى أعزَّنا بالإسلام، وشرَّفنـا بالقرآن، وهدانا للحق وإلى طريقه المسـتقيم، والصلاة والسلام على نبـينا ورسولنا وحبيبنا: مـحمد بن عبدالله، الذى جعله الله سبيلا لنجاتنا، وسببًا لسعادتنا، فجزاه الله عنا وعن بنى الإنسان خيـر الجزاء، ورضى الله عن صحابته أجمـعين، وعمن سلك سبيلهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين، وبعد:

فبـين يديك ـ أخى الكريم ـ القـسم الثانى من الـجزء الأول من كـتاب **المسلم فى عالم اليوم**، فى طبعته الثالثة، تأتى صفحاته وموضوعاته تابعة للقـسم الأول، فلعلـك ترغب فى ضَمِّ القـسـمـين فى مـجلد واحـد فـتكون الصفحات والمـوضوعات متتالية، إذ قـد مضى فى «القسم الأول الباب الأول» حديث عن الأخـوة وحقوقها، ومـا للأخوة فى الله من أهمية خـاصة؛ ولذلك أفردت الحديث عن حقوقها فى فـصل خاصٍّ، ثم كان الحديث فى الباب الثانى عن الحب فى الله، ومن نحبـهم فى الله، وبدأنا هذا بمدخل فى الحب فى الله والبغض فى الله، ومنزلة هذا فى ديـن الله؛ ليعرف المسلم فى عـالم اليوم من هم أهلٌ لمحبـته فيحبهم ويواليهم ويـنصرهم، ومن هم أهلٌ لبغضه فيـبغضهم ويعـرف حدود مـعاملتـه لهم، وعلى هذا عـرضت لك جملة مـمن يجب أن تمنحهم قلبك ووجدانك ومودتك ومحـبتك، حيث تحدثت لك فى هذا القسم عن محبة الله للمتقين، ومحبته للتوابين، ومحبته للمطهرين، واكتفيت بهذا فى القسم الأول؛ لأنتقل بك إلى القسم الثانى وأكمل لك ما بدأته فى القسم الأول، حيث أتناول فى فـصول متـتالية تبدأ بالـفصل الرابع، وتنتهى بالفـصـل التاسع جملة من أهل الإيمـان اتَّصفوا بصفـات خاصة، فكانوا أهلا لمحـبة الله لهم، وهم لذلك مـمن وجـبت علينا مـحبـتهم، وهم ـ كـمـا ترى ـ الصـابرون،

والشاكـرون، والمقسطون، والمتـوكلون، والمقاتلون فى سـبيل الله، ومن يحبهم ربهم ويحبونه، وبذلك تتضح للإنسان المسلم المعالم فيقتدى بهؤلاء الكرام من أهل الإيمان، ويتخلّق بأخلاقهم ليـفوز كما فازوا، ويحظى مثلهم بمحبـة الله فيحظى فى الدنيا بالعزة والسـيادة والتمكين فى أرض الله، وفى الآخرة بالنعيم المـقيم فى جنات النعيم، ومع هذا الاقتـداء بالصالحين تعلق بهم وحبٌ لهم ونصرة وموالاة، وبهذا الحب المتبادل يبدو مجتمع الإسلام كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسـد بالسهر والحمى، وسوف تتـضح لنا الصورة، بعد أن نعرف من لا يحـبهم ربنا، وبالتالى فنحن لا نحـبهم، وبعد أن نتـعرف على الركائز التى يشاد عليها المجـتمع المسلم، وهذا ما سأتناوله ـ بإذن الله ـ فى الجزء الثانى.

أسأل الله أن يتقبل هذا العمل بقـبول حسن، وأن يحقق به ما رجوته من خير وعزة وسيادة وكرامة لأمـة الإسلام، وما ذلك على الله ببعيد، والحمد لله الذى هدانا لهـذا وما كنا لنهـتدى لـولا أن هدانا الله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

أ.د/ عبدالفتاح عاشور

١٧ من شهر رمضان المبارك ١٤٢٤هـ

١١/ ١١/ ٢٠٠٣م

القسم الثانى

من الباب الثانى

١ـ الفصل الرابع: والله يحب الصابرين.

٢ـ الفصل الخامس: محبة الله للشاكرين.

٣ـ الفصل السادس: إن الله يحب المقسطين.

٤ـ الفصل السابع: إن الله يحب المتوكلين.

٥ـ الفصل الثامن: إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا.

٦ـ الفصل التاسع: فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه.

الفصل الرابع

والله يحب الصابرين

١ـ الصبر على الطاعات:

أ ـ الصلاة.

ب ـ الزكاة.

جـ ـ الصوم.

د ـ الحج.

هـ ـ الجهاد فى سبيل الله.

٢ـ الصبر على الإيذاء.

٣ـ الصبر فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٤ـ الصبر عن المعاصى.

٥ـ الصبر على البلاء.

٦ـ دوافع الصبر.

ذُكرت كلمة الصبر ـ أو قل مادة الصبر ـ فى القرآن أكثر من مائة مرة، وبالنظر فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، يتضح لنا أن الصبر شىء عظيم، وخلق إسلامى نبيل، وهو عدة الإنسان المؤمن فى دنياه وأخراه، وأصحابه أهل لمحبة الله، وموضع لرعاية الله، ومستحقون للبشارة بالأجر العظيم والثواب الجزيل، وهم بذلك أهل لمحبة المؤمنين، وجديرون بأن تتعلق بهم القلوب، وتهفو إليهم الأفئدة، ونبحث عنهم فى كل مكان حتى نحظى بمحبتهم، ورفقتهم، فنتعلم منهم ومعهم معانى الإيمان، وقدرة الإنسان على الانتصار، وتساميه على النقائص، وتحقيقه لحقيقة الإنسان المُسْتَخْلَف فى هذه الأرض.

والصبر أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معاصى الله، وصبر على السراء، وصبر فى الضراء، وباستكمال هذه الأنواع يكون العبد قد تحقق بالصبر، ويجدر به أن يُعد من الصابرين.

١ـ الصبر على الطاعات:

(أ) الصلاة:

الصبر على طاعة الله يعنى أن يتحمل المسلم التعب والمشقة والمكاره، وأن يضحى براحته البدنية فى سبيل راحته النفسية وسعادته الأبدية، فأنت فى الصلاة ـ مثلا ـ تتحمل الحر والقر وتترك لذيذ النوم، وأنس الصحبة، وتقوم مسرعًا إلى المسجد، لتروِّح عن القلب، ولتناجى ربك فى خشوع وضراعة، ولعل هذا هو بعض ما يشير إليه وصف الله لأولى الألباب بالصبر قبل إقامة الصلاة فى قوله ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾(١).

وهذا ما نراه أيضًا فى توجيه القرآن لبنى إسرائيل، حيث علَّمهم كيف يتصرون على الضعف الذى يدعوهم إلى التناقض فى هذه الحياة، فيجعلهم يقولون ما لا يفعلون.

يقول سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾(٢).

فأنت تلمح معى أنه بعد أن عاتبهم على هذا التناقض بين القول والعمل، مع ما أوتوا من علم الكتاب الأول وهو التوراة، دلّهم على طريق العلاج ووصف لهم الدواء، فقال: واستعينوا بالصبر والصلاة، فقدّم الصبر على الصلاة، لأن الصبر هو الأصل، هو الأساس، هو الذى يدعو النفس إلى التزام أمر الله.

ومثل هذا التوجيه القرآنى نجده فى نداء الله لأمة الإسلام، إذ بعد أن أمر بذكره وشكره قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾(٣). ومن جمع بين الصبر والشكر، فقد جمع الخير كله.

ولنتأمل قول الله لنبيه الكريم ﷺ إذ قال: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾(٤).

فأنت ترى أنه بعد أن نهى نبيه ﷺ عن التطلع إلى الدنيا وما فيها من

---

(١) الرعد: ١٢/١٩-٢٢. (٢) البقرة: ٢/٤٤-٤٦.
(٣) البقرة: ٢/١٥٣. (٤) طه: ٢٠/١٣١، ١٣٢.

متاع زائل سرعان ما يذبل كالزهرة تقطعها من غصنها فتستمتع بها لحظات، ولكن سرعان ما تذبل وتتساقط أوراقها، ويجف ريحانها، فتلقى بها هنا أو هناك، أمره بأن لا يغفل عن أهل بيته، فعليه أن يأمرهم بالصلاة، وعليه أن يتحمل كل تعب فى ذلك، فإن إقامة الصلاة والمحافظة عليها، وإلزام أهل البيت بها مما يحتاج إلى صبر، وفى هذا إرشاد لكل صاحب بيت إلى طريق التربية الصحيحة، التى يجنى ثمارها رجالا أتقياء، ونساء صالحات قانتات، وسعادة وعزة له ولأمته، فعلى كل أب أن لا ييأس من إصلاح أبنائه وأهل بيته، وأن يحاول المرة تلو المرة، وأن يصبر على ما يلقى من مشقة وعناء، حتى يسلس له القياد وتصبح الصلاة لهم عادة وسجية يؤدونها عن رضا ومحبة وشوق، فذلك طريق النجاة من النار. قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[1].

وكم فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿لا نسألك رزقًا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ بعد هذا التوجيه القرآنى من دروس وعبر وعظات، فأنت مكلف بالعبادة والطاعة لله، أما الرزق فليس عليك إلا أن تأخذ بالأسباب، وأن تبذل قصارى الجهد فى طلبه انتظاراً للفرج من الله، ولكنك لا تكلف به، فإن مردَّ ذلك لله رب العالمين الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[2].

ولهذا أعدَّ الله عظيم الأجر لمن حافظ على الصلاة، وصبر على ما

---

(١) التحريم: ٦/٦٦.

(٢) الذاريات: ٥١/٥٦ـ٥٨.

يصيبه من تعب ومشقة فى سبيل أدائها. روى مسلم بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط**». وروى أبو داود والترمذى عن بريدة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «**بشّر المشّائين فى الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**». وفى الحديث المتفق عليه عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أعظم الناس أجراً فى الصلاة أبعدهم إليها ممشى فأبعدهم، والذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذى يصليها ثم ينام**».

وقد استجاب السلف الصالح لهذا الهدى النبوى الكريم، فكانوا أحرص الناس على زيادة الأجر.

والجزاءُ على قدر المشقة، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن أُبىٍّ بن كعب - رضى الله عنه - قال: كان رجل من الأنصار لا أعلم أحداً أبعد من المسجد منه، وكانت لا تخطئه صلاة - أى لا تفوته - مع رسول الله ﷺ فى المسجد، فقيل له: لو اشتريت حماراً لتركبه فى الظلماء وفى الرمضاء - أى فى شدة الحر - قال: ما يسرنى أن منزلى إلى جنب المسجد، إنى أريد أن يكتب ممشاى إلى المسجد ورجوعى إذا رجعت إلى أهلى، فقال له رسول الله ﷺ: «**قد جمع الله لك ذلك كله**».

وروى مسلم عن جابر بن عبدالله - رضى الله عنه - ما كان من أمر بنى سلمة، قال: "خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال لهم: «**بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا**

قرب المسجد؟ قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال: يا بنى سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم» .

ومعناه: الزموا دياركم فإنكم إن لزمتموها، وبقيتم فيها وأتيتم للمسجد كتبت آثاركم وخطاكم الكثيرة إليه، فقد ورد فى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال: **«من تطهر فى بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله ـ أى ليؤديها فى جماعة ـ كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة»** .

وروى الإمام مسلم عن ابن مسعود قال: "من سره أن يلقى الله ـ تعالى ـ غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يتهادى بين الرجلين ـ أى يتمايل لما فيه من المرض ـ حتى يقام فى الصف، وفى رواية له قال: إن رسول الله ﷺ علَّمنا سنن الهدى ـ أى طرائق الهدى ـ وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذَّن فيه" .

(ب) الزكاة:

وإذا كانت الصلاة فى حاجة إلى الصبر كما رأينا، فهناك الركن الثالث من أركان الإسلام بعد الشهادتين والصلاة، ذلكم هوالزكاة، والزكاة: إخراج للمال المعلوم من مال معلوم بلغ النصاب، والمال شقيق النفس والروح، وهو لكثير من الناس فتنة، ويأتى فى المنزلة قبل فلذات الأكباد، إذ

يقول ـ تعالى ـ : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1]. ويقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[2].

ولهذا كان إخراج المال صعبًا على ضعاف الإيمان، وكان لابد من مقاومة النفس الأمّارة بالسوء، وردها إلى الحق الذى شرعه الله، فهذا المال الذى بين يديك وديعة استخلفك الله فيها، لم يأت إليك لأنك ذكى أو وسيم أو حسيب أو نسيب أو قوى البنية مفتول العضلات، إنما هو محض الفضل من الله. قال ـ تعالى ـ: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾[3].

والآية دعوة للإنفاق العام، الذى يشمل الزكاة والصدقات المفروضة وغير المفروضة، وفى إخراج المال تزكية للنفس كما ترى، وتطهير لها من الشحّ والبخل؛ ولذلك سُمِّى إخراج المال على هذا النحو بالزكاة. يقول ربنا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[4].

وكم أهلك الشُّحُّ أقوامًا، وأردى آخرين، وفى الحديث عن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[5].

ولذلك كان لابد للإنسان المؤمن من مقاومة هواه، ودفع ما أوجب الله عليه فى هذا المال لمستحقيه قبل أن يأتى يوم يندم فيه على ما فرّط فى أمر الله ولات ساعة مندم.

---

(1) الكهف: ١٨/٤٦. (2) التغابن: ٦٤/١٥.
(3) الحديد: ٥٧/٧. (4) التوبة: ٩/١٠٣.
(5) رواه مسلم.

ولنستمع إلى هذا الحديث النبوى الشريف الذى يحمل الترهيب والوعيد الشديد لكل من خانته نفسه، ودعته إلى منع حق الله فى ماله، فلم يصبر على أداء هذه الشعيرة العظيمة، وهذا الركن من أركان الإسلام.

يروى البخارى ومسلم ـ واللفظ له ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها ـ أى زكاتها ـ إلا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ـ أى بأرض مستوية ـ أوفر ما كانت لا يفقد منه فصيلا واحداً ـ والفصيل ولد الناقة إذا فصل عن أمه ـ تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مرّ عليه أولاها ردّ عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئًا ليس فيها عقصاء ـ أى ملتوية القرنين ـ ولا جلحاء ـ أى التى لا قرن لها ـ ولا عضباء ـ والعضباء: مكسورة القرن ـ تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مرّ عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل يا رسول الله فالخيل؟ قال: الخيل ثلاثة: هى لرجل وزر، وهى لرجل ستر، وهى لرجل أجر، فأما التى هى له وزر فرجل ربطها رياء وفخراً ونواء ـ أى معاداة ـ على أهل الإسلام فهى له وزر، وأما التى هى له ستر فرجل ربطها فى سبيل الله ثم لم ينس حق الله فى

ظهورها ولا رقابها فهي له ستر، وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج - أي أرض ذات نبات ومرعى - أو روضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طولها - أي حبلها - فاستنت شرفًا أو شرفين - أي قطعت شوطًا أو شوطين تجديداً لنشاطها - إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت منه، ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات، قيل: يا رسول الله، فالحمر؟ قال: ما أنزل عليَّ في الحمر شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾»[1].

أرأيتم ما في عدم الصبر على لذة المال من بلاء، وكيف قاد ذلك إلى منع حق الله، فكان أن عذّب الله صاحب هذا المال بهذا المال جزاء وفاقًا، والجزاء من جنس العمل.

وفي القرآن قول الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾[2].

والمال المكنوز هو الذي لم تؤدَّ زكاته.

وفي حديث مسلم عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ: «ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه - أي لا يؤدي فيه زكاته - إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع - والشجاع الأقرع هو: الحية الذكر الذي تمعط شعره

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، جـ٧ ص٦٤-٦٧.
(٢) التوبة: ٩/ ٣٤، ٣٥.

لكثرة سمه ـ يتبعه فاتحا فـاه فإذا أتاه فر منه فيناديه: خذ كنزك الذى خبأته فأنا عنه غنى، فإذا رأى أنه لا بد منه سلك يده فى فيه فيقضمها قضم الفحل»[1].

فنعوذ بالله من ذلك، ونسأله العفو والعافية، والنجاة من عذاب النار.

ولكم نحن فى حاجـة إلى أن نفقه هذه المـعانى، وأن نتذاكـر مثل هذا الحديث، حـتى نستيقـظ من سبات الغفلة، ونؤدى مـا أوجب الله علينا من حقـوق، ولنعلم أن ما عند الله خيـر وأبقى، وأنه ما نقص مال من صـدقة، وأن يد الله سحًـاء سخية لا ينقص مـا عندها، وأنه كما جـاء فى الحديث: **«..يا عبـادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قامـوا فى صعيـد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألتـه ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر..»**[2].

وفى حديـث مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسـول الله ﷺ قال: **«يمين الله مـلأى لا يغيـضها ـ أى لا ينقـصها ـ شىء، سـحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السـماء والأرض، فإنه لم يغض ما فى يمينه»**.

وتصـويراً لهذه المـجاهدة لعـوامل النفس ودوافعـها، يروى لنـا الإمام البخـارى ومسلم ـ رضى الـله عنهمـا ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسـول الله ﷺ يقول: **«مثل البـخيل والمنفق كـمثل رجلين عليهـما جبتان من حديد من ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع»**.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ٧ ص٧٠، ٧١.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ١٦ ص١٣٢، ١٣٣.

فعلى المؤمن البصير أن يقــاوم، وأن يثبت لإغراء المال، حتى يفوز مع الفائزين.

(جـ) الصــوم:

إذا كنا قد عرفنا ما فى الصلاة، ثم مـا فى الزكاة من عظيم الخير، وحاجة كل منهما إلى الصبر على أدائهما، فهيا لننتقل خطوة على هذا الطريق، فمــاذا نرى؟ نرى أننا أمام الركن الرابع من أركـان الإسلام، ألا وهو الصوم، وعند هذا الركن العظيم نتـوقف قليلا، لننظر إلى ما فيه من ألوان التربيـة الفردية والاجتماعية، ولنعرف مـدى حاجته إلى الصـبر، وكيف يـعدُّ الصوم الـصابرين، أمـا ما فيـه من تربية فـردية واجتماعـية فإن القرآن الكريم يلخصها فى كلمـة واحدة هى التقوى، حيث يقول فى بيان بعض حكم تشـريعه لهذه الفريضة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾[1].

يقول الشيخ شـلتوت ـ رحمه الله ـ: "وليست التـقوى هو ذلكم اللون الشـاحب، أو الصوت الخـافت، أو الرقبـة المنحنيـة، ولا هى الهمـهمـة بكلمات تعـرف التسبيح والتـهليل، ولا الهذرمة بآيات تقـرأ أو تتلى، وإنما التقوى ذات عنصـر سلبى يمنع من فعل الشر للنفس وللغير، ولهـذه التقوى التى لا يعرف القرآن سواها فرض الله الصوم وجعله مدداً للإيمان، وبها كان الصوم عنصراً قويًا من عناصر تكوين المجتمع فى نظر الإسلام ومنهجه"[2].

إنها التـقوى التى تحـول بين العبد والآثام، وتقف سـداً منيعًـا فى وجه الشهوات الجامحة، والرغبـات الضالة، ووساوس النفس والشيطان، وشهر

---

(١) البقرة: ٢/١٨٣، ١٨٤.

(٢) منهج القرآن فى بناء المجتمع، للشيخ محمود شلتوت، ص١٣٢.

الصوم هو المدرسة التى يتخرج فيها المتقون، ليكونوا قوة تحمى الحق، وتزود عن الضعيف، وتنفذ أمر الله.

يقول الشيخ محمد عبده: "الصوم يُعدُّ نفوس الصائمين لتقوى الله ـ تعالى ـ، ويظهر ذلك من وجوه كثيرة، أعظمها شأنًا، وأنصعها برهانًا، وأعظمها أثرًا، وأعلاها خطرًا أنه أمر موكول إلى نفس الصائم، لا رقيب عليه فيه إلا الله ـ تعالى ـ، وسر بين العبد وربه، لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذاته التى تعرض له فى عامة الأوقات لمجرد الامتثال لأمر ربه، والخضوع لإرشاد دينه مدة شهر كامل فى السنة ملاحظًا عند عروض كل رغيبة له من أكل نفيس، وشراب عذب، وفاكهة يانعة، وغير ذلك، أنه لولا اطلاع الله تعالى عليه ومراقبته له، لما صبر عن تناولها وهو فى أشد التوق لها، لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراه حيث نهاه، وفى هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله ـ تعالى ـ والاستغراق فى تعظيمه وتقديسه أكبر معد للنفوس ومؤهل لها لسعادة الدنيا أيضًا، انظر هل يقوم من تلابس هذه المراقبة قلبه على غش الناس ومخادعتهم؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكلا لأموالهم بالباطل؟ هل يحتال على الله ـ تعالى فى منع الزكاة؟ وهدم هذا الركن الركين من أركان دينه، هل يحتال على أكل الربا؟ كلا، إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل فى المعاصى إذ لا يطول أمد غفلته عن الله ـ تعالى ـ وإذا نسى وألمَّ بشىء منها يكون سريع الفىء والرجوع بالتوبة الصحيحة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[1].

---

(١) أركان الإسلام الخمسة وأثرها فى تربية الأفراد والجماعات، ليحيى الدرديرى، ص١٦٦، والآية من الأعراف: ٨/ ٢٠١.

إن المؤمن لم يترك طعامه، وشرابه، وشهوته، إلا امتثالا لأمر ربه، ولهذا أجزل الله الثواب للصائمين، وأعد لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال الله ـ تعالى ـ: إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى، للصائم فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عن لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**».

وروى الإمام أحمد والطبرانى فى "الكبير" بإسنادٍ رجاله محتجٌ بهم فى الصحيح عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة: يقول الصيام: أى ربٌ منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعنى فيه، قال: فيشفعان**».

إنه شهر الصبر كما قال رسول الله ﷺ، والصبر ثوابه الجنة، والصائمون أهل لكرامة الله، لهم باب يدخلون منه لا يدخل منه أحد غيرهم كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «**إن فى الجنة بابًا يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد**».

وقد روى هذا الحديث ابن خزيمة فى صحيحه، إلا أنه قال: "فإذا دخل أحدهم أغلق، من دخل شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا".

وإذا كان هذا هو شأن الصيام، فإن المؤمن الواعى لا يكتفى بصيام شهر فى السنة، إنما يكثر من النوافل، لأنه بذلك يفتح على نفسه أبواب الخير،

هذا معاذ ـ رضى الله عـنه ـ يسأل رسول الله ﷺ عما يدخله الـجنة ويباعده عن النار، فذكر له الرسول ﷺ فرائض الإسلام وأركانه، ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخيـر؟ الصوم جُنة، والصدقة تطـفئ الخطيئة كمـا يطفئ الماء النار،وصلاة الرجل في جوف الليـل ثم تلا ﷺ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾**»[1].

فالصوم وقاية وجُنة كجنة المحارب تقـيه سهام الأعداء، والصائم يفتح أبواب الخـير على مـصاريعـها، إذ يعـوده الصيـام على القيـام فى السـحر والمواظبة على صلاة الفجر، والنشاط فـى وقت الصباح المبكر، كما يعوِّده على ضبط اللســان، وحسن الخلق، ودوام الصلة بالله، وجـمال الأدب مع الله والناس. . إلى غير ذلك مما لا يدخـل تحت حصر وكله من الخير الذى واكب الصيام، وكان من شعار الصائمين.

وبالصوم تفتح مـغاليق الخير، ويصل العبد إلى مـرضاة الرب، ويحوز الفضل من أطرافه، روى الإمام البـخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الـله ﷺ قال: «**من أنفق زوجـين فى سـبـيل الله نودى من أبواب الجنة: يا عـبدالله هذا خيـر، فمن كان من أهـل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كـان من أهل الجهاد دُعى من باب الجهـاد، ومن كان من أهل الصيــام دُعى من باب الريان، ومن كــان من أهل الصـدقــة دعى من باب الصدقة، قال أبو بكرـ رضى الله عنه ـ: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما على من دعى من تلك الأبواب من ضـرورة، فـهل يدعى أحـد من تلك الأبواب كلها؟ فقال: نعم،وأرجو أن تكون منهم**».

(١) الآيتان من السـجدة: ٣٢/١٦، ١٧. والحديث قطعة من حـديث رواه أحمد والترمـذى والنسائى وابن ماجه. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

وقد روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد يصوم يومًا فى سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا»**.

ولا أنسى أن أذكّرك ونفسى بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، فقد كان ذلك من وصايا رسول الله ﷺ لأصحابه.

ففى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: "أوصانى خليلى ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتى الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام".

وروى مسلم عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال: "أوصانى خليلى ﷺ بثلاث لن أدعهن ما عشت: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، وبأن لا أنام حتى أوتر".

وما ذلك إلا لأن الحسنة بعشر أمثالها، فمن صام ثلاثة أيام فكأنما صام الشهر كله، وهذا يعنى أنه صام الدهر كله، وقد جاء ذلك عن رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه الإمامان ـ البخارى ومسلم ـ عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«صوم ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر كله»**.

إن الصوم طاعة عظيمة، والقيام بها يحتاج إلى صبر وقوة إرادة، وعزيمة ثابتة لا تتردد فى الحصول على الخير.. أسأل ربى أن يعيننا على طاعته، وأن يهدينا سواء السبيل.

(د) الحج:

هذا هو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج، وكم فيه من بذل وتضحيات ومشقات، إنه عبادة بدنية ومالية، فيه ما فى الأركان الأربعة مع

زيادة جهد وجـهاد، فيه التوحيـد بأسمى معانيه يواكب مـوكب الحجيج من أول لحظة إلى آخر لحظة فى هذه الرحلة المباركـة، وفيه الصلاة وهى تعود إلى حقيقـتها الناصعة، حيث شعَّ سناها عند بيت الله المحـرم، وفيه الزكاة وبذل المال عن طيب خاطر، وفيه الصيام إعلانًا للشكر على النعمة، أو جبرًا لحالة من حالات المـخالفة لبعض الأحكام، ومن ذلك مـا نقرؤه فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(1).

ومثل هذا ما نقـرؤه فى سورة المـائدة حيث يقـول سبحـانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥)﴾(2).

إنها رحلة التضـحيات من أجل الله وفى سبـيله، ولذلك عدها الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من أفـضل الجهاد، الذى يمكن للنساء أن يقمن به. روى البخـارى وغيره عن «عائشة» ـ رضـى الله عنها ـ قالت: **«قلت يا رسول الله، نرى الجـهاد أفضل الأعـمال أفلا نجاهد؟ فـقال: لكن أفضل الجـهاد حج مـبرور»**، وروى هذا الحديث ابن خـزيمة فى صحيـحه ولفظه: قالت: **«قلت: يا رسول الله هل على النساء من جهاد؟ قال: عليهن جهـاد لا قتـال فيـه: الحج والعـمرة»**، وروى النسائى بإسـناد حسن عن أبى

(1) البقرة: ٢/١٩٦.
(2) المائدة: ٥/٩٥.

هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**جهاد الكبير والضعيف والمرأة: الحج والعمرة**». وإذا أدى المسلم هذه الشعيرة كما أمره ربه فقد فاز فوزًا عظيمًا.

ففى الحديث المتفق عليه، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**».

وعنه أيضًا فى الحديث الذى رواه الشيخان وغيرهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**».

وزاد الأصبهاني: «**وما سبح الحاج من تسبيحة، ولا هلل من تهليلة، ولا كبر من تكبيرة، إلا بُشِّر بها تبشيرة**».

إنه لموقف من المواقف العظيمة، وعمل خيِّر من أعمال البر، وجهاد وأى جهاد، ولعلك تلمح معى كيف أن المجاهد إن سقط شهيدًا فى ميدان القتال يكفن فى ثيابه حتى يُبعث يوم القيامة يحمل معه دليل هذا العمل الصالح، كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مكلوم يُكلَم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى: اللون لون دم، والريح ريح مسك**» وهكذا المحرم يكفن فى ثوبه ليكون هذا دليل إخلاصه وجهاده، وتجرده لرب العالمين.

وقد روى البخارى ومسلم وابن خزيمة، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة، إذ وقع عن راحلته فأقصعته، فقال رسول الله ﷺ: «**اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه بثوبيه ولا تخمروا ـ أى لا تغطوا ـ رأسه، ولا تحنطوه، فإنه يُبعَث يوم القيامة ملبيًا**».

وما أعظمـها من شهادة فى هذا اليـوم العصيب، ومـا أجدرهذه المنزلة العالية أن يُبْذَل فى سبيلهـا كل غالٍ ونفيس، وأن يتحمل من يريدها كل تعب ومشقة، وبالصبر على هذا التعب تهون الصـعاب، وتَعْذُبُ المشقة، ويشعر الإنسان بالسعادة والرضا.

(هـ) الجهاد فى سبيل الله:

الحديث عن الجـهاد ودوافعـه وآثاره، وما جاء فى كـتاب الله وسنة رسـوله من حثٍّ عليه وتـرغيب فـيه، يطول ويـطول، ويحتـاج منا إلى صفحـات وبحوث، ولكنا نتحدث عنه من زاوية واحدة، هى مـا فيه من بذل وتضحـيات، وما يحـتاج إليه من صـبر ومجاهـدة للنفس وأهوائها وضعفها. إن الـجهاد فى سبيل الله يعنى استعدادًا نفـسيًا من طراز فريد، ويعنى تربية إيمانية يحدوها الإخلاص وتحرسهـا العقيدة الصافية النقية، ويعنى تدريبًـا على لون معـين من الحيـاة يواكبـه الصبـر على المكارِه، والحرمـان من كثيـر من المشتـهيات، وكـفكفة أهواء النفس، ومدافـعة الهوى والشـيطان، وكل ذلك مما جعله الإســلام منهجًا لأتباعـه، حتى اندفعت الأمة المسلمة حاملة سلاحها، وحاملة معه أرواحها على أكفها، تجود بدمـائها فى سبـيل حماية الحق، ونشـر هذا الدين، حتى وصـلت إلى أقصى المشارق والمغارب، وإذا كان الناس فى ظل دول الكفر يفرون من ميادين القتال، وإن سيقـوا إلى ساحته أصابهم الخوف والذعر والهلع واليأس، فـإن أهل الإسلام قد اسـتعذبوا المـوت فى سبـيل الله، وحتى لتجد هذه الصورة المشـرقة من أصحاب رســول الله ﷺ وهم يبكون، فـهل تـدرى لمـاذا يبكى هؤلاء؟ هـل يبكون لفـوات حظ مـن حظـوظ الدنيـا؟ هل يبكون لأنهم أُخذوا رغم أنوفهم إلى جـهاد الأعداء؟ كلا!! إنهم يبكون لأنهم لم يجدوا وسيلة تمكنهم من الجـهاد فى سبيل الله مع

رسول الله ﷺ، ولنستمع فى ذلك إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾(1). فهل وجدت صورة لمشاعر الإيمان الصادق أكرم وأعظم من هذه الصورة؟

ويبين مثل هذا رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى عن أنس، ورواه مسلم عن جابر ـ واللفظ من رواية مسلم ـ قال جابر ـ رضى الله عنه ـ: كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال: **«إن بالمدينة لرجالا ماسرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض»** وفى رواية «حبسهم العذر»، وفى رواية «إلا شركوكم فى الأجر»، ولهذا كان الرسول الرحيم ﷺ يتخلف عن بعض السرايا جبراً لخاطر هؤلاء الضعفاء، وقد أوضح ذلك فى الحديث الذى رواه مسلم وروى البخارى بعضه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ وفيه: **«والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى، والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»**.

إن القوم باعوا أنفسهم لله، وعرفوا كيف يربحون فى هذه الحياة، وماذا عليهم وهم يبيعون لحماً وشحماً وعظماً ـ هو فى الأصل هبة من الإله الكريم ـ للرب الكريم؟؟ ألا ما أعظمها من تجارة، وما أعظمه من ربح: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

(1) التوبة: ٩/ ٩١، ٩٢.

وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1].

روى الإمام مسلم عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى قال: سمعت أبى - رضى الله عنه - وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف، فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى آأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتل**».

وبهذا أخرج الإسلام رجالا بل ونساء تلين الجبال ولا يلينون، لا يبالون فى سبيل نصرة دين الله ما يلاقون من جوع، وعطش، وحر، وقر، وتعب، ومشقات عظام، حتى وطَّأوا للإسلام كنفًا رحيبًا، ووطِئَتْ أقدامهم المباركة هذه الدنيا على سعتها، فامتد ملكهم من أقصى بلاد الهند والصين، إلى أقصى بلاد الأندلس ومن الشمال إلى أقصى الجنوب الإفريقى، وارتفع اسم الله عاليًا مدويًا فى كل هذه البقاع. . إنهم تعلموا من كتاب ربهم، وسنة نبيهم كيف يصبرون على مثل هذا البلاء فى سبيل الله، فقد قال الله لهم ولمن بعدهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[2].

فقد ناداهم بصفة الإيمان، حثًا لهم، وإيقاظًا لمشاعر الإيمان فى قلوبهم ليأمرهم بأربعة أمور تؤدى بهم إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة، أمرهم بالصبر على طاعته، وما يصيبهم من بلاء، وبمصابرة ومغالبة أعداء الله وما فيها من شدائد وأهوال، وبالمرابطة فى الثغور والمواقع الحربية استعدادًا لقتال

---

(١) التوبة: ٩/ ١١١.

(٢) آل عمران: ٣/ ٢٠٠.

الأعداء، وبالتقوى وهي جماع ذلك كله، وما أكرمها من أوامر، وما أجدر من التزم بها أن يفوز في الدنيا والآخرة، وعرفهم بأن الصبر من أسباب القوة التي ترد كيد الأعداء وذلك وهم يسمعون من ربهم قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾[١].

وما ذلك إلا لأن الصبر قوة لا تقف دونها قوة، وإن بقيت هناك قوة تحارب الصابرين وتفوق طاقتهم أتى مدد السماء لنصرة أهل الإيمان الذين بذلوا كل ما في وسعهم، ولذلك ترى هذا الشرط من لوازم نصر الله للمؤمنين، وذلكم حيث يقول ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾[٢].

وقد علّمهم هذا في جملة ما علمهم من وسائل النصر على الأعداء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾[٣].

وقد ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى مالت الشمس قام فيهم فقال: **«يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»**.

---

(١) آل عمران: ٣/ ١٢٠.　(٢) الأنفال: ٨/ ٦٥، ٦٦.
(٣) الأنفال: ٨/ ٤٥، ٤٦.

وبالصبر يأتي نصر الله، فالله مع الصابرين، والله يحب الصابرين، وهل يتخلى عن أحبابه؟ إنه معهم بعونه ومدده وتأييده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[1].

وهذا شأن الله وسنته مع المؤمنين الصابرين في كل أمة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[2].

وهذا ما نراه في جند طالوت الذين ثبتوا معه، وصبروا على تكاليف الجهاد في سبيل نصرة الحق، وهذا ما نقرؤه في سورة البقرة من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

(١) آل عمران: ٣/ ١٢٣ـ١٢٦.

(٢) آل عمران: ٣/ ١٤٦ـ١٤٨.

والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴿٢٥١﴾[1].

ولعل وجه المناسبة ظاهر بين الأمر للمؤمنين أن يستعنوا بالصبر والصلاة، ونهيهم عن أن يقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، يقول ـ تعالى ـ: **﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴿١٥٣﴾ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴿١٥٤﴾﴾**[2].

إنها حياة كريمة ومنزلة من المنازل الرفيعة، يحظى بها المجاهدون في سبيل الله، وهم لم يصلوا إلى هذا إلا بصبرهم وجهادهم، ولذلك قال ـ تعالى ـ: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴿١٤٢﴾﴾**[3].

وقال: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴿٢١٤﴾﴾**[4].

ومن أجل الجنة تهون الصعاب، وتحلو التضحية، ففي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيها لذة النظر إلى وجه الله الكريم، وقد بادر أصحاب رسول الله ﷺ إلى هذه الجنة في شوق، وساروا إليها في دأب ونشاط، فهذا الصحابي الجليل عمير بن الحمام الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ في غزوة بدر يسمع من رسول الله ﷺ قوله لأصحابه: **«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، فقال: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ..بخ ـ وهي كلمة**

---

(١) البقرة: ٢/٢٤٩ـ٢٥١.
(٢) البقرة: ٢/١٥٣، ١٥٤.
(٣) آل عمران: ٣/١٤٢.
(٤) البقرة: ٢/٢١٤.

تعجب تُقال لتعظيم الخير وتفخيم الأمر - فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قول بخ بخ، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه - أى جعبته التى يضع فيها النشاب - فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل»(1).

فلننظر إلى هؤلاء الأبطال الشجعان، الذين كانوا يبحثون عن الموت فى سبيل الله، ليفوزوا بهذا الأجر العظيم.

ولذلك جاء فى الحديث المتفق عليه عن أنس - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: **«ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض إلا الشهيد يتمنى أن يرجع الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»**.

إنه الرضا الإلهى يحل على هؤلاء المجاهدين، وإنها التجارة الرابحة فى الدنيا والآخرة. يقول ربنا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾**(2).

وقد روى الشيخان عن أنس فى قصة السبعين قارئًا، الذين أرسلهم رسول الله ﷺ لقوم ليعلّموا هؤلاء القوم القرآن، فقتل هؤلاء القرّاء قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا، وأتى رجل "حرامًا" - خال أنس - من خلفه فطعنه برمح

(1) رواه مسلم عن أنس - رضى الله عنه -.
(2) الصف: ٦١/ ١٠-١٣.

حتى أنفذه، فقال حرام: فُـزْتُ وربِّ الكعبة، فقال رسول الله ﷺ: «**إن إخوانكم قـد قُتلوا وإنهم قـالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنَّا قـد لقيناك فـرضينا عنك ورضيت عنا**».

٢ـ الصبر على الإيذاء

وهذا لون من ألوان الجهاد العظيم، ولكم هو بحاجـة إلى قوة العزيمة، وثبات الإرادة، وصدق اليقـين، وللإيمان تكاليفه: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾[1].

وهكذا كـان الابتلاء تمـحيـصًا للـذين آمنوا، وهكذا سارت عـجلة الحياة. يروي الإمام البخـارى بسنده عن أبي عبدالله ـ خبـاب بن الأرت رضى الله عنه ـ قال: «**شكونا إلي رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخـذ الرجل فيـحفـر له في الأرض، فيـجعـل فيـها، ثم يؤتى بالمنشـار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمـه ما يصـده ذلك عن دينه، والله لَيُتـمنَّ الله هذا الأمر حـتي يسـير الراكب من صنعاء إلى حـضْرَموت لا يخـاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**».

وهذا الحديـث يذكرنا بقول اللـه ـ تعالى ـ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝

(١) العنكبوت: ٢٩/٢، ٣.

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[1].

وهؤلاء هم أصحاب الأخدود، وقد روى قصتهم الإمام مسلم بسنده، عن صهيب - رضى الله عنه - وفيها ما كان من أمر الغلام مع ملك من الملوك الظالمين، وكيف لم يستطع قَتْله إلا بعد أن جمع الناس فى صعيد واحد، وصلب الغلام على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانة الغلام، ثم قال: باسم الله رب الغلام ورمى السهم فقتل الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام، ووقع ما كان يحذر الملك، فما كان منه إلا أن أمر بالأخدود بأفواه السكك، فشقت وأوقد فيها نارًا عظيمة، وجاء بالمؤمنين، فمن لم يرجع عن دينه ألقوه فى النار حتى جاءت امرأة ومعها صبى، فخافت أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبرى فإنك على الحق، فألقت بنفسها فى النار صابرة محتسبة، وهكذا انتصر الإيمان أمام جبروت الكفر والطغيان.

ولقد ضرب أصحاب الرسول الكريم ﷺ المثل الأعلى فى الثبات على إيمانهم، وهذه قوى الطاغوت كلها تتجمع لتجبر ياسرًا وسمية وابنهما عماراً على الكفر، فتقف هذه القوى عاجزة، ويمر على هذه الأسرة المباركة المصطفى العظيم - صلوات الله وسلامه عليه - فلا يمتلك إلا أن يقول: **«صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة»**، وتفيض روح ياسر، وتفيض روح سمية، ليكونا أول شهيدين فى الإسلام، وليعلنا للدنيا بأسرها عن جوهر الإيمان الحق، ومعدنه الأصيل، وما يتركه فى النفس البشرية من آثار.

(١) البروج: ٨٥/١-١٠.

ولا يخفى عليكم ما كان من أمر بلال ـ رضوان الله تعالى عليه ـ، وما نزل به من صنوف المحن، وكيف كان يُجلد بالسياط، ويُكوى بمكاوى الحديد، ويوضع الحجر الثقيل على صدره، وهو ملقى فى رمضاء مكة المحرقة، فلا يزيده ذلك إلا إيمانًا، ولا يجد له من سلوى تعزية عما يجد وتخفف عنه آلامه إلا هذه الكلمة التى أشرق بها فؤاده: "أحد.. أحد" وتنتصر "أحد.. أحد" على طواغيت مكة وما بأيديهم من وسائل الإرهاب، ولم ينج من هذا الإيذاء سيد ولا عبد، حتى اضطر المسلمون إلى أن يهاجروا إلى الحبشة مرة بعد مرة، وكانت هجرتهم الأخيرة إلى يثرب، إلى المدينة بعد أن تجمعت قوى الشر كلها لإطفاء نور الله، حين اجتمع أمرها على أن يجمعوا من كل قبيلة فتى شابًا جلدًا قويًا، فيعطوه سيفًا فيضرب هؤلاء الشباب محمدًا ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه فى القبائل فلا تستطيع بنو هاشم أن تحارب العرب جميعًا، فيرضون بالدية فيعطونها، ولكن الله نجى رسوله، وحفظه من كيد الكائدين: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

ولقد جاهد الرسول وأصحابه جهادًا عظيمًا، ووقفوا كالشُّمِّ الرواسى إلى أن منَّ الله عليهم بنصره، وقد واكب الوحى هذه المسيرة، وكانت آياته تنزل تثبت الرسول ﷺ والذين آمنوا معه على طريق الحق، وتبين لهم أن العاقبة لمن صبر، فتقول لهم: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ

(١) الأنفال: ٨/ ٣٠

منْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[1]. وتسألهم بعد أن تبين لهم أن هذه سنة الله فى خلقه، فتقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[2].

وتقول للرسول الكريم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[3].

وتقول له ـ عليه السلام ـ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾[4].

ويضرب الله الأمثال من الأمم السابقة، فيذكر له جهاد «نوح» لقومه، وما كان له من نصر الله، ثم يعقّب على ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[5].

ويذكر له ما كان من أمر «موسى» وقومه، وما نزل بهم من صنوف البلاء، وأن «موسى» كان يقول لهم ما ذكره الله عنه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[6].

وبهذا الصبر على الإيذاء فى سبيل الحق، قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[7].

وقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ

(١) آل عمران: ٣/ ١٨٦.
(٢) الفرقان: ٢٥/ ٢٠.
(٣) الأحقاف: ٤٦/ ٣٥.
(٤) الروم: ٣٠/ ٦.
(٥) هود: ١١/ ٤٩.
(٦) الأعراف: ٧/ ١٢٨، ١٢٩.
(٧) السجدة: ٣٢/ ٢٤.

يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾[1]. وقد ذكر الله في سورة إبراهيم حواراً دار بين الأنبياء وأممهم، وكيف ردت هذه الأمم على أنبيائها قولهم ولم تؤمن بهم، فما كان من الأنبياء إلا أن قالوا لهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[2].

وهذه سنة الله مع المرسلين والمكذبين كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[3].

وكما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[4].

وكما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[5].

وكما قال عز من قائل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[6].

إن الصبر عُدَّة أصحاب الرسالات، وعلى قدر صبرهم وثباتهم يكون نصر الله لهم، ولا تنهض الأمم إلا بأن تبذل من نفسها وحياتها، ودماء

(١) الأعراف: ٧/ ١٣٧.
(٢) إبراهيم: ١٤/ ١٢ـ١٤.
(٣) الأنعام: ٦/ ٣٤.
(٤) الصافات: ٣٧/ ١٧١ـ١٧٣.
(٥) المجادلة: ٥٨/ ٢٠، ٢١.
(٦) النور: ٢٤/ ٥٥.

أبنائها، ما يوصلها إلى ذرا المجد، ومـا يحقق لها العزة فى الدنيا، والكرامة فى الآخرة.

والصبر على الإيـذاء فى سبيل الله ونصـرة الحق عـدة المجـاهدين والمرسلين وأتباعهم عـبر الأزمان والأجيال، وسوف يبقى هذا الصـبر ضياء يضيء الظلمات للمـجاهدين فى سبـيل إعلاء كلمة الله كلما كـرَّ الجديدان وتقلَّبَ الملوان، والعاقبة للمتقين، وكما قال الله لرسوله: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾[1].

٣ـ الصبر فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

هذا لون آخـر وثيق الصلة بالصـبر على الإيذاء فى سـبيل العـقيـدة الصافـية، ذلكم هـو الصبر علـى الإيذاء فى سبيـل القيام بـواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سمة الأمة المـؤمنة، وعلامة بـارزة فى حياتهـا، وبها عزت وسـادت، قال ـ تعالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

والأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر مَعْلَم واضح فى حيـاة المؤمنين، وهو من أول صفاتهم التى اسـتحقوا بها رحمـة الله، وفازوا بجنات النعيم. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي

(١) هود: ١١/ ١١٥.
(٢) آل عمران: ٣/ ١١٠.

من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴿٧٢﴾﴾[1].

والأمة المؤمنة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر كما قال سبحانه: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴿١٠٤﴾﴾[2].

والأمر للأمة المسلمة بأسرها، يقوم كل فرد فيها بهذا الواجب، كما قال رسول الله ﷺ: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**[3].

ويؤيده قول الله ـ تعالى ـ بعد هذه الآية بخمس آيات: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾، وما ذكره بعد الآية مباشرة من الحديث عن أهل الكتاب، وأنهم تركوا هذا الأمر، وتفرقوا واختلفوا فهلكوا، إذ قال سبحانه: **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾**، وما ذكره في سورة المائدة إذ قال سبحانه: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴿٧٨﴾ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴿٧٩﴾﴾[4].

وقد جاء في حديث أبي داود والترمذي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لايحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه**

(١) التوبة: ٩/ ٧٢. (٢) آل عمران: ٣/ ١٠٤.

(٣) رواه مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(١) المائدة: ٥/ ٧٨، ٧٩.

وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل..﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فاسقون﴾، ثم قال: «كلا والله لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهُونَّ عن المنكر ولتأخُذُنَّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً»[(١)]. أى لتحملنه على الحق حملا ولتردعوه بكل ما يمكن من وسائل الردع حتى يرتدع عن ظلمه.

والقائمون بهذه المهمة هم أصحاب صفة عظيمة، هم المجاهدون الذين باعوا أنفسهم فى سبيل نصرة الحق: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[(٢)].

وهم الذين نصروا الله فنصرهم، ومكّن لهم فى الأرض، فكان أن مكنوا لدين الله، وجعلوه منهج حياة لبنى الإنسان كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[(٣)].

ولَكَم يحتاج من يقوم بهذه المهمة إلى أن يصبر على ما يصيبه فى سبيل ذلك، إنه مجاهد لأهل المنكر، ولَكَم يقتل المنكر الأمم، مجاهد فى سبيل نشر علم الخير خفاقًا فى دنيا الناس، وكم فى إذاعة هذا الخير من مصادمة للرغبات الجامحة، والشهوات المهلكة، وإغلاق لأبواب كثيرة من الشر، إنه الجهاد المتواصل، ولقد ضرب النبى ﷺ مثلا لأصحاب كلمة الحق وأهل الشر والفساد، من الواجب علينا أن نستمع لهذا المثل، ففيه من الدروس

(١) رواه أبو داود ـ واللفظ له ـ والترمذى وقال: حديث حسن غريب.
(٢) التوبة: ٩/ ١١٢. (٣) الحج: ٢٢/ ٤٠، ٤١.

والعبر الكثير، وذلكم في الحديث الذي رواه الإمام البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيهما كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم - أي إذا أرادوا ماء صعدوا إلى الطابق الأعلى ليأخذوا حاجتهم من الماء - فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**».

وهكذا نحن في هذه الحياة إن تركنا العصاة والفسّاق والفجّار والظَّلَمة، ولم نأخذ على أيديهم، واشتغل كل منا بأمر نفسه، ولم يكترث بما يفعله هؤلاء، خرقوا سفينة الحياة فغرقت، ولم ينج صالح أو طالح، وإن وقفنا لهم بالمرصاد ومنعناهم من الفساد، نجوا ونجونا جميعًا. وما أصدق رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وقد بيّن الرسول ﷺ لنا ما سيكون من أمر الأمة في مستقبل الأيام، وواجب كل مخلص في هذا الزمان، فقال - عليه السلام - في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن ابن مسعود - رضي الله عنه - : «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**».

وكما يقع مَنْ يقاتل الأعداء في ساحات الوغى شهيدًا، كذلك قد يقع من يقاوم المنكر ويرد أهل الباطل شهيدًا، بل إن منزلة هذا في الشهادة لعظيمة، يوضح هذا ما رواه أبو داود - واللفظ له -، والترمذي، وابن ماجه

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: **«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»** وروى النسائى بإسناد صحيح عن أبى عبدالله ـ طارق بن شهاب البجلى الأحمسى ـ أن رجلا سأل النبى ﷺ وقد وضع رجله فى الغرز: **«أى الجهاد أفضل؟ قال: كلمة حق عند سلطان جائر»** ومعنى وَضَعَ رجله فى الغرز: أى ركب راحلته. ورواه بهذا المعنى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ، وروى الترمذى والحاكم بسند صحيح عن جابر ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: **«سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**.

أرأيتم كم يحتاج القائمون بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى ثبات وصبر ومصابرة، وقوة إرادة، وشجاعة فى هذا الميدان العظيم؟ وكما قلنا: الأمة كلها مكلفة بهذا الواجب، ولو قامت به ما وجدت ما ترى من انحراف كثير من الناس عن طريق الله، ولما رأيت صورة التشتت والتمزق، والضياع والتفرق، التى تعانى منها أمة الإسلام حتى غُزيت فى عقر دارها، وقد روى الحاكم بسند صحيح عن عبدالله ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال: **«إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم»**.

وروى البخارى ومسلم عن زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ دخل عليها فزِعًا يقول: **«لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتُح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وحلق بين إصبعيه: الإبهام والتى تليها ـ فقالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»**.

ولذلك وجب على كل مؤمن ألا يخشى فى الله لومة لائم، فعلى هذا

كان يبايع رسول الله أصحابه، وإن قصّر المؤمن فى ذلك حُوسب حسابًا شديدًا. روى ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحقرن أحدكم نفسه، فقالوا يا رسول الله، وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أن عليه لله مقالا ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل يوم القيامة: ما منعك أن تقول فى كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياى كنت أحق أن تخشى»**.

إنها الإرادة والثبات والصبر على ما ينزل من بلاء فى سبيل تغيير المنكر وإقرار المعروف، وقد قال لقمان لابنه: **﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾**[1].

٤ـ الصبر عن المعاصى

رُوى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ كرّم الله وجهه ـ أنه قال: "الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفًا من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة» وقال ميمون بن مهران: "الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن وأفضل منه الصبر عن المعصية»[2].

والمعاصى انحراف عن الطريق، وبُعْد عن منهج الله، وانهزام للإرادة، وانتصار للشيطان، وظلام يحيط بأصحابه، فيتخبطون فى متاهات الحياة، إنها لحظة ضعف تعترى الإنسان المؤمن، فيسقط فى حمأة المعصية،

(١) لقمان: ١٧/٣١.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية، ص٥٧.

وينسى فى هذه اللحظة عهده مع ربه وخالقه. إن الطاعة لله سمو ورفعة، وتحليق مع نفخة الروح التى أودعها الله فى الإنسان، وإن المعصية ضعة وانحطاط وهبوط إلى التراب، إلى الأرض، إلى الجزء الفانى فى الإنسان، وهو هذا التراب، ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾[1].

نعم، ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هـواه!! إنه لم يرتفع إلى أعلى، لم يلُذ بجناب الإله القوى، إنما انكبّ على الأرض ولاذ بـها، وسار مع الهوى حيثما سار، وهكذا كل عاصٍ لربه، ولذلك كان فى الصبر على ترك المعاصى من المشقة ما فيه.

ولعلك تشعر كلما صعدت إلى الأدوار العليا، وارتقيت السلم درجة درجة، أحسست بالتعب والإرهاق، ولكنك حين تعود لتنزل من أعلى إلى الشارع كان النزول سهلا لا تعب فيه، ولعلك أيضًا تعلم بأن النجاح ليس بالأمر السهل، إنما يحتاج إلى سهر وبذل من الصحة والوقت، وإلى أن يتعوّد من يريده على ألوان من الحرمان من كثير من المستلذات والرغبات، ولكن الرسوب سهل، وما على من لم يرغب فى النجاح إلا أن يلهو مع الأقران، ويقضى وقته فى الضحك والسمر واللعب، ينام ملء جفونه لا يعنيه هذا الأمر فى قليل ولا كثير، فتكون النتيجة هى الرسوب لا محالة، وعلى هذا الطريق كانت الطاعة والمعصية كما جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ: «حُجبت النار

(١) الأعراف: ٨/ ١٧٥، ١٧٦.

بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره» وفي رواية لمسلم « حُفَّت» بدل «حُجِبَت» وهو بمعناه، فمن اخترق حجاب الشهوات وسقط فيها وأصبحت له قائدًا وموجّهًا سقط في النار وبئس القرار: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[١].

ومن حَمَّلَ نفسه ما تكره، وحرمها من مشتهياتها، وجرّعها كأس الرضا، وحَمَلها على حسن الانقياد لله، وكان كما قال الشاعر:

فخالف النفس والشيطان واعصهما   وإن هما محضاك النصح فاتهم

من تخطى حاجز المكاره وتحمل الصعاب، وصبر على ذلك فاز بالجنة، وذلك هو الفوز العظيم، والحديث عن الصبر عن المعاصي، وما له من آثار طيبة مباركة في حياة الفرد والجماعة، يطول ويحلو، ويحتاج إلى دراسة عدة نماذج من أوامر الله ونواهيه، والدوافع التي تدعو إلى مخالفة هذه الأوامر وارتكاب ما نهى الله عنه، ولكن الحديث سيتشعب بنا، وحسبنا هنا أن نعلم أن الصبر عن المعاصي شاقٌ على النفوس، إلا من منحها الله الهداية والسداد والرشاد، ولذلك قالوا: "ليس العجب ممن يصبر على الأوامر، فإن أكثرها محبوبات للنفوس السليمة لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر، وهذه محبوبة للنفوس الفاضلة الزكية، بل العجب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها محاب للنفوس، فيترك المحبوب العاجل في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرى، والنفس موكلة بحب العاجل، فصبرها عنه مخالف لطبعها".

(١) الجاثية: ٤٥/ ٢٣.

وقالوا: "إن المناهى لها أربعة دواعٍ تدعو إليها: نفس الإنسان، وشيطانه، وهواه، ودنياه، فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة، وذلك أشق شىء على النفوس وأمَرُّه»[1].

والصبر عن المعاصى يعْظُم بحسب قوة الداعى إلى الفعل، وسهولته على العبد، فمن يحيا فى مجتمع عفيف طاهر لا تتكشف فيه العورات، وتتيسر فيه سبل الزواج، يرى طريق العفة ممهدًا سهلا، ولذا يسهل عليه أن يصبر عن الشهوات، إذ ليس هناك ما يحركها أو يثيرها، ومن يحيا فى مجتمع عَفِن، تشيع فيه الشهوات، وتنتشر فيه الفواحش، وتتكشف فيه العورات دون حياء، ويدعو إلى الخنا بكل وسائله المسموعة والمكتوبة والمرئية، ولا يجد فيه الشباب بابًا للإحصان والعِفّة، فى الوقت الذى يجدون فيه كل الأبواب مفتوحة للحرام، فى مثل هذا المجتمع يكون للصبر عن الشهوات معناه ومغزاه، وله أجره العظيم ومنزلته العالية، لأن الفعل سهل ميسور ولكن المؤمن معتصم بإيمانه، لاذ بربه وذكر موقفه يوم الحساب، فامتنع من مقارفة الإثم. فحظى بالرضوان ونال الأجر الجزيل، وبخاصة إذا كانت الدواعى إلى الفعل قوية، فإن صبر الشاب عن الشهوات غير صبر الشيخ الفانى عنها، ولذلك جاء عن النبى ﷺ قوله: **«عجب ربك من شاب ليست له صبوة»**[2].

وجاء هذا الوعد العظيم والثواب الجزيل لهؤلاء السبعة المذكورين فى حديث البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة الله ـ عز وجل ـ، ورجل قلبه**

(١) انظر: عدة الصابرين لابن قيم الجوزية، ص٢٧.

(٢) رواه الإمام أحمد.

معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه».

فأنت ترى معي قوة الدواعي وسهولة الفعل لكل عمل يخالف هذه الأعمال، فالظلم من الإمام يدعوه إليه سلطانه وقوته، وهو سهل عليه، لا يجرؤ أحد من الخلق أن يمنعه منه، فإذا ما عدل في رعيته وقاوم إغراء السلطان والشيطان، استحق الجزاء الأوفى والمنزلة الأعظم، وهكذا الشاب الذي ينشأ في عبادة ربه، ومن بعده من الأصناف عَظُمَ أجرهم، لأنهم قاوموا وصبروا وثبتوا على أمر الله، فكان جزاؤهم عظيمًا، ويُقابل هؤلاء نوع من الناس ضعفت فيهم دوافع الفعل، ومع ذلك فقد فعلوه فكان خزيهم وعارهم ووعيدهم رهيبًا، وذلكم في الحديث الذي رواه الإمام مسلم والنسائي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان [أي رجل كبير في السن ليست عنده قوة على أمر النساء ومع ذلك يزني] وملك كذاب، وعائل مستكبر»**. فما الذي يدعو الرجل العجوز الهرم إلى الزنا وقد ضعفت بواعثه، وما الذي يدفع الملك إلى أن يكذب على رعيته وهو السيد المطاع، وليست له حاجة إلى الكذب، وإن كان الكذب كله لا حاجة للإنسان به وهو محرم إلا في إصلاح ذات البين وإرضاء الرجل لزوجته وإرضائها لزوجها وما يتعلق بأسرار الدولة وشئون الحرب، فإن الحرب خدعة. أقول وإن كان الكذب كله حرامًا إلا أنه من صاحب السلطان والإمارة والملك أشد خطرًا وأعظم ضررًا، وفيه من البلاء ما يستحق صاحبه هذا الوعيد

الرهيب، وكذلك العائل المستكبر، والعائل هو الفقير المسكين المحتاج، وليس عنده من الجاه والمال والقوة ما يدعوه إلى أن يستكبر، والكبر من الكبائر، ولكنه من هذا الفقير أشد إثمًا إذ كيف يرى فى العمل والاحتراف وكسب القوت ما ينقص قدره، وما لا يليق بشرفه وهو الفقير المعدم؟ وكيف يمشى مزهوًا متكبرًا وكان عليه أن يتواضع وينظر لحاله؟ وليس الفقر عيبًا إنما العيب كل العيب أن يتعالى هذا الفقير على ما يصلح حاله وينقذه من غائلة الفقر والاحتياج.

إن الصبر عن المعاصى باب عظيم من أبواب الخير، وأصحابه هم الفائزون، فالصبر صبران كما قال ميمون بن مهران: "فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية".

٥ـ الصبر على البلاء

تبيّن لنا أن المؤمن فى كل حركة يتحركها، وفى كل عمل يعمله وفى كل أمر يمتنع عن القيام به يحتاج إلى أن يضبط نفسه، وأن يواكب حركة الحياة الدائبة منسجمًا مع ما جاء فى كتاب ربه وسنة نبيه، ولكم يحتاج هذا إلى جلَد وصبر، لذا كان لابد أن يصبر على الطاعات، وأن يصبر كذلك عن المعاصى، وأن يتجرع كئوس الأذى فى سبيل إيمانه، وأن يتحمل ما يكره من أجل إقامة دنيا الناس على منهج الله، وقد آن لنا بعد أن عرفنا ذلك كله أن نتفيأ فى ظلال شجرة الصبر راحة وسكينة وهدوء بال، ونحن أمام لون من ألوان هذا الصبر، ألا وهو الصبر على ما يصيب الإنسان من بلاء فى جسده أو ماله أو ولده، وما ينزل به من نكبات وما يفوته من حظوظ، وما يحيط به من أحداث جسام، وما الحياة إلا مزيج من فرح وترح وسعادة وشقاء، وصحة ومرض، وفقر وغنى، ومسرات وأحزان:

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الأكدار والأقذار

ومكلف الأيام ضد طباعهـــا ... متطلب في الماء جذوة نــار

ولذلك لا يصلح أمرها ولا يستقيم حالها إلا بالصبر، فبه تنجلي الظلمات، وتنقشع الغيوم، وتشرق شمس السعادة تغمر الحياة، قال ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه -: **«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك»**، ومن رُزق الصبر فقد رُزق الخير كله:

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«ومن يتصبر يصبره الله، وما أُعْطِي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»**.

ولهذا تعجّب رسول الله ﷺ من حال المؤمن وما يؤول إليه أمره في السراء والضراء، وقد روى الإمام مسلم في ذلك عن صهيب الرومي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره له كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»**.

والمؤمن عرضة في هذه الدنيا للابتلاء كما قال رسول الله ﷺ وقد سُئل: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: **«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلَى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة [أي ضعف] ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»**[1]، وصدق الشاعر إذ قال:

(١) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

بنا الله للأخيار بيتا سماؤه همومٌ وأحزان وحيطانه الضر

وأدخلهم فيه وأغلق بابـــه وقال لهم مفتاح بابكم الصبر

وقد روى مسلم عن كعب بن مـالك ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كـمثل الخامة من الزرع [أى الشجـرة الغضة الطرية] تفيـئها الـريح تصرعهـا مرة وتعدلـها أخرى حـتى تهيج [أى تميـلها الريح وتحركـها بشدة حتى تـضطرب] وفى رواية: حتى يأتيه أجله، ومـثل الكافر كمثل الأرزة المجـدبة على أصلها لا يصيبها شىء حتى يكون انجـعافها مرة واحدة» فالكافـر كشجرة الصنوبر القـوية المتينة التى لا تتأثر بـهبوب الرياح حتى تقلع أو تكسر من وسطها مرة واحدة.

وفى ذلك الخيـر كل الخير، فقد روى البـخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يصب منه»، وكيف لا يكون فى ذلك الخير كـل الخير، وهو سبب السعـادة فى الدنيا والآخرة، وتأمل معى قـول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾[١].

وقد جاءت هذه الآيات بـعد قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾[٢].

فأنت ترى أن الإله الرحـيم قد أوضح لنا طريق الانتصـار على ما ينزل

---

(١) البقرة: ٢/ ١٥٥ـ١٥٧.

(٢) البقرة: ٢/١٥٣، ١٥٤.

من بلاء فى الدنيا، وذلك بأن يستعين الإنسان على ذلك بالصبر والصلاة، وقد كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وبيّن لنا بأنه سبحانه مع الصابرين، ومن كان الله معه لا يضيع ولا ييأس ولا يشقى ولا يضل، ولا يحزن على شىء فاته فى هذه الحياة، وأرشدنا إلى حقيقة الحياة والموت، فبين لنا أن الشهداء أحياء عند ربهم حياة يعلمها سبحانه، فيها من النعيم المقيم ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، وذكر لنا سنته فى الخلق، وأن المؤمن لابد وأن يبتلى وأن يختبر بشىء من **الخوف**: حين يذهب الأمان ويخشى الإنسان على نفسه وولده وماله، **والجوع**: وذلكم حيث يكون القحط والغلاء الذى يطحن الناس طحنًا، **ونقص من الأموال**: حين تجتاحها الحوائج وتنزل بها النكبات، **والأنفس**: بالتقاتل الذى تضيع فيه الدماء، ويموت فيه الأحباب والأصحاب، والثمرات: فلا تغل الحدائق والبساتين والمزارع كعادتها، وليس لذلك كله من دواء سوى الصبر، ومن صبر كان حريًا بالبشارة من الله ورسوله والمؤمنين، لأن الصابر هو المستسلم لأمر الله، الراضى بقضائه، القائل كلما نزل به بلاء: إنا لله وإنا إليه راجعون، فاستحق من الله الثناء والرحمة تحيط به من كل جانب، وهذه الشهادة الغالية: وأولئك هم المهتدون.

فجعل الهداية للحق والحقيقة ـ الهداية العامة فى كل ناحية من نواحى الحياة شيئًا ـ خاصًا بهم لا يتعداهم لغيرهم، وقد جاء فى الحديث الذى رواه مسلم، وأبو داود والنسائى والترمذى عن أم سلمة ـ أم المؤمنين رضى الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها إلا آجره الله ـ تعالى ـ فى مصيبته وأخلف له خيرًا منها، قالت: فلما**

مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إنى قلتها فأخلف الله لى خيراً منه: رسول الله ﷺ».

وفى هذه الآية يروى الطبرانى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: أخبر الله ـ عز وجل ـ أن المؤمن إذا سلم لأمر الله، ورجع فاسترجع عن المصيبة كتب له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى، وقال رسول الله ﷺ: **«من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل له خلفًا يرضاه ـ أى بدلا وعوضًا يرضاه ـ»**. وفى مسند الإمام أحمد عن أبى سنان قال: دفنت ابنًا لى فإنى لفى القبر إذ أخذ بيدى أبو طلحة الخولانى فأخرجنى، وقال لى: ألا أبشرك؟ قلت: بلى، قال: حدثنى الضحاك عن عبدالرحمن بن عازب عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله: ياملك الموت قبضت ولد عبدى، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فماذا قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتًا فى الجنة وسموه بيت الحمد»**. وما أكرمه من بيت وما أعظمه من أجر، وهذا الذى أصيب بفقد بصره فصبر، ماذا له؟ يروى البخارى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله ـ عز وجل ـ قال: إذا ابتليت عبدى ـ أى المؤمن ـ بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة، فمن أصيب بفقد عينيه ـ فهما حبيبتان إليه فإن نعمة البصر من أجل نعم الله على الإنسان ـ لم يكن له جزاء إلا الجنة»** وعند الطبرانى: **«يا جبريل ما ثواب عبدى إذا أخذت كريمتيه ـ أى عينيه ـ إلا النظر إلى وجهى والجوار فى دارى؟»**.

وحسب المؤمن أنه فى كل بلاء مأجور:

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة ـ رضى الله

عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا غم حتى الشوكة التي يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه».

وروى الحاكم، والترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله ـ تعالى ـ وما عليه خطيئة».

ونِعْمَ ما يلقى الصابرون من جزاء، وحسبهم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. وأن الله جعلهم في جملة من أعد لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا، وذلك حيث يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[2].

٦ـ دوافع الصبر

لقد رأينا في نور القرآن الكريم، والسنة المشرفة، طريق الحياة واضحًا جليًا لا اعوجاج فيه، وعلمنا بأن هذا الطريق ليس مفروشًا بالورود والرياحين، إنما هو طريق ذو أشواك، محفوف بالمخاطر، وللوصول إلى نهاية هذا الطريق، لابد أن تتسلح بالصبر: صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، وصبر على الإيذاء في سبيل الله، وصبر على مشقات القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصبر على ما يصيب المؤمن في هذه الحياة من بلاء: في نفسه، أو ماله، أو ولده، وقد وقفنا عند ذلك كله

(١) الزمر: ٣٩/ ١١.
(٢) الأحزاب: ٣٣/ ٣٥.

وقفات متأنية، ولم يبق لنا إلا أن نتحدث عن دوافع الصبر، وما يؤدى إلى أن يتجرع المؤمن كؤوسه فى رضًا، واطمئنان، حتى ليقول ما قال عمر بن الخطاب: "الصبر والشكر بعيران، لا أبالى على أيهما أركب"، لأنه علم أنه فى الحالين مأجور، وفائز بالخير، ولا يصل إلى هذا الأفق العالى من التسليم المطلق لله إلا بالإيمان الذى يستولى على الكيان الإنسانى، فلا يجد له مع ربه إلا حالة الرضا بالقضاء، رضا المحب بما يفعله الحبيب.

وقد وصل سلفنا الصالح إلى النهاية السامقة فى هذا الباب:

يروى البخارى ومسلم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ ما كان من أمر أمه ـ أم سليم الأنصارية رضى الله عنها ـ مع زوجها أبى طلحة، وذلك إذ يقول أنس: كان ابن لأبى طلحة ـ رضى الله عنه ـ يشتكى، فخرج أبو طلحة فقُبِض الصبى، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابنى؟ قالت أم سليم ـ وهى أم الصبى ـ: هو أسكن ما كان، فقربت له العشاء فتعشى، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبى ـ أى دفنوه ـ فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: **«أعرستم الليلة؟ قال: نعم، قال: اللهم بارك لهما، فولدت غلامًا، فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتى به النبى ﷺ، وبعث معى بتمرات فقال: أمعه شىء؟ قال: نعم.. تمرات، فأخذها النبى ﷺ فمضغها، ثم أخذها من فيه، فجعلها فى فىِّ الصبى، ثم حنَّكه وسمَّاه عبدالله»**، وفى رواية البخارى: قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد، كلهم قد قرأوا القرآن، يعنى أولاد عبدالله المولود.

وفى رواية لمسلم: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا الذى أحدثه، فجاء، فقربت إليه عشاءه، فأكل وشرب، ثم تصنعت له ـ أى تزينت وتجملت ـ أحسن ما كانت تصنع

من قبل، فـوقع بها، فلما أن رأت أنه قـد شبع وأصاب منهـا، قالت: يا أبا طلحة: أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، فقالت: احـتسب ابنك ـ أى اطلب ثواب صبرك من الله على ما أصابك ـ».

فهل رأيت مثالا فى الإيمان لامرأة مؤمنة بقضاء الله كهذا المثال؟؟

ولننظر إلى ما منّ اللـه به من هداية وتوفيق للخيـر فى هؤلاء البررة من أصحاب رسول الله ﷺ، ونحن نقرأ الحـديث المروى فى البخارى ومسلم عن عطاء بن أبى رباح، حيث قال: قال لى ابن عـباس ـ رضى الله عنهما ـ: **«ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قـال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إنى أصرع، وإنى أتكـشف، فادع الله ـ تعالى ـ لى، قال: إن شئت صـبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعـافيك، فقال: أصـبر، فقالت: إنى أتكشف فادع الله ألا أتكشف، فدعا لها»**.

وهكذا أهل الإيمـان يصـبرون، وهم يـطمعـون فى ثواب الله، ولهـذا استحقوا الأجر العظيم من الله، وكانت لهم عقبى الدار، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وبعد أن ذكر الله فى سورة الفرقان من صفات عباده ما ذكر، قال عز من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾[2].

---

(١) الرعد: ١٣/ ٢٢ـ٢٤.

(٢) الفرقان: ٢٥/ ٧٥، ٧٦.

ولو قرأت الآيات التى تحدثت عن صفات عباد الرحمن، لعلمت أن الصبر الذى نالوا به عظيم الجزاء هو صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصى، وصبر على البلاء، فمن صبر ظفر: ظفر فى الدنيا بالسلامة، وراحة البال، والعاقبة، وفى الآخرة بالأجر العظيم الذى لا يحد، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

وقد قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: أفضل العدة الصبر على الشدة، وقيل: "من أحب البقاء فليعد للمصائب قلبًا صبوراً"، وما أكثر مُلمَّات الحياة، وما يصيب الناس فيها من ضُرٍّ، وشأن المؤمن عند ذلك أن يتذكر قول الله ـ تعالى ـ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[2].

وقد قال بعض الشعراء:

إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذى يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته	ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه	لا تيأسن، فإن الصانع الله

وهذا يعقوب ـ عليه السلام ـ حين فعل أبناؤه ما فعلوه بأخيهم يوسف، لم يقطع رجاءه من الله، إنما قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[3].

وحين رجعوا مرة أخرى بغير الأخ الثانى، الذى احتال يوسف فآواه

(١) الزمر: ٣٩/ ١٠.
(٢) الحديد: ٥٧/ ٢٢، ٢٣.
(٣) يوسف: ١٢/ ١٨.

إليـه، كرَّر مقـالته وقـال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.[1].

ثم قال لهم: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[2].

فكان ما نعلم من فرج الله القريب، وردَّ الله ليعقوب بصره، وجمعه بأبنائه وأحسن عاقبته.

صبِّرْ النفس عند كل مُلِمٍّ ... إن فى الصبر حيلة المحتال

لا تضيقن فى الأمور فقد ... تكشف غماؤها بغير احتيال

رب ما تجزع النفوس من ... الأمر له فرجة كحل العقال

وقد أنشد بن دريد عند أبى حاتم:

إذا اشتملت على اليأس القلوب ... وضاق لما به الصدر الرحيب

وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست فى مكانتها الخطوب

ولم تر لانكشاف الضر وجها ... ولا أغنى بحيلته الأريب

أتاك على قنوط منك غوث ... يمن به اللطيف المستجيب

وكل الحادثات إذا تناهت ... فموصول بها الفرج القريب

وهناك الكثير من البواعث والدوافع التى تحمل الإنسان على الصبر، وتدعوه إليه وتجعله يقف أمام العواصف الهوج كالجبل الأشمِّ الشامخ، لا يلين ولا يهتز، ونَبْع هذه البواعث الإيمان الكامل، والثقة فيما عند الله،

(١) يوسف: ١٢/ ٨٣.
(٢) يوسف: ١٢/ ٨٧.

وحمل النفس وتعويدها على ما تكره، وقد قال رسول الله ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**». وقال - تعالى -: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾[1].

وقد ورد: "أنه لن يغلب عسر يسرين".

وقد قال بعض البلغاء: عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج:

أيها الإنسان صَبْرًا	إن بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حرا	لم يكن بالأمس حرا
ملك الصبر فأضحي	مالكًا خيرًا وشرا
اشرب الصبر وإن كان	من الصبر أمرا

ولذلك لابد من الابتعاد عما يثير كوامن الحزن والأسى، فمن يتصبر يصبِّره الله، وقد قال عمر - رضى الله عنه -: "لا تستفزوا الدموع بالتذكر" كما أن على العاقل ألا يأسى على ما فات، ولا يفرح بما هو آت، وأن يكون كتومًا، لا يكثر الشكوى والجزع، فهذا ما يدعوه إلى زيادة الكمد والحزن، فإن الصبر الجميل هو الذى لا بثٌّ معه، ولا شكوى فيه.

وقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[2].

وعليه أن يعتبر بمن هم أكثر منه بلاء، وأن يتذكر أحوالهم، وسوف يرى أنه مازال مغمورًا بفضل الله وجزيل عطائه، مع أن ما أصابه سوف يكون بالصبرعليه فى ميزان حسناته، وأن ما كان يعمله من الطاعات أيام مرضه

(١) الشرح: ٩٤/٥، ٦.

(١) يوسف: ١٢/٨٦.

فأقعده المرض عنه مازال ثوابه جاريًا تكتبه له الملائكة، كرمًا من الله وفضلا، إلى غير ذلك من الدواعى التى تدعو إلى أن يلوذ المؤمن الواعى بالصبر، وأن يتذاكر مع إخوانه ذلك، كما ذكر الله ـ تعالى ـ فى صفات الفائزين حيث قال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾[1].

وكما قال: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾[2].

هؤلاء هم الصابرون، وهذا هو جزاؤهم، وقد تبين لنا أنهم جديرون بمحبتنا، وهم من قبل ومن بعد أهل لمحبة الله لهم.

---

(١) العصر: ١٠٣/ ١ـ٣.

(٢) البلد: ٩٠/ ١٧.

الفصل الخامس

محبة الله للشاكرين

محبة الله للشاكرين

الإيمان نصفان: نصفه صبر ونصفه شكر، وقد تحدثنا عن الصبر، ورأينا أنه جزء لا ينفصل من حياة الإنسان المؤمن، وأنه متعدد الألوان والأنواع، ولا غنى للعبد عنه، وأنه كالملح لا يستغنى عنه طعام، فالطاعات تحتاج إلى الصبر عليها، والمعاصى تتطلب الصبر عنها، وما فى الدنيا من بلاء، وأهوال جسام، وعواصف هوجاء، إنما تمر فى هدوء ويسر بالصبر عليها، والحديث عن الصبر يعذب ويحلو، ولو أرخينا لخواطرنا العنان لطال بنا الحديث.

وحسبنا أن تذاكرنا الكثير من معانى هذا الخلق العظيم، وما له من آثار فى حياة الأفراد والجماعات، وما أعد الله لأصحابه من عالى الدرجات، ورفيع المنازل، ويكفيهم أن الله يحبهم، وأنه معهم، وأنه يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأنهم لذلك كله جديرون بمحبتنا وأهل لمودتنا، ونحن فى حاجة إلى الحديث عن القسم الثانى والذى ما ذكر الصبر إلا وذكر، ذلكم هو الشكر، وما الإيمان إلا صبر وشكر، ولهذا جمع الله بينهما فى أربع سور من القرآن بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

وما ذلك إلا لأن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهى ترجع إلى شطرين، فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة الله، وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله فى هذين الشيئين: فعل المأمور وترك المحظور، وإذا كان الشكر على هذا القدر من الأهمية فلكم نحن بحاجة إلى مدارسته وبيان حقيقته، وما يترتب عليه من حسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، حتى نفوز مع الفائزين ونحظى بأجر الشاكرين، ولنعرف

(١) إبراهيم: ١٤/ ٥، ولقمان: ٣١/ ٣١، وسبأ: ٣٤/ ١٣، والشورى: ٤٢/ ٣٣.

كذلك لماذا استحق الشاكرون هذه المنزلة الرفيعة، وكانوا أهلا لمحبة الله ورعايته، وبذلك يتبين لنا أنهم فى مقدمة من نحبهم فى الله، ومن أجله.

ولنعد إلى السؤال: **ما هو الشكر وما هي حقيقته، وماذا جاء فيه حثا عليه، وبيانا له، وترغيبا فيه من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح؟؟**

قال الجوهرى فى الصحاح: "الشكر: الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، وكل ما جاء فيه استعمال كلمة الشكر يدل على الزيادة والنماء، فالشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، واشتكرت السماء: اشتد وقع مطرها، واشتكر الضرع: امتلأ لبنًا، ويقال أيضًا: دابة شكور: إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف، وهكذا".

وقد عرّف الأصفهانى الشكر بأنه: تصور النعمة وإظهارها، وضده الكفر: وهو نسيان النعمة وسترها، وقيل إن الشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم، وقالوا أن الشكر مقابلة النعمة بالفعل، والقول، والنية، فيُثنى على المنعم بلسانه، ويجعل نفسه فى طاعته، ويعتقد أنه صاحب فضل ونعمة عليه، وقد صوَّر الشاعر ذلك فى قوله:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

فاليد كناية عن الطاعة، واللسان يثنى ويمدح، والضمير المحجب يحمل العرفان بالجميل، ويشعر باليد التى قدمت إليه.

وقد ذكر ابن القيم كثيراً من الأقوال فى بيان معنى الشكر، ومن ذلك أن الشكر: معرفة العجز عن الشكر، وقيل: الشكر استفراغ الطاقة فى الطاعة، ولكن هذا الذى قالوه، إنما يعبر عن بعض معانى الشكر، لأن الشكر كما قال الغزالى: "ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل، فيورث الحال، والحال يورث العمل، فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم،

والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان»[1].

فإذا ما انتقلنا إلى رياض القرآن العظيم، والسنة المشرفة، لنشمَّ عبيرهما، ونحن نتفيأ ظلال شجرة الشكر، سوف نرى أن الكتاب العظيم والسنة المطهرة قد اعتنيا بالشكر والشاكرين عناية فائقة، ولا غرو فإن الشكر نصف الإيمان ـ كما علمنا ـ .

ولننظر إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[2]، لنعرف أن الشكر هو الغاية المنشودة من إيجاد الخلق وإخراجهم من بطون أمهاتهم، وتزويدهم بآلات الحس والإدراك والفهم، وما ذلك إلا لأن الشكر قرين العبودية لله، لأنه اعتراف بفضل الله، وسعى فى مرضاته، وقيام بما أوجب، وهذه هى العبودية التى جعلها الله سببًا فى خلق من خلق، حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[3]، ولهذا جعل الشكر عنوان العبودية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[4].

فالأكل من رزق الله وما أحله لعباده دون شكره سبحانه على ما أولى من نعم، وما منح من خير: كفران، وخسران، وبُعْدٌ عن النهج الصحيح.

ومثل هذا ما نقرؤه فى سورة النحل، بعد أن ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ٤/ ٨٢، ط دار المعرفة، بيروت.
(٢) النحل: ١٦/ ٧٨.
(٣) الذاريات: ٥١/ ٥٦ـ٥٨.
(٤) البقرة: ٢/ ١٧٢.

لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، ولقد جاءهم رسول منهم فكذَّبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون، قال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾[1].

فمن لم يشكر الله لم يعبد الله، ولعلك تلمح هذا المعنى، ولكن بأسلوب آخر وأنت تقرأ قول الله - تعالى - في سورة البقرة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[2].

فقد جمع في الآية بين الذكر والشكر، وطالب بهما معًا، وبين أن من لم يشكر فقد كفر، وتنكر لنعم الله عليه، ولو علم أنه محاسب على هذه النعم، وأنه راجع إلى ربه، وأنه سيسأله عن ذلك كله، كما قال - تعالى -: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾[3].

أقول: لو علم ذلك كله لما كفر بنعمة الله عليه، ولذلك قال إبراهيم - عليه السلام - لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[4].

فقد أمرهم إبراهيم - عليه السلام - بتوحيد جهة الطلب، وهذا هو توحيد الألوهية، وهو الذى خالفت فيه الأمم أنبيائها، وحاربتهم من أجله، حتى قال قائلهم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾[5].

---

(١) النحل: ١٦/١١٤.
(٢) البقرة: ٢/١٥٢.
(٣) التكاثر: ١٠٢.
(٤) العنكبوت: ٢٩/١٦، ١٧.
(٥) ص: ٣٨/٥.

وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأمرهم بالشكر له، وهي أوامر ثلاثة لا غنى لواحد منها عن الآخر كما ترى، وأخيراً ذكرهم وخوفهم بيوم الحساب، حين بيّن لهم أن مرجعهم إلى الله وحده، فقال: ﴿إليه ترجعون﴾. وقد جمع الله بين الشكر والإيمان في قوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾[1].

وقارن بين الشكر والكفر، وبين ما يترتب على كل منهما حيث قال على لسان «موسى» ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾[2].

ومن المناسب أن نلفت الأنظار إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾، فقد وعد الإله الكريم وعداً مؤكداً بالمزيد من فضله وجوده وعطائه لمن شكر، دون أن يعلق هذا الوعد على شيء إلا القيام بواجب الشكر، ولكنه سبحانه جعل كثيراً مما وعد معلقًا على المشيئة، من ذلك: مغفرته إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[3].

وإغناؤه، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾[4].

ورزقه، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5].

وإجابته دعاء من دعاه كما قال ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾[6].

---

(١) النساء: ٤/ ١٤٧.
(٢) إبراهيم: ١٤/ ٧، ٨.
(٣) النساء: ٤/ ٤٨، ١١٦.
(٤) التوبة: ٩/ ٢٨.
(٥) البقرة: ٢/ ٢١٢.
(٦) الأنعام: ٦/ ٤١.

وقبوله توبة التائبين، قال سبحانه: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(1).

وقال فى سورة الأحزاب: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾(2).

فما أكرم إلهنا، وما أعظم جوده وفضله، فهو الذى أعطى، وهو الذى وفق المهتدين لشكره، وهو الذى يثيبهم ويزيدهم من بره وعطائه زيادة لا نقص فيها، فله الحمد على ما أعطى، وله الشكر على ما أسدى.

وفى القرآن الكثير من تلك المقابلة بين الشكر والكفر، تقرأ من ذلك ما ذكره الله على لسان «سليمان» ـ عليه السلام ـ، إذ قال حين رأى عرش بلقيس بهن يديه فى لمح البصر: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾(3).

وما ذكره الله من حال «لقمان»، إذ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾(4).

ومثل هذا ما نقرؤه فى سورة الزمر من قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾(5).

فقابل بين الكفر والشكر، وبيّن سبحانه أنه لا يرضى لعباده الكفر، ولكنه يرضى لهم أن يشكروه. وقد قال قتادة ـ رضى الله عنه ـ: "والله ما رضى الله لعبد ضلالة، ولا أمره بها، ولا دعا إليها، ولكنه رضى لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن معصيته"(6).

---

(1) التوبة: ٩/ ١٥.
(2) الأحزاب: ٣٣/ ٢٤.
(3) النمل: ٢٧/ ٤٠
(4) لقمان: ٣١/ ١٢.
(5) الزمر: ٣٩/ ٧
(6) انظر: فتح القدير: للشوكانى: ٤/ ٤٥٤.

وقد بيّن لنا سبحانه أنه خلق الإنسان وزوده بما يعينه على اختيار ما يريده لنفسه من خير أو شر، حتى يكون الثواب والعقاب، والإنسان لا يخرج عن واحد من اثنين، فإما أن يشكر، وإما أن يكفر. يقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾[1].

ثم ذكرت سورة الإنسان ما أعد الله لمن شكر، وما أعد لمن كفر، فسبحانه من إله عادل.

ولهذا كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فى مقدمة الشاكرين، ولم لا، وهم دعاة التوحيد وهداة الإنسانية، وحداتها إلى الخير؟ يقول ـ تعالى ـ فى نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[2].

وقال فى «إبراهيم» ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾[3].

وهكذا كان رسولنا «محمد» ﷺ، لأنه مأمور بانتهاج نهج الأنبياء، وذلك حيث قال له ربه: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[4]. وقال له: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[5]. وقال له: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾[6]. ولذلك كان لا يفتر عن عبادة ربه، ولا يهدأ من الليل إلا قليلا.

---

(١) الإنسان: ٧٦/ ٢، ٣.
(٢) الإسراء: ١٧/ ٣.
(٣) النحل: ١٦/ ١٢٠، ١٢١.
(٤) الأنعام: ٦/ ٩٠.
(٥) النحل: ١٦/ ١٢٣.
(٦) الأنعام: ٦/ ١٦١-١٦٣.

كما جـاء في الحديث الذى رواه البخارى ومسـلم عن «عائشة» - رضى الله عنها - قالت: **كان النبى ﷺ يقوم الليـل حتى تتفطر[1] قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول اللـه وقد غفر لك مـا تقدم من ذنبك وما تأخـر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟»**.

ولقـد روى عطاء أنه قـال: دخلت على «عـائشـة» - رضى الله عنهـا - فقلت: أخبرينا بأعجب مـا رأيت من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: **«وأى شيء لم يكن عجبًا؟ أتانى ليلة فدخل معى فراشى حتى مس جلده جلدى ثم قال: يا ابنة أبى بكر، ذرينى أتعبد لربى، فقلت: إنى أحب قربك، ولكنى أوثر هواك، فقـام إلى قربة ماء فتـوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قـام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكى حتى جـاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله: مـا يبكيك، وقد غـفر الله لك مـا تقدم من ذنبك ومـا تأخر؟ قـال: أفلا أكون عـبداً شكوراً؟ ولمَ لا أفعل وقـد أنزل الله - تعالى - علىَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾»[2]**.

لقد كان ﷺ آية فى ذكر الله وحمده وشكـره، لقد حول الحياة كلها إلى

---

(١) تتفطر: أى تتشقق.

(٢) انظر: تفسير ابن كـثير: جـ١/ ٤٤٠، ٤٤١، فقد ساق الحديث من عدة طرق، وبألفـاظ مختلفة، ومعان مـتقاربة، والآيتان رقم ١٩٠، ١٩١ من سورة آل عـمران، يقول العراقى فى تخـريجه لهذا الحديث فى "الإحياء" جـ٤ ص٨١، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب "أخلاق الرسول ﷺ". ومن طريقه ابن الجوزى فى "الوفا"، وفيه أبو جناب واسمه يحـيى بن أبى حبة، ضعفه الجمهور، ورواه ابن حبان فى صحيحه من رواية عـبدالملك بن أبى سلمان عن عطاء دون قولها وأى أمره لم يكن عجبًا، وهو عند مسلم من رواية عروة عن «عائشة» مقتصراً على آخر الحديث. اهـ.

ترنيمة عذبة، وأنشودة رائعة تـثنى على الله بما هو أهله، وتعترف بما له من صفات الجلال والكمال.

ومن يقرأ كتب الأذكار، ويطلع على ما كان هذا النبى الكريم ﷺ يدعو به ربه، ينتقل مع هذه الأدعية محلقًا فى عالم من السعادة والسكينة والرضا، يستولى على كـيانه كله، إنه ﷺ كان يمثل العـبودية بكل ما فيهـا من معانى العبودية، ولا غرو فـهو أول المسلمين، وهو أول العابدين، وكثـيرًا ما كان يدعو ربه فيقـول: «رب اجعلنى لك شكارًا لك، ذكارًا لك». وهو الذى كان يقول ويعلم أصحابه أن يقولوا: اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عـبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانـًا صادقًا، وأسـألك من خيـر ما تعلم، وأعـوذ بك من شر مـا تعلم، وأستغفرك مما تعلم وأنت علام الغيوب.

ولِمَ لا يكون الرسول الكريم ﷺ شاكرًا لربه، وقـد كان قرآنًا يمشى فى دنيا الناس؟ وقـد قالت السيدة «عـائشة» ـ رضى الله عنها ـ وقـد سئلت عن خُلُقه فقالت: كان خُلُقَه القرآنُ، وفى القرآن يقول له ربه: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[1].

والآيات فى كتـاب الله كثـيرة تحضُّ على الشكر وتدعـو له، وتبين أن أصحابه هم القلة والصـفوة الممتازة من البشر، وهى حـين تحض عليه إنما تذكر بنعم الله التى أسداها، وأفضـاله ومننه التى منحها وأعطاها، ومن ذلك ما شـرعه فى هذا الدين من عـبادات ومـعاملات، تقـوم على اليسـر وعدم الحرج، ولو كلفنا بمـا يشق علينا لما استطعنا، ولوقعنا فـى الحرج والضيق والإثم. قال ـ تعالى ـ: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

(١) الزمر: ٣٩/٦٦.

اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾[١].

وقد استجاب الله هذا الدعاء وأتى دينه يسراً: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢].

وأنت ترى فريضة الصلاة، ومـا يسبقها من طهارة، ومـا شرعه الله فى أدائها، وأنها خمس صلوات فى اليوم والليلة، وهذا أمر ميسر لا يعجز أحد عن أدائه، وهى بذلك نعمة تستحق الشكر، ولذلك يقول سبحانه بعد أن أمر بالوضوء وغيره من ألوان الطهارة التى يدخل بها المسلم للصلاة، قال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣].

وترى كذلك فريضة الصيام، وكيف كانت شهراً واحداً فى العام كله، وأن هذا الشهر مفروض صيامه على القادرين على الصيام، وإلا فعدة من أيام أخر، ومن لا يستطيع الصيام بحال من الأحوال، عليه فدية طعام مسكين عن كل يوم على ما هو مفصل ومعلوم فى أحكام الصيام، ألا ترى أن هذه نعمة تستحق الشكر؟

ولذلك قال ـ تعالى ـ فى آيات الصيام: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤]. وفتح أبوابه لعباده، رحمة منه وفضلا وكرمًا فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾[٥].

(١) البقرة: ٢/٢٨٦.
(٢) الحج: ٢٢/٧٨.
(٣) المائدة: ٥/٦.
(٤) البقرة: ٢/١٨٥.
(٥) البقرة: ٢/١٨٦.

والحج مرة واحدة فى العمر كله، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، والحاكم، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: **«أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج، فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفى كل عام؟ فقال: لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة، فمن زاد فهو تطوع»**.

وعند ابن ماجه عن أنس قالوا: يا رسول الله، الحج فى كل عام؟ قال: **«لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لم تقوموا بها، ولو لم تقوموا بها لعذبتم»**.

فما أرحم إلهنا بنا، وما أجدر أن نشكره على هذا الفضل العظيم، ومثل ذلك ما نراه فى الزكاة وغيرها من شرائع الإسلام فى كل أمر، وفى كل حال، وهذه أياديه وآلاؤه ظاهرة واضحة تستحق الشكر، والقرآن يلفت إليها الأنظار، لنفقه ونعتبر ونشكر صاحب النعم على ما أنعم.

إنك تقرأ فى سورة النحل بعض نعم الله على الإنسان، إذ خلقه على هذا النحو العجيب، وخلق له كل ما يعينه على أداء مهمته، فخلق له الأنعام، وما فيها من منافع، وأنزل له من السماء ماء، وذكر ما يترتب على إنزال الماء من خير وبركات، وسخر له الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، وما أوجد فى هذه الأرض من الأشياء العجيبة من الحيوانات، والنباتات، والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها وأصنافها، وهذه البحار وما فيها وما يترتب على وجودها من تيسير لحياة الإنسان، وهذه الجبال وتلك الأنهار، وهذه السبل كلها مسخرة للإنسان، وكلها من نعم الله العظيمة، وكل نعمة منها تستحق الشكر،

ولذلك عقّب على هذه النعم فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾(١).

وفي سورة إبراهيم بعد أن ذكر ما ذكر من نعمه قال: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾(٢).

وفي لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٣).

وفي النحل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾(٤).

وعلى هذا، فنعم الله على الإنسان لا يحصيها العد، ولا يحيط بها الحصر، وكم لله من نعم على الإنسان؟ لو أراد أن يقف أمام نعمة الصحة والعافية، وما أكرمه الله به من سمع وبصر وأعضاء، لأعجزه ما في ذلك من آلاء الله وفضله، هذا فضلا عن نعم الله على الإنسان بالإيمان والخلق الحسن والمال والجاه والأهل، والأمان، والتوفيق، والتأييد، إلى غير ذلك مما لا نستطيع حصره وعده، وإن ذهبت نعمة فقد بقيت نعم.

وقد شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصيرة، وأظهر شدة اغتمامه بذلك، فقال له: أيسُرُّك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسُرُّك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم، قال: لا، قال: أيسُرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفًا؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف؟ قال: لا، قال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفًا؟(٥).

(١) النحل: ١٦/١٨.
(٢) إبراهيم: ١٤/ ٣٢-٣٤..
(٣) لقمان: ٣١/ ٢٠.
(٤) النحل: ١٦/ ٥٣، ٥٤.
(٥) انظر: إحياء علوم الدين: للغزالي ٤/ ١٢٤.

وانظر إلى مـا كان من أمـر ابن السـماك مع هارون الرشـيـد: الخليفـة العباسى، إذ وعظ ابـن السماك هارون عظة، فبكى، ثم دعـا بماء فى قدح، فقـال: يا أمير المـؤمنين، لو مُنِعْتَ هذه الشربة إلا بالدنيـا وما فيـها؟ أكنت تفديها بهـا؟ قال: نعم، قال: فاشرب ريّا، بارك الله فيك، فلـما شرب قال له: يا أمير المؤمنين، أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيهـا، أكنت تفتدى ذلك؟ قال: نعم، قـال: فما تصنع بشىء شربة مـاء خير منه؟؟

ولذلك كان رسـول الله ﷺ كثيراً ما يدعـو بدوام العفو والعافـية ويعلّم أصحابه ذلك، فقد روى مسلم عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه أن رجلا أتى النبى ﷺ، فقال: **«يا رسول الـله، كيف أقـول حين أسأل ربـى؟ قال: قل: اللهم اغفـر لى وارحمنى، وعافنـى، وارزقنى، ويجمع أصابعـه إلا الإبهام - إشارة إلى هذه الدعوات الأربع - فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك»**.

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال النبى ﷺ: **«يا عباس، يا عم النبى ﷺ، أكثر من الدعاء بالعافية»**[1].

ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبـر، فقال: لقد سألت البلاء، فاسأل الله العـافية، وفى الصحـيحين: تعوذوا بالله من جـهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

فالعافيـة نعمة من نعم الله الجليلة، ولو أفنى العبد عـمره فى شكر مثل هذه النعمة أو غـيرها، لما وفّى ربه حقه، وإن كـان الكريم الحليم قد رضى من عبـده أن يحمده، وأن يعـترف له بأياديه، وأن يؤدى مـا أوجب عليه من حق العـبودية له، وقد ذكـر ابن أبى الدنيا عـن أبى عمران الحـوفى عن أبى

(١) رواه ابن أبى الدنيا، والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

الخلد قال: قال موسى: يارب كيف لى أن أشكرك، وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لا يجازى بها عملى كله؟ قال: فأتاه الوحى: يا موسى الآن شكرتنى.

وفى مسند الإمام أحمد أن نبى الله «داود» ـ عليه السلام ـ قال: يارب كيف أطيق شكرك وأنت الذى تنعم علىَّ ثم ترزقنى على النعمة الشكر، ثم تزيدنى نعمة بعد نعمة، فالنعم منك، والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟ قال: الآن عرفتنى يا داود»، وما ذلك لأن الاعتراف بالعجز عن الشكر شكر.

وقد كان سلفنا الصالح ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ مثالا حيًا فى شكر نعم الله عليهم، فهذا هو الإمام العابد الزاهد الحسن البصرى ـ رضوان الله تعالى عليه ـ كان إذا ابتدأ حديثه قال: "الحمد لله ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كَبَتَّ عدونا وبسطت رزقنا، وأظهرت أمننا، وجمعت فرقتنا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً، ولك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا فى قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامة، أو حى أو ميت، أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت".

وما أصدقه من دعاء يبدو فيه الإخلاص والحب والثناء على الله بما هو أهله، وإنما تعلم الحسن وأمثاله من هدى النبى الكريم ﷺ، فهذا سهيل بن أبى صالح يروى عن أبيه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال «دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبى ﷺ، فانطلقنا معه، فلما طَعِمَ وغسل يده قال: **«الحمد لله الذى أطعم من الطعام وسقى من الشراب وكسا من العرى،**

وهدى من الضلالة، وبصَّر من العمى، وفضَّل على كثير من خلقه تفضيلا، الحمد لله رب العالمين».

ومن دعائه ﷺ قوله إذا ما أكل: «الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وهدانى وكل بلاء حسن أبلانى، الحمد لله الرزاق ذى القوة المتين، اللهم لا تنزع منا صالحًا أعطيتنا ولا صالحًا رزقتنا واجعلنا من الشاكرين». ومن دعائه أيضًا: «الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوَّغه وجعل له مخرجًا».

وقد كان على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال: يالها من نعمة لو يعلم العباد قدرها.

ولكن من الذى يدرك هذه النعمة ويقوم بشكرها؟ إنهم أصحاب البصائر المنيرة والقلوب العامرة والعقول المهتدية بهدى الله، وهؤلاء قلة وهذا شأن كل أمر جليل ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[1]. وهذا هو مقام الإيمان والعمل الصالح.

وفى مقام الشكر يقول سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2].

لذلك أعظم لهم الأجر فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[3].

ونجى الله لوطًا وقال: ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾[4]. ووعد الشاكرين بالمزيد فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[5]، ومن شكر الله أن تشكر من أسدى إليك معروفًا، فإنه يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾[6].

---

(١) ص: ٣٨/ ٢٤.
(٢) سبأ: ٣٤/ ١٣
(٣) آل عمران: ٣/ ١٤٥.
(٤) القمر: ٥٤/ ٣٥.
(٥) إبراهيم: ١٤/ ٧.
(٦) الرحمن: ٥٥/ ٦٠.

ويقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[1]. وفى مقدمة من يجب شكرهم الوالدان، فإن شكرهم يأتى بعد شكر الله - تعالى -، ولتقرأ فى ذلك قوله عز من قائل: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا علىٰ وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴿١٤﴾﴾[2].

وقد جاء فى السنة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[3]. وعن جابر عن النبى ﷺ قال: «من أعطى عطاء فوجد فليجز به، ومن لم يجد فليثن فإن من أثنى فقد شكر ومن كتم فقد كفر»[4].

فاللهم اجعلنا لك يا ربنا من الشاكرين، وأعنّا على ذكرك وشكرك وطاعتك وحسن عبادتك.

---

(١) النساء: ٨٦/٤.

(٢) لقمان: ١٤/٣١.

(٣) رواه الترمذى فى البر والصلة، باب: ما جاء فى الشكر لمن أحسن إليك، وإسناده صحيح، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد الحديث ٢١٥، الجزء الأول، وأخرجه أبو داود فى الأدب. والترمذى فى البر، وأحمد فى المسند.

الفصل السادس

إن الله يحب المقسطين

١ـ العدل فى شموله وضوابطه.

٢ـ الوالى العادل، واجباته، وما أعدَّ الله له من ثواب.

إن الله يحب المقسطين

لقد أخبرنا المولى فى أكثر من آية بأنه يحب المقسطين، فمن هم المقسطون؟ ولماذا أحبهم ربهم؟ يقول أهل اللغة: القسوط الجور والعدول عن الحق، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾[1]، أى الجائرون المنحرفون عن الحق،كانوا حطبًا ووقودًا لجهنم.

أما القسط فهو العدل، تقول: أقسط الرجل فهو مقسط، بمعنى أنه أزال الجور والظلم، ومن فعل ذلك فهو العادل الذى يحبه ربه كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إن الله يحب المقسطين﴾. والقسطاس هو الميزان، والميزان: آلة الوزن التى يباع بها ويشترى، والعدل فيها عنوان الإسلام الصحيح، فإن ذلك من وصايا القرآن فى سورة الإسراء حيث يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾﴾[2].

وقد قال شعيب لقومه: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾[3]. وتوعد الله من بخس كيله وميزانه بالوعيد الشديد، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾[4].

وقد جعل الله الميزان وسيلة لتحقيق العدالة بين الناس، وأنزله مع كتبه المنزلة، فأمر به أنبياءه ورسله. قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[5].

---

(١) الجن: ٧٢/ ١٥.
(٢) الإسراء: ١٧/ ٣٥.
(٣) الشعراء: ٢٦/ ١٨١ـ١٨٣.
(٤) المطففين: ٨٣/ ١ـ٦.
(٥) الحديد: ٥٧/ ٢٥.

فبالتحاكم إلى شريعة الله، وبإعطاء الحقوق لأصحابها وفق هدى الله، تقوم حياة الناس على العدل، وبالعدل تتحقق الحياة المستقرة الكريمة بين الناس، وكما أنزل الله الكتاب والميزان أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، فإن الحق لابد له من قوة تحميه من أهل الباطل. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(1). ولو فقه المسلمون الآن ما تهدف إليه هذه الآية الكريمة كما فقهها سلفنا الصالح لعزُّوا وسادوا فى عالم لا يعرف غير لغة القوة، ومثل هذا نجده فى سورة الشورى، إذ بعد أن أمر الله رسوله ﷺ بما أمره به فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾(2). قال ـ تعالى ـ: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾(3).

فبالكتاب والميزان تتحقق العدالة فى أبهى صورها، ولننظر إلى تلك الصلة الوثيقة بين هذه المعانى التى انتظمها قول الله ـ تعالى ـ: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾(4)، لندرك أن تعليم القرآن، وخلق الإنسان، ووضع الميزان نظامًا لحياة هذا الإنسان مظاهر رحمة الله الرحمن، وأن الانسان الذى حرم نعمة القرآن ولم يعمل به، والذى طغى وبغى وأكل حقوق الآخرين حرم كذلك من رحمة الله وفضله، فعاش معيشة ضنكًا وسيحشر يوم القيامة

(1) البقرة: ٢/٢٥١.
(2) الشورى: ٤٢/١٥.
(3) الشورى: ٤٢/١٧.
(4) الرحمن: ٥٥/١ـ٩.

أعمى وكما قال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾(١).

وفى يوم القيامة ينصب الميزان لتوضع فيه الأعمال كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾(٢). وكما قال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾(٣).

وعن سلمان الفارسي ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: **«يوضع الميزان يوم القيامة، فلو ذرى فيه السموات والأرض لوسعت ـ أى لو وضعت فيه السموات والأرض لوسعهما ـ فتقول الملائكة: يارب لمن يزن هذا؟ فيقول الله: لمن شئت من خلقي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»**(٤).

ومع أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، إلا أنهم يشعرون بالتقصير ويقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، فكيف يكون حال العبد القاصر المقصر المخطئ المذنب؟ إنه كما قال الله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾(٥).

---

(١) طه: ٣٠/١٢٥، ١٢٦. (٢) الأنبياء: ٢٧/٤٧.
(٣) المؤمنون: ٢٣/١٠٢ـ١٠٤.
(٤) رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.
(٥) القارعة: ١٠١/٦ـ١١.

١- العدل في شموله وضوابطه

العدل: أمل كل مظلوم، وحلم كل مستضعف، وواحة كل مكروب، به أتت رسالات السماء، وبه نادى المصلحون فى كل زمان ومكان، وقد جعله ديننا العظيم حقيقة واقعة فـى حياة بنى الإنسان، لا شعارات ترفع، وكلمات تقال، إنه يشمل جوانب الحياة، فهذه الخلافات التى تحدث بين طائفتين من المؤمنين، ربما أدت إلى التقاتل وإراقة الدماء، لذا يجب على الأمة المسلمة ألا تقف مكتوفة اليدين، فإن فساد ذات البين - كما قال رسول الله ﷺ - هى الحالقة التى تحلق الدين لا تحلق الشعر، وعلى جماعة المسلمين أن تتدخل لحل النزاع، وحسم الخلاف وفق هدى الله وهدى رسولـه، فإن استمرت واحدة من الطائفتين على بغيها وعدوانها، ولم ترض بحكم الله ورسوله، وقفت الأمة كلها فى وجهها حتى تردها عن غيها وبغيها. قال - تعالى -: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾**[1].

ولقد روى الإمام البخارى عن أبى بكرة - رضى الله عنه - قال: إن رسول الله ﷺ خطب يومًا ومعه على المنبر الحسن بن على - رضى الله عنهما - فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس مرة أخرى ويقول: «**إن ابنى هذا سيد ولعل الله - تعالى - أن يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين**» فكان كما قال ﷺ وأصلح به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة، وسمى العام الذى تولى فيه معاوية عام الجماعة، لاجتماع كلمة المسلمين فيه، وزوال ما كان بينهم من

(١) الحجرات: ٤٩/٩، ١٠.

خلافات. وليت أمتنا تعى هذا الدرس فتجتمع كلمتها على الحق وتكبت أهل الباطل، وتحقق العدل كما أمر الله، لتقف صفًا واحدًا وقوة واحدة ترد عدوان المعتدين وتحبط مكر الماكرين وكيد الكائدين.

ومن عدالة الإسلام ما جعله من بِـرٍّ وصلة وعدل يؤديه أهل الإيمان لغيرهم ممن لا يدينون بدين الإسلام، وفرق بين البر والعدل من جهة، وموالاة أهل الكفر ونصرتهم ومحبتهم من جهة أخرى، فالأول لا حرج فيه، والثاني طعن فى الدين وخيانة لله ورسوله والمؤمنين، يقول ـ تعالى ـ: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

وقد روى الإمام أحمد عن «أسماء بنت أبى بكر» ـ رضى الله عنها ـ قالت: **«قدمت أمى وهي مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا ـ أى بعد صلح الحديبية ـ فأتيت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها؟ قال: نعم صلى أمك»**. فما أعظمه من دين وما أكرم وأرحم هذا الرسول الرحيم.

ولننظر إلى ما أمر به الرسول ﷺ من العدل مع صنف من الناس لا يعرف لـلعدل ولا للحق سبيلا، ذلكم هم اليهود أعداء الله وأعداء رسله، يقول ربنا فيهم ـ بعد ذكر بعض صفاتهم ـ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن

(١) الممتحنة: ٦٠/٨، ٩.

تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1]، فمع اتصافهم بهذه الصفات القبيحة وانحرافهم عن هدى الله، وحربهم للإسلام ورسول الإسلام، إذا ما تحاكموا للمسلمين لابد من تحقيق العدالة لهم، ولو كان الطرف الآخر من المسلمين، بل ولو كان خليفة المسلمين نفسه:

روى ابن كثير فى "البداية والنهاية" قصة على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ مع رجل من النصارى أخذ درع على دون أن يعلم، فوجده عنده، فأقبل بالنصرانى إلى شريح قاضيه يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه وقال: إنها درعى ولم أبع، ولم أهب، فسأل شريح النصرانى: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال النصرانى: ما الدرع إلا درعى، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب، فالتفت شريح إلى على يسأله: يا أمير المؤمنين: هل من بينة؟ فضحك على وقال: أصاب شريح ما لى بيِّنة، فقضى بالدرع للنصرانى، فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه إلا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يديننى إلى قاضيه فيحكم عليه؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الدرع ـ والله ـ درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق، فقال على: أما إذا أسلمت فهى لك[2].

إن عداءنا وبغضنا لمن عادى الله ورسوله وكاد للمسلمين، لا يحول بيننا وبين العدل، انطلاقًا من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا

---

(١) المائدة: ٥/ ٤١، ٤٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ٨/ ٣ـ٥.

قوَّامينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[1]. أى لا يحملنكم بغضكم لقوم على ظلمهم وعدم العدل معهم. يقول الإمام القرطبى ـ عليه رحمة الله ـ: "دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزة، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمُّونا بذلك فليس لنا أن نقتلهم قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم"[2].

إن العدل فى الإسلام لا يميل مع العواطف، ولا يلتوى مع الهوى، ولا يجرفه تيار البغض والكراهية والعداوة، يقول ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴿١٣٥﴾﴾[3].

فمن مقتضيات الإيمان أن يكون أهله قوامين بالقسط، أى بالعدل، شهداء لله يؤدون الشهادة كما أمر الله، خالصة لوجهه، لا محاباة فيها ولا مجاملة لأحد ولو كانت هذه الشهادة على نفس المؤمن أو أقرب الأقرباء إليه من والد وولد، وهى شهادة لا تميل مع الرغبة أو الرهبة، فلا تجامل غنيًا طمعًا فى ماله وخوفًا من سطوته وسلطانه، ولا فقيراً لفقره خوفًا عليه ورحمة به، فالله أولى بهما، ومن مال مع هذا أو ذاك فإنما يميل مع الهوى، والهوى والعدل ضدان لا يجتمعان، وعلى من فعل ذلك أن يدرك أولا أن

(١) المائدة: ٥/٨. (٢) تفسير القرطبى، ص٢١٠٧.
(٣) النساء: ٤/١٣٥.

الله مطّلع عليه وسوف يحاسبه على ما أضمر من سوء، وما أضاع من حقوق العباد، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[1].

٢ـ الوالى العادل: واجباته، وما أعد الله له من ثواب

إن العدل هو الذى قامت به السموات والأرض، وبدونه يفسد نظام العالم، ولهذا كان فى جملة ما أمر الله به حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[2]. وكان على كل من ولى أمرًا أن يقوم بحقه دون حيف أو ظلم، فإنه مسئول عن ذلك لا محالة، فعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كلكم راعٍ ومسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، كلكم راع ومسئول عن رعيته»** رواه البخارى ومسلم.

وروى ابن حبان فى صحيحه عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع»**، وكان الإمام العادل فى مقدمة السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، وكان من الثلاثة الذين لا ترد دعوتهم، روى الإمام أحمد والترمذى، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان فى صحيحيهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها**

---

(١) الأنعام: ٦/ ١٥٢.
(٢) النحل: ١٦/ ٩٠.

أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين» .

وكان من الثلاثة الذين هم من أهل الجنة، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم عن عياض - رضى اللـه عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق، ورجل رحيم القلب لكل ذى قربى مسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»** .

وقد جاءت البشارة فى يوم الفصل لكل من عدل فى حكمه وما ولاه الله من أمر الناس فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم والنسائى عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا»** .

وأهل الإيمان يدركون عِظَم مسئولية الإمام وإمارة الناس، ولهذا كانوا يفرون منها، ولا يرغبون فيها، فقد روى الإمام مسلم عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال: **«قلت: يا رسول الله ألا تستعملنى - أى تجعلنى لك عاملا -؟ قال: فضرب بيديه على منكبى ثم قال: يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»** .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»**، ففيها الجاه والمال واللذات الحسية، ولكن عاقبتها وخيمة، والحساب فيها عسير، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة.

وعند البخارى ومسلم عن عبدالرحمن بن سمرة - رضى الله عنه - قال: قال لى رسول الله ﷺ: **«يا عبدالرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها»** .

وإذا ما كُلِّف المؤمن بالإمارة كان عليه من الواجبات والمسئوليات الكثيرة الكثير، فمن ذلك أن لا يشق على أمته، وألا يلقى بها فى المهالك، إنما عليه الرفق واللين، والبحث عن ما ييسر لهم أمور حياتهم، فقد روى مسلم والنسائى عن «عائشة» ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بيتى هذا: **اللهم من ولى من أمر أمتى شيئًا فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فارفق به»**.

وعليه أن يوفر لهم من القوت والغذاء والكساء ما يوفره لنفسه: فقد روى الإمام مسلم عن أبى عثمان قال: كتب إلينا عمر ـ رضى الله عنه ـ ونحن بأذربيجان: "يا عتبة بن فرقد إنه ليس من كدِّك ـ أى ليس هذا المال من عملك وجهدك وعرقك ـ ولا كد أبيك ولا كد أمك، فأشبع المسلمين فى رحالهم مما تشبع منه فى رحلك وإياك والتنعم، وزيٌّ أهل الشرك ولبوس الحرير".

وعلى أمير المؤمنين أن ينصح لأمته، وألا يغرر بها وألا يغشها، روى الإمامان البخارى ومسلم عن معقل بن يسار ـ رضى الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌّ رعيته إلا حرّم الله ـ تعالى ـ عليه الجنة»**، وفى رواية: **«فلم يحطها بنصحه لم يشم رائحة الجنة»**. وعند مسلم عن معقل بن يسار أيضًا عن النبى ﷺ قال: **«ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم، وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة»**.

وعلى ولى أمر المسلمين ألا يحتجب دون حاجتهم وفقرهم، إنما يفتح أبوابه ليسمع لهم ويقضى حوائجهم وإلا احتجب الله دون حاجته يوم القيامة، وفى ذلك يروى أبو داود عن عمرو بن مرة الجُهنىّ ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من ولاه الله شيئًا من أمور**

المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة»، فجعل معاوية رجلاً على حوائج المسلمين.

ويروى الإمام أحمد بإسناد حسن، وأبو يعلى عن أبى السماح الأزدى، عن ابن عم له من أصحاب النبى ﷺ أنه أتى معاوية، فدخل عليه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من ولى من أمر المسلمين ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذى الحاجة، أغلق الله ـ تبارك وتعالى ـ أبواب رحمته دون حاجته وفقره أفقر ما يكون إليها»**.

ومن العدل والإنصاف للرعية ألا يولى عليها رجلا وفيها خير منه، وإلا فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، روى الحاكم بسند صحيح عن يزيد بن أبى سفيان قال: قال لى أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ حين بعثنى إلى الشام: "يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله ﷺ : **«من ولى من أمر المسلمين شيئًا فأمّر عليهم أحدًا محاباة ـ أى لا لكفاءة فيه بل لمجرد القرابة أو الصداقة أو المحبة ـ فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلا ـ أى لا يقبل منه فرضًا ولا نفلا ـ حتى يدخله جهنم"**.

وإذا كنا نتحدث عن العدل والإمام العادل، فإنه لا يفوتنا أن نذكر وصية الإمام العابد الزاهد الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ للإمام عمر ابن عبدالعزيز ـ رضى الله عنه ـ إذ كتب إلى الحسن البصرى بعد أن تولى خلافة المسلمين يطلب منه النصح، فقال ـ رضوان الله عليه ـ: "اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع

كل ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة ـ أى يبعدها عن أماكن الهلاك ـ، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر ـ أى يحميها من أذى الحر والبرد ـ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحفىّ على ولده، يسعى لهم صغارًا، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة، البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا ووضعته كرهًا، وربته طفلا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، تفرح بعافيته وتغتم بشكايته، والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى وخازن المساكين، يربى صغيرهم ويمون كبيرهم ـ أى يوفر له المؤنة من طعام وشراب ونفقات ـ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح: تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واحتفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله، واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها، وإن الله جعل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له، ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه، يطول فيه رقادك ويفارقك أحبابك، يسلمونك فى قعره فريدا وحيداً، فتزود له ما يصحبك

يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلية، ولا تسلك بهم سبل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا - أى عهداً - ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك، لا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبائل الموت، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحى القيوم، إنى يا أمير المؤمنين - وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبل - فلم آلُكَ شفقة ونصحًا ،فأنزل كتابى عليك كالمداوى حبيبه بسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته".

وإنها لوصية جامعة جديرة بالنظر والتأمل، وهى تبين ما كان عليه علماؤنا وما كان عليه هذا الخليفة العادل - رضى الله عنه - .

ومن سار سيرته، كان جديراً بمحبة الله له ﴿إن الله يحب المقسطين﴾، وجديراً بمحبة المؤمنين، بل هو حَرِىٌّ أن نبحث عنه لنتخذه خليلا ورفيقًا فى درب الحياة.

الفصل السابع
إن الله يحب المتوكلين

١ـ لماذا نتوكل على الله؟

٢ـ مع الأنبياء والصالحين فى توكلهم على الله.

٣ـ نبينا محمد ﷺ قدوة المتوكلين على ربهم.

٤ـ الإسلام يدعو إلى العمل والتوكل.

٥ـ وقفة متأنية مع المتواكلين.

٦ـ هل من عودة إلى التوكل على الله أيها المتواكلون؟

إن الله يحب المتوكلين

١ـ لماذا نتوكل على الله؟

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[1].

فى هذه الآية الكريمة أمر الله رسوله ﷺ فيما أمره به بأن يتوكل عليه، وبين له بأنه يحب المتوكلين، حثًا على التخلق بهذا الخلق الكريم، وإذا كان الله يحب المتوكلين، فإن علينا أن نحظى بهذه المحبة، وذلك بأن نكون من هذا الصنف الكريم على الله، وعلينا كذلك أن نتعرف على هؤلاء المتوكلين حتى نعقد معهم أواصر المحبة والمؤاخاة، والمودة، والموالاة. وإذا كنا نتحدث عن التوكل على الله، فلابد أن نتساءل: ما هو التوكل؟ وما معنى التوكل على الله؟ وما هى الأسس التى أقيم عليها هذا الخلق العظيم؟ وماذا فى كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ من توجيهات وإرشادات وحث وترغيب فى هذا الباب الفسيح؟ وما هى صلة التوكل على الله بالأخذ بالأسباب؟ وماذا يمكن أن يقال لجماعة من شباب المسلمين نبتت فى هذا الزمان، وتركت مواقعها فى الجامعات وطلب العلم والمهن المختلفة من طب، وهندسة، وزراعة، وعمارة، وسمَّتْ نفسها «بجماعة المتوكلين على الله» وتركت الأخذ بأسباب الرزق، ورفضت العمل وقعدت عن الكسب، ووجدت لها أذنًا تسمع لها، فانتشرت بدعتها وضلالتها وجهالتها، مما يستحق منا وقفة متأنية بصيرة، تزيل الغشاوة عن الأعين، لعلها تبصر الطريق، وتأخذ بيد الحيارى فى متاهات الباطل، حتى يستقيموا على الجادة، والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

فالتوكل: مشتق من الوكالة، يقال: وكل أمره إلى فلان: أى فوضه إليه،

---

(١) آل عمران: ٣/١٥٩.

واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكول إليه: وكيلا، وقد تطلق كلمة الوكيل بمعنى الحفيظ، لأنه الذى يرعى الأمر ويعنى به، وقد تطلق بمعنى الرقيب المطلع، لأن من شأن الوكيل أن يراقب ما يوكل إليه، ويطلع عليه، وقد تطلق بمعنى: الناصر، لأن الوكيل يركن إليه من يكل أمره إليه، وإذا كان هذا معنى التوكل، وأنه تفويض الأمر لشخص ما، والاعتماد عليه فى القيام بهذا الأمر خير قيام، فهل يكل الإنسان أمره لجاهل لا يهتدى لطريق، ولا يعرف كيف يصل بالأمر إلى غايته؟ وهل يكل الإنسان أمره لضعيف عاجز لا يحسن القيام بما أوكل إليه؟ أو لعييٍّ، غبى، لا يكاد يبين، ولا يفصح عما يريد؟ وهل يمكن أن توكل الأمر لمن تشك فى محبته لك، وحرصه على مصلحتك، وشفقته عليك؟ إنك لا تكل أمرك لأمثال هؤلاء، إنما تكله لرجل بصير، قوى، فصيح، محب لك، وكلما كان وكيلك راسخ القدم فى هذه الصفات، كلما كان قلبك مطمئنًا إليه، واثقًا به، راضيًا عنه معتمداً عليه، وعلى قدر اجتماع هذه الصفات أو بعضها، يكون الاطمئنان إليه والثقة به.. أليس كذلك..؟؟

فإذا ما انتقلنا إلى معنى التوكل على الله فسوف يبزغ لنا ضوء الحق منيراً مشرقًا، وسوف يظهر لنا أن الإله الذى نتوكل عليه، ونركن إليه، ونفوض الأمر إليه، ونعتمد عليه، إله جمع من صفات الجلال والكمال ما يجدر بالعبد الضعيف، العاجز، القاصر، أن يسلم له القياد، وأن يثق فى حكمته وتدبيره وقوته، وقدرته ورحمته بخلقه وعباده، وحينذاك يستسلم له وهو راضى النفس، مطمئن القلب إلى أن تدبير ربه خير له من تدبيره لنفسه، وفعل الله له أعظم من فعله لنفسه، ولذا كان التوكل على الله عنوان توحيد الله، بل هو أعلى درجات هذا التوحيد، لأنه استسلام للإرادة الإلهية، وتفويض للقدرة الربانية، وتبرؤ من الحول والقوة البشرية، واعتراف نابع من

الوجدان الصادق بعجز القوى الإنسانية، ورد ذلك إلى المنزه عن النقص والعجز، المتصف بكل صفات الكمال، ولنقرأ فى ذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. وقوله فى سورة يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾[2].

فقد جعل التوكل عليه وحده شرطًا من شروط تحقيق الإيمان والإسلام، وفى مطلع سورة الأنفال فى صفات المؤمنين قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[3]. وفى ست مواضع من القرآن يقول تعالى ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ تقرأ ذلك فى موضعين من آل عمران، وفى التوبة، وإبراهيم، والمجادلة، والتغابن، فأنت ترى الراسخين فى الإيمان هم الذين يتوكلون على ربهم، فالمؤمن الموحد الكامل ـ كما يقول صاحب "المنار" ـ لا يتوكل على مخلوق مربوب لخالقه مثله بل مشهده فى المخلوقات أنها أسباب سخر الله ـ تعالى ـ بعضها لبعض، فى نظام التقدير العام الذى أقام الله به أمور العالم المختار منها وغير المختار، فكلها سواء فى الخضوع لسنته فى الأسباب والمسببات، وهى فيما وراء تسخيره إياها متساوية فى عجزها عن النفع والضر، فشأن المؤمن المتوكل فى دائرة الأسباب يطلب كل شىء عن طريق سببه خضوعًا لسنن الله ـ تعالى ـ فى نظام خلقه، وهو بذلك يطلبها من حيث أمره الله أن يطلبها أمرًا تكوينيًا قدريًا، وتشريعًا تكليفيًا، فإذا

(١) المائدة: ٥/ ٢٣ (٢) يونس: ١٠/ ٨٤ـ٨٦.
(٣) الأنفال: ٨/ ٢ـ٤.

جهل الأسباب أو عجز عنها وكل أمره فيها إلى ربه - تبارك وتعالى - داعيًا إياه أن يعلمه ما جهل بما سنه من وسائل العلم وأن يسخر له ما عجز عنه من جماد أو حيوان أو إنسان، فليس التوكل على الله إذن قولا باللسان أو عملا بالجوارح فحسب، إنما هو أولا وقبل كل شيء إيمان صادق ويقين لا يتزعزع بأن من وكل أمره إليه هو الإله الخالق القادر، الذى بقدرته وحكمته ورحمته يفرج كربه ويكشف ضره وييسر أمره، وقد جاءت الآيات تحمل هذا المعنى حيث يقول ربنا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾[1].

فقد أمر نبيه بالتوكل عليه - والأمر لرسول الله ﷺ أمر لأمته إلا ما جاء الدليل بخصوصيته للرسول ﷺ - وبيّن عز وجل الدوافع والأسباب التى تدعو أهل الإيمان إلى التوكل عليه فوصف نفسه بأنه الحى الذى لا يموت، وبأنه مطلع على أحوال الخلق لا تخفى عليه ذنوبهم، وبأنه خالق السموات والأرض، فهو الإله القوى القادر، ومن كان موصوفًا بذلك فهو الذى يجب أن يكون عليه وحده الاتكال وإليه تفويض الأمر.

ويقول فى سورة المزمل ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴿٩﴾﴾[2]. فالله سبحانه هو المالك المتصرف فى هذا الوجود لا إله إلا هو، فهو المتفرد بالربوبية والألوهية، ولهذا وجب أن تتخذه يا نبى الله وكيلا تفوض أمرك إليه. وقريب من هذا قول الله - تعالى - فى ختام سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

(١) الفرقان: ٢٥/٥٨، ٥٩.

(٢) المزمل: ٧٣/٩

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[1].

فمن كان غيب السموات والأرض له وحده، ومن كان مرجع الأمور كلها فى هذا الكون له وحده، فإنه المستحق للعبادة، والجدير بالتوكل عليه، ومن فعل غير ذلك فقد ضلَّ ضلالا بعيدًا.

ومن ذلك ما نجده فى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[2]. فالله يأمر رسوله أن يعلن لمن عانده وعاداه ولم يؤمن برسالته بأنه ﷺ يأوى إلى ركن شديد، ذلكم هو الله الذى يكفيه ما أهمه، ويرد عنه كيد عدوه، ويرشده سواء السبيل، لا إله إلا هو فهو المتفرّد بالألوهية فى هذا الوجود، لا شريك معه ولا ند له، ولا إله غيره، ولهذا فإن توكل رسول الله على هذا الإله وحده، وكيف لا يتوكل عليه وهو رب العرش العظيم؟ فهذه هى الأسباب إذن كما ذكرتها الآية الكريمة: أن الله يكفيه ولا يكفيه غيره، وأنه الإله ولا إله غيره، وأنه رب العرش العظيم.

وجميع الخلائق مربوبة لهذا الرب، ولهذا كان التوكل عليه لا على سواه، وهذا ما نراه فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[3]. فهو المالك القادر الذى يدبر أمر خلقه، ولا يدبر الأمر سواه، وهو يكفيك ولا يكفيك ما عداه.

ومثل ذلك ما جاء فى وعده الكريم للمتوكلين عليه، حيث قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[4]. ولهذا أعلن أهل الإيمان ذلك حيث قال ـ تعالى ـ فيهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ

---

(١) هود: ١١/ ١٢٣. (٢) التوبة: ٩/ ١٢٩.

(٣) النساء: ٤/ ٨١، والأحزاب: ٣٣/ ٣. (٤) الطلاق: ٦٥/ ٣.

النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾(1). وقد روى البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ . وفى رواية أخرى قال: كان آخر قول إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى فى النار: «حسبى الله ونعم الوكيل».

واعتراف القلب وإحساسه بربوبية الله وألوهيته من الأسباب التى تدعو صاحبها إلى أن يحدد وجهته وأن لا يركن فى أمره إلا لربه وإلهه، ولعل هذا ما يشير إليه قول الله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾(2).

ومثل ذلك ما فى سورة الشورى من قوله سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾(3). وهنا القدرة الإلهية تبدو واضحة فى هذا القول العظيم، وهى من دواعى التوكل على الله وحده.

ومن ذلك ما نلمحه فى قول الله - تعالى -: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(4). وفى قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾(5)

(1) آل عمران: ٣/ ١٧٣، ١٧٤.
(2) الرعد: ١٣/ ٣٠.
(3) الشورى: ٤٢/ ١٠، ١١.
(4) الأنفال: ٨، ٩.
(5) الشعراء: ٢٧/ ٢١٧-٢٢٠.

فالله عزيز لا يُغلب، حكيم فيما قضى وأمر وقدّر، مطلع على السرائر، عليم بالبواطن، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، فكيف لا يتوكل عليه المتوكلون؟ وكيف لا يحتمى بحماه المؤمنون؟ ولهذا كان رسولنا ﷺ يلهج لسانه دائمًا بإعلان هذه الحقيقة، وكان كثيرًا ما يعلم أصحابه أن يرددوها: روى البخارى ومسلم واللفظ له عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلنى، أنت الحى الذى لا تموت والجن والإنس يموتون**».

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما بأسانيد صحيحة أنه ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: «**بسم الله، توكلت على الله، اللهم إنى أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظلِمَ أو أُظلَم، أو أَجْهَل أو يُجْهَل علىَّ**».

وها هو ذا يعلم الصحابى الجليل البراء بن عازب ـ رضى الله عنهما ـ كيف يعلن استسلامه لله رب العالمين فى كلمات عِذاب تفيض إخلاصًا وتشرق نورًا، روى الشيخان عن البراء بن عازب قال: قال لى رسول الله ﷺ: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللهم أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت، فإن متَّ متَّ على الفطرة واجعلهن آخر ما تقول**». ولعلنا نذكر ما كان من أمر رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو فى غار ثور يوم الهجرة حين اجتمع المشركون على قتله ﷺ، ولما أفلت منهم ذهبوا يبحثون عنه فى كل مكان إلى أن وصلوا إلى هذا الغار. يقول أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ: نظرت إلى

أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا، فقلت يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ: **«ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»**(1).

وفي هذا يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)**﴾(2). فانظر إلى عظيم توكل رسولنا الكريم، وما كان له من تأييد وحفظ ونصر من ربه.

وهكذا شأن المتوكلين على ربهم، يحفظهم ربهم ويسدد خطاهم، ويحفظهم من شياطين الإنس والجن، وفي هذا الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ بسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت، وكفيت، ووقيت، وتنحى عنه الشيطان»**. زاد أبو داود: فيقول يعني الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدِي وكُفِي ووُقِي؟.

٢ـ مع الأنبياء والصالحين في توكلهم على الله

. إن التوكل على الله لب التوحيد وجوهره، وإن الله حين دعا عباده إلى التوكل عليه، أقام ذلك على أسس وقواعد تجعل التوكل عليه أمرًا تسلم به الفطرة المستقيمة، وإن تفويض الأمر لغيره جهالة وحماقة وغباء، لأن الخلق ضعاف قاصرو العلم، قليلو الحيلة، لا يحسنون تدبير أحوالهم هم، فكيف

(1) متفق عليه.

(2) التوبة: ٩/ ٤٠.

يدبرون أمر غيرهم؟ إنما ذلك للعليم الخبير القوى المتين القادر القاهر، الذى له ما فى السموات وما فى الأرض، ولذا فَطِن العقلاء من الناس إلى هذه الحقيقة، فسلموا الأمر لصاحب الأمر، وفوضوه إلى رب كريم عظيم، إليه يرجع الأمر كله، وفى مقدمة هؤلاء حداة الإنسانية ودعاتها من الأنبياء والمرسلين، ومن سار على دربهم فى كل زمان ومكان:

هذا «نوح» ـ عليه السلام ـ الذى لبث فى قومة ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى ربه، فما آمن معه إلا قليل، وبقيت الكثرة الغالبة من قومه تعاند الله ورسوله، فنجّاه الله ومن معه فى الفلك، وأغرق المكذبين المعاندين، وكان توكل «نوح» ـ عليه السلام ـ على ربه هو مصدر القوة التى اعتز بها، وبها نصره الله، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾[١].

إنها قوة الحق الذى يقذف الله به على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق، هى التى جعلت نبى الله «نوحًا» ـ عليه السلام ـ يتحدى هؤلاء الكفرة هذا التحدى الواضح، ويطلب منهم أن يجمعوا أمرهم، وأن يجمعوا شركاءهم من الأصنام والأوثان والأنصار، ثم ليفعلوا ما بدا لهم، لا يخاف منهم ولا يأبه بهم، لأنه معتمد على مولاه، واثق من نصره، وهكذا تنبع قوة الدعوة من قوة مصدرها وقوة حجتها، ومصدر دعوات الأنبياء الله: خالق الأرض والسماء، وحجتهم حجة دامغة، لأنها تعبير عن الحقيقة الناصعة الواضحة،

(١) يونس: ٧١، ٧٢.

ولهذا قال الله لنبيه «محمد» ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[1].

فحين أمره بالتوكل عليه، ذكر له علة هذا الأمر، وهو أنه على الحق الواضح الذى لا تعتريه شبهة، ومن كان كذلك لا يعنيه عناد أحد ولا يعتد بقوة أحد مهما عظمت، لأنها تتضاءل أمام قوة الإله القوى المتين. وما قال به «نوح» قال به «هود» ـ عليهما السلام ـ إذ بعد أن نصح قومه وأرشدهم وأقام عليهم الحجة قالوا ما قصه الله ـ تعالى ـ فى سورة هود: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾[2].

فماذا كانت العاقبة؟ نجّى الله هودًا ومن معه من المؤمنين، وأهلك المكذبين المعاندين، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾[3].

وهذا «شعيب» ـ عليه السلام ـ يبلّغ رسالة ربه، وينصح لقومه، فيسخرون منه، ويردون دعوته، ويقعدون بكل طريق يهددون ويصدون عن دين الله كل من أراد الدخول فيه: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾

(١) النمل: ٢٧/ ٧٩ـ٨١. (٢) هود: ٥٣ـ٥٦.
(٣) الحاقة: ٦٩/ ٦ـ٨.

قَد افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّه كَذبًا إنْ عُدْنَا في ملَّتكُم بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ منْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فيهَا إلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ علْمًا عَلَى اللَّه تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمنَا بالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتحينَ ﴿٨٩﴾﴾[1].

وفى سورة هود يقــول ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَني منْهُ رزْقًا حَسَنًا وَمَا أُريدُ أَنْ أُخَالفَكُمْ إلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إنْ أُريدُ إلاَّ الإصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفيقي إلاَّ باللَّه عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَإلَيْه أُنيبُ ﴿٨٨﴾﴾[2]. فماذا كانت عاقبة هذا اللجوء، وتلكم الإنابة من شعيب ومن معه إلى ربهم؟ إنها كما قال عز من قائل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ برَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَت الَّذينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا في ديَارهمْ جَاثمينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾[3].

وهذا أبو الأنبيــاء «إبراهيم» ـ علـيه الســلام ـ يعــلن براءته من الكفــر والكافرين، وعداوته هو ومن معه لهم، ويتجه فى هذا الموقف بالضراعة لله مستسلمًا له مفوضًا أمره إليه، والله ـ عز وجل ـ يذكر هذا الموقف فى سورة الممتحــنة ويدعو المؤمنين من أمة «محمــد» ﷺ أن ينهجوا هذا النهج، وأن تكون لهم فى إبراهيم والمؤمنين معه أسوة حسنة، فيقول سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبْرَاهيمَ وَالَّذينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لقَوْمهمْ إنَّا بُرَآءُ منكُمْ وَممَّا تَعْبُدُونَ من دُون اللَّه كَفَرْنَا بكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمنُوا باللَّه وَحْدَهُ إلاَّ قَوْلَ إبْرَاهيمَ لأَبيه لأَسْتَغْفرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلكُ لَكَ منَ اللَّه من شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإلَيْكَ أَنَبْنَا وَإلَيْكَ الْمَصيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فتْنَةً لِّلَّذينَ كَفَرُوا وَاغْفرْ لَنَا رَبَّنَا إنَّكَ أَنتَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ ﴿٥﴾﴾[4].

---

(١) الأعراف: ٨/٨٨، ٨٩.
(٢) هود: ١١/٨٨.
(٣) هود: ١١/ ٩٤، ٩٥.
(٤) الممتحنة: ٦٠/ ٤، ٥.

فإذا مـا انتقلنا إلى «يعقوب» ـ عـليه السلام ـ وجدناه بعـد أن أخذ على أبنائه العهـد والميثـاق ألا يفرطوا فى أخـيهم «بنيامـين» وأن يعيدوه له كـما أخذوه معهم، يعلن توكله على الله وحده، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1]. فقد رد ـ عليه السـلام ـ حكم العباد كله إلى الله وحـده، وذكر لـهم أنه متـوكل على الله وحـده، فـإن ذلك من سلوك المتـوكلين، لا يتوكلون إلا على ربـهم، وقد سبق أن ذكـرنا ما قـاله موسى لقومه، وذلك فيما قصه القرآن من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾[2]، فكان أن استجاب الله الدعاء وانتقم من الظالمين:

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾[3].

والله ـ عز وجل ـ يقص علينا ما كان بين طائفة من الرسل وأممهم، يبين لنا أن التوكل على الله منهج سلكه الأنبياء جمـيعًا، وذلك ما نقرؤه فى سورة إبراهيم حـيث بيّن سبحـانه كـيف بلّغ المرسلـون رسالة الله، وكـيف رد المـعاندون قولـهم، لا لشىء إلا لأن الرسل من البشـر، وهؤلاء لا يؤمنون لبشر مثلهم، فقال المرسلون ما ذكره الله عنهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ

(١) يوسف: ١٢/ ٦٦، ٦٧.   (٢) يونس: ١٠/ ٨٤-٨٦.
(٣) الأعراف: ٨/ ١٣٦، ١٣٧.

اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1].

٣ـ نبينا محمد ﷺ قدوة المتوكلين على ربهم

إن التوكل على الله يمثل حقيقة الإيمان، وبه تبدو مشرقة مضيئة، تنير الطريق لأصحابها في هذه الحياة، وبها يسعدون بعد هذه الحياة هناك عند ربهم، وقد رأينا كيف كان التوكل على الله شعار الأنبياء وأتباعهم، وأنهم بذلك تحصنوا بحصن منيع، ولاذوا بملاذ قوى، فحماهم ربهم من كيد عدوهم، ونصرهم وأيدهم بتوفيقه وتسديده، وهذا هو النبى الخاتم سيدنا ونبينا محمد ﷺ صاحب الرسالة العامة من أرسله ربه رحمة للعالمين، هيا لنتعلم منه ومعه روعة التسليم لله، وحلاوة التفويض لله، وعِظَم التوكل على الله فهو القائل: **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»**[2]، أى تذهب أول النهار خماصًا ـ أى ضامرة البطون من الجوع ـ، وترجع آخر النهار بطانًا ـ أى ممتلئة البطون ـ، ولقد بلغ ﷺ الغاية السامقة الباسقة، وتوكل على ربه كل التوكل، وقد رأينا ما كان عليه تفويضه وثقته بربه وهو فى غار ثور، والمشركون يحيطون بالغار وأبو بكر يقول: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فيقول له: **«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا»**، وكيف لا يكون كذلك وهو ﷺ أول العابدين وأول المسلمين، من اختاره ربه ليكون الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير، قال ـ تعالى ـ:

---

(١) إبراهيم: ١٤/ ١١، ١٢.

(٢) رواه الترمذى بسنده عن عمر ـ رضى الله عنه ـ، وقال: حديث حسن صحيح.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾[1].

وقد روى الإمام البخارى والإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال: **«أجل والله إنه لموصوف فى التورة ببعض صفته فى القرآن (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) وحرزًا للأميين فأنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا»**[2].

فالله ـ عز وجل ـ يأمر نبيه فيما يأمره به أن يدع أذى الكافرين والمنافقين، وألا يهتم بشأنهم وما يكيدون له، وأن يتوكل عليه وحده، فإن من توكل عليه كفاه ما أهمه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[3]. ولذلك يتساءل القرآن فى سورة الزمر تساؤل إنكار وتعجب فيقول: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾[4]. وذلكم العبد هو نبى الله ومصطفاه «محمد» ﷺ، وكم فى اختيار كلمة العبد هنا من معان، فإن السيد الكريم لا يضيع عبده ولا يتركه نهبًا للضياع والهوان، فما بالكم بعبد الله؟ هل يتركه الله القوى القادر لكيد الكافرين والمنافقين؟ كلا وألف كلا، ويذكر المولى سبحانه ما كان من أمر الكافرين

---

(١) الأحزاب: ٣٣/ ٤٥ـ٤٨.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٤٩٦.

(٣) النساء: ٤/ ٨١، وفى خمسة مواضع أخرى من القرآن.

(٤) الزمر: ٣٩/ ٣٦.

وما يخوِّفون به رسول الله ﷺ ويوضح لرسـوله طريقه فيقول: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[1]. وهذا تحدٍّ واضح للكافـرين والمعاندين، وثقة تامة فى الله عز وجل، وأن ما يعبدهم الكافرون وما يهددون بهم رسول الله ﷺ عاجزون لا يملكون نفعًا ولا ضـرًا، فليكن الاعتماد على من يملك ذلك وهو الله رب العالمين.

وقد روى ابن أبى حـاتم بسنده عن ابن عـباس ـ رضى الله عنهـما ـ أن رسول اللـه ﷺ قال: **«من أحب أن يكون أقـوى الناس فليتـوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليـكن بما فى يد الله ـ عـز وجل ـ أوثق منه بما فى يده، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله ـ عز وجل ـ»**.

ولننظر إلى عِظَم ثـقة رسـول الله ﷺ فى ربه ونـحن نـتلو فى سـورة التوبة قـول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾[2]. إذ نرى موقف أعداء الإسلام من المنافقين الذين أبطنوا الكفـر وأظهـروا الإسـلام، وكـيف يحـزنون إذا مـا منّ الله على الرسـول

---

(١) الزمر: ٣٩/٣٦ـ٤٠.

(٢) التوبة: ٩/ ٥٠ـ٥٢.

والمؤمنين معه بنعمة من نعمه، وكيف يفرحون إذا ما أصاب الرسول والمؤمنين الضراء والبأساء، وعِظَمُ التسليم لأمر الله هو الرد العملى على هؤلاء الخبثاء «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون» فالله ولى المؤمنين ينصرهم، ويحفظهم، ويرعاهم، ويكلؤهم، وأما الكافرون فلا مولى لهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾[1].

وهل يرضى المؤمن أن يفوض أمره لغير وليّه الذى يدبر أمره، ويمده بأسباب الرعاية والحماية؟ ولذا حصروا توكلهم عليه فقالوا: وعلى الله فليتوكل المؤمنون، وكان هذا التوكل زادًا لهم أعانهم على مشقات الطريق حين حملوا أرواحهم على أكفهم، وانطلقوا برسالة ربهم يبلغونها للعالمين، فلم يبالوا موتًا ولا تعبًا، لأنهم إن ماتوا تحت رايات الجهاد ماتوا شهداء، وإن عاشوا عاشوا كرماء، فهم فى الحالتين رابحون: ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾: شهادة فى سبيل الله، أو نصر عزيز مؤزر، إنها الثقة فى الله، ورد الأمر إليه، والتفويض الكامل له، هى التى أكسبت هؤلاء المؤمنين القوة التى خاضوا بها غمار الحياة، ولا عجب فى ذلك فإنهم تعلموا من رسولهم الكريم ﷺ كيف يتبرأون من حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته: روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال له: «**قل لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة**».

وروى الإمام أحمد، والنسائى، وابن حبان، والحاكم عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**استكثروا من الباقيات**

---

(١) محمد: ١١/٤٧.

الصالحات، قيل وما هن يا رسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله». وروى الحاكم بسند صحيح عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع النبى ﷺ يقول: **«من قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله،والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم: قال الله: أسلم عبدى واستسلم ـ أى انقاد لى وأطاعنى وفوّض أمره إلىّ ـ فلن أكله لغيرى»**.

وليس معنى استسلام العبد لله ترك العمل والقعود عن طلب الرزق، وانتظار أن يسوق الله له طعامه وشرابه، وأن ينصره على عدوه، وأن يؤيده ويسدده مع ما هو فيه من كسل وخنوع وقعود، فإن ذلك جهل بحقيقة هذا الدين وعدم إدراك لما تعنيه: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم"، وما يمليه التوكل الحق على الله، إذ إن هذا إنما يكون قبل البدء فى العمل حيث يعجز الإنسان عن اختيار أفضل الأعمال التى يؤديها، فيستخير ربه ليختار له ما فيه صلاح أمره فى دينه ودنياه: **﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**[1].

ويكون حين يأخذ العامل فى العمل فيحتاج إلى توفيق الله وتأييده:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ويكون بعد الفراغ من العمل بالرضا عن النتائج، والتسليم بما قدر الله من الرزق وما ساق من الخير، والشكر لله على ما أسدى وما يسّر.

(١) البقرة: ٢/٢١٦.

٤ـ الإسلام يدعو إلى العمل ويرفض التواكل

ما صلة التوكل بالعمل وطلب الرزق والسعى الدؤوب من أجل حياة أفضل، هل يتعارض ذلك مع التوكل على الله؟ هناك حملة مغرضة تتهم الإسلام بأنه سبب تأخر المسلمين وهوانهم وضعفهم وعجزهم عن رد كيد عدوهم، وذلك لما فيه من الدعوى إلى التوكل على الله والإيمان بقدره وتسليم الأمر له، ومما يدعونا إلى هذه الوقفة كذلك ما نبت من فكر دخيل سيطر على بعض شبابنا ودعاهم إلى القعود وترك ما هم فيه من طلب للعلم، وضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله، وادعى هؤلاء القاعدون أنهم المتوكلون على الله، وقالوا: نحن لا نتعب أنفسنا فى الأعمال ولا نبذل جهداً للحصول على قوتنا وقوت من نعول، فالله قد تكفل بذلك لخلقه وقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

وقد انتشرت بدعة هؤلاء وأصبح لها أنصار وأتباع، سموا أنفسهم بجماعة المتوكلين يقصدون: المتوكلين على الله، وهذا فهم معكوس لآيات الكتاب العظيم ولسنة رسولنا الكريم ولدين الله الذى جاء يصلح ما أفسد الناس فى كل زمان ومكان، ولسيرة سلف هذه الأمة الصالح، وما كانوا عليه من جهاد وجَلَد ودأب حتى عمّروا أرض الله بالحق والعدل والخير والحب والسلام.

أما الفريق الأول من أعداء الإسلام، الذين رأوا حال المسلمين فى أيامنا تلك، وما هم عليه من ضعف وفرقة وتأخر فى شتى نواحى الحياة، فردوا ذلك إلى دين الإسلام وما فيه من دعوة لأتباعه لأن يفوضوا ويكلوا أمرهم

(١) الذاريات: ٥١/ ٢٢، ٢٣.

إلى الله، فهذا الذى قالوه جهل بهذا الدين، ومغالطة مكشوفة، لأنهم يعلمون أن الإسلام هو الذى نقل الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها من الضعة إلى الرفعة، ومن الذلة إلى العزة، ومن الدعة والكسل إلى النشاط والعمل، وكانت عقيدة المؤمنين فى تفويض الأمر لخالقهم والإيمان بما قدر لهم ربهم من أقوى الأسباب التى جعلتهم يستهينون بالموت فى سبيل نصرة الحق، ويضربون فى الأرض لرفع كلمة الله، ويعملون فى همة ونشاط من أجل توفير الحياة الكريمة لهم ولمن يعولون، ولأمة الإسلام، وكان النشاط الاقتصادى والتجارى والزراعى قد بلغ الغاية التى لا تدرك فى ظل خلفاء المسلمين، وكان هذا النشاط حركة لا تهدأ ولكنها موجهة باسم الله فى كل مرحلة من مراحلها، وكان شعار المؤمنين فى كل لحظة: باسم الله توكلنا على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وإن النظرة العابرة لمجمل نصوص الكتاب والسنة ترد على هؤلاء الحمقى المغرضين، فإن كتاب الله وسنة رسوله يدعوان إلى العمل والجد والسعى فى تحصيل الرزق، وليس فى ذلك تعارض ولا تناقض بين الدعوى إلى العمل والدعوى إلى التوكل على الله، ولعلنا ونحن نستعرض بعض ما جاء فى هذا الباب نأخذ بيد شبابنا الحائر الذى فهم التوكل على الله على غير ما جاء به هذا الدين العظيم، فتواكل ولم يتوكل، وهذه الظاهرة ليست بالأمر الجديد على المسلمين، فقد تكررت فى فترات من تاريخ المسلمين، وواجهها العلماء العاملون بالإنكار الشديد حتى ردوا القافلة الشاردة إلى طريقها الصحيح.

وأول من صحّح هذا المفهوم الخاطئ لمعنى التوكل هو النبى ﷺ حيث بيّن لأصحابه حال الطيور فى طلبها لرزقها وقال: **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»**[1]. فلم

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث عمر، وقال الترمذى: حسن صحيح.

يأتها رزقهـا وهى فى أعشاشهـا، إنما انطلقت تبحث عنه فى الصبـاح الباكر حتى وجدته وأكلت وشبعت وعادت آخر النهار وهى ممتلئة البطون، وهكذا يجب أن يكون الإنسان، عليه أن يتحرك وأن يبـذل الجهد ليحصل على قوته وقوت عـياله، ولا يتنافى ذلك مع توكله على الله، وأفضل الكسب مـا كان من عـمل اليد، فـإن سؤال الـناس لا يكون إلا فى حالات الضـرورة: روى البخارى وغـيره عن المقدام بن مـعد يكرب ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «ما أكل أحـد طعامًا قط خيـرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله «داود» ـ عليه السلام ـ كـان يأكل من عمل يده»، وروى أبو داود واللفظ له، والبيهقى وغيرهما عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا من الأنصار أتى النبى ﷺ فسأله: ـ أى سأله مالا وطعامًـا ـ فقال: أما فى بيتك شيء؟ قال: بلى، حلس ـ أى كساء غليظ ـ نلبس بعـضه، ونبسط بعضه وقعب نشرب فـيه الماء، قال: ائتنى بهـما، فأتاه بـهما، فـأخذهمـا رسول الله ﷺ بيـده، وقال: من يشـترى هذين، قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال رسول الله ﷺ: من يزد على درهم ـ مرتيـن أو ثلاثا ـ، قال رجل: أنا آخـذهما بدرهمين، فأعطاهمـا إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال: اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قـدومًا فأتنى به، فأتاه به فشد فيـه رسول الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال: اذهب فاحتطب وبع ـ أى اجمع الحطب وبعه ـ ولا أرينك خمسة عشر يومًا، ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشـترى ببعضها ثوبًا، وببعضها طعـامًا فـقال رسـول الله ﷺ: هذا خيـر لك من أن تجيء المـسألة نكتـة فى وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاث: لذى فقر مدقع ـ أى فقر شديد لا يستطيع صاحبـه العمل والكسب ـ أو لذى غرم مفظع ـ وهو الذى نزلت به حاجة لتحمله غرمًا شديدًا ـ أو لذى دم موجع ـ وهو من يتحمل دية عن قريبه أو غيره يدفعها لأولياء القتيل حقنًا للدماء ـ».

وهكذا يعلم الرسول أمته كيف يعمل أبناؤها وكيف لا يلجأون للسؤال، وأن العمل هو الطريق الصحيح للعزة والكرامة، فاليد العليا كما يقول ﷺ خير من اليد السفلى، روى الإمام مسلم عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك، ولا تلام علي كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلي**» إلى غير ذلك من الإرشادات النبوية التى تدعو إلى العمل وتحث عليه، ولا تبيح القعود إلا لعذر قاهر، لأن هذه سنة الله فى خلقه، وقد قال سبحانه ممتنًا على خلقه: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)**﴾[1]. أى جعلنا الليل سكنًا يستريح فيه الناس، وجعلنا النهار معاشًا أى مشرقًا مضيئًا ليتمكن الناس من طلب معاشهم فى التجارة والزراعة وغيرهما من ألوان النشاط الإنسانى، وقال سبحانه: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)**﴾[2].

وقال: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمات التى تجعل الانتشار فى الأرض والعمل فيها آية من آيات الله وسنة من سننه فى خلقه.

٥ـ وقفة متأنية مع المتواكلين

العمل سنة من سنن الله فى خلقه، ومن تركه خالف هذه السنة، وناقض الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وقد جاء القرآن الكريم والسنة المشرفة يدعوان إلى العمل والسعى، وهذا لا يتعارض مع دعوتهما للتوكل، ولذلك

(١) النبأ: ٧٨/ ١٠، ١١. (٢) الجمعة: ٦٢/ ١٠.
(٣) المزمل: ٧٣/ ٢٠.

إذا ما عـدنا إلى بعض الآيات التى تدعو وتأمر بالتـوكل على الله، سنجدها دائمًا تأتى بعد طلب استـفراغ الجهد فيما يمكن طلب التـوكل فيه، فنقرأ فى سورة الأنفال قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1]. فـقد أمـر فى الآية الكريمـة بالاستـعـداد لتكون هذه القوة مـصـدر إرهاب وتخويف للأعـداء المجاهرين بعدائهم، ولغيـرهم من المنافقين ومن على شاكلتهم، ودل على طريق إعـداد هذه القوة بدعـوته إلى الإنفاق فى سـبيل الله، وتـوفير الـمال اللازم، ولا يكون هذا أو ذاك إلا بجهد وعرق وتعب ومـشقة، وبعد أن ذكر هذا قـال: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

فالأمر بالتوكل على الله إنما جاء بعد العمل المتواصل فى إعداد القوة، وليس من المعـقول أن نقصـر فى إعداد القوة من تدريب وأسلحـة وإصلاح للجبهة الداخلية والخارجيـة، ثم ندخل فى معركة مع عدو مدرب مزود بكل ألوان السـلاح والعتـاد وندعى أننا متـوكلون على الله، ولذلك فإن أصـابع الاتهام تشـير إلى هذا الفـريق المتـواكل لتقـول بأنه مدسـوس على الإسلام وأهله، وأن هناك أيد خفيـة تحركه لتخلو مـواقع الشباب المسلم، فيـحتلها أعـداء الله وأعداء الإسـلام، وليركن شـبابنـا إلى الدعة والراحـة والبطالة، فـيتـمكن أعداؤنـا من الوصول إلى غـرضهم الـخبـيث وهو ضرب الأمـة المسلمة، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

(١) الأنفال: ٨/ ٦٠.
(٢) الأنفال: ٨/ ٦١.

ولنستمع إلى قول الله ـ تعالى ـ فى سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾[1]. فالله يبين لرسوله ﷺ ما يجب عليه من إعـداد واستعداد، وما لهذا الرسول العظيم من سلوك رحيم جمع القلوب حـوله، وأنه بعد بذل كل طاقة ممكنة فى الاستعـداد، عليه أن يستشـير أصحابه، فإذا تبـين له الرأى الراجح وعزم على التنفيـذ، حين ذاك يكون الأمر له: فـتوكل على الله. وهذا الأمر كـما ترى لم يأت قبل الأخذ بالأسباب، إنما جاء بـعد التفكير والروية والاستشارة ووضع الخطة للقاء أعداء الله.

يقول ابن القيم فى حديثه عن التوكل: "فترك الأسباب المأمور بها قادح فى التوكل، وقد تولى الحق إيصال العبد بها"، ويقول أيضًا: "فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم بهم توكل البتـة"، ويقول ـ نقلا عن سهل بن عبدالله ـ: من طعن فى الحركة ـ أى العمل ـ فقد طعن فى السنة، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان، فالتـوكل حال النبى ﷺ أصدق المتوكلين، ومع ذلك كان يحمل معه الزاد فى السفر ولبس درعين حينما قاتل فى غزوة أحد، وكان يدخر لأهله قوت سنة ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾". وقد أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس، قـال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ـ أى لا يحـملون مـعـهم زادًا ـ ويقـولون: نحن المـتـوكلون، فـأنزل الله: ﴿وتزودوا فإن خـير الزاد التـقوى﴾، وروى ابن جرير وابن مـردويه عن ابن عمـر قال: كانوا إذا أحرمـوا ومعهم أزوادهم رمـوا بها واستأنفـوا زادًا آخر، فأنزل اللـه ـ تعالى ـ ﴿وتزودوا فـإن خيـر الزاد التقـوى﴾، فنهوا عن ذلك

[1] آل عمران: ٣/ ١٥٩.

وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك. يقول ابن كثير: وكذا قال ابن الزبير وأبو العالية ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي، وسالم بن عبدالله، وعطاء الخرساني، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان[1].

ويقول السيد رشيد رضا: "إن هناك أمورًا تخفى علينا أسبابها، ويعمى علينا طريق طلابها، فيجب علينا بإرشاد الدين والفطرة أن نلجأ فيها إلى ذي القوة العينية، ونطلبها من مسبب الأسباب، لعله بعنايته ورحمته يهدينا إلى طريقها، أو يبدلنا خيرًا منها، ويجب مع هذا بذل الجهد من الطاقة والعمل بما نستطيع من الأسباب حتى لا يبقى في الإمكان شيء مع اعتقادنا بأن الأسباب كلها من فضل الله ـ تعالى ـ علينا ورحمته بنا، إذ هو الذي جعلها طرقًا للمقاصد، وهدانا إليها بما وهبنا من العقل والمشاعر، لا يسمح الدين للناس بأن يتركوا الحرث والزرع، ويدعوا الله ـ تعالى ـ أن يخرج لهم الحَبَّ من الأرض بغير عمل منهم، اخذًا بظاهر قوله: **﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾**، وإنما يهديهم إلى القيام بجميع الأعمال الممكنة لإنجاح الزراعة من الحرث والتسميد، والبذر، والسقي وغير ذلك، وأن يتكلوا على الله بعد ذلك فيما ليس بأيديهم، ولم يهدهم لسببه بكسبهم كإنزال الأمطار، وإفاضة الأنهار، ودفع الجوائح، فإن استطاعوا شيئًا من ذلك فعليهم أن يطلبوه بعملهم لا بألسنتهم وقلوبهم، مع شكر الله ـ تعالى ـ على هدايتهم إليه وإقدارهم عليه، كذلك يحظر الدين عليهم أن ينفروا إلى الحرب والمدافعة عن الملة والبلاد عُزّلًا، أو حاملي سلاح دون سلاح العدو المعتدي عليهم ارتكانًا على الله ـ تعالى ـ واعتمادًا على أن النصر بيده، بل يأمرهم بأن يُعِدُّوا للأعداء ما استطاعوا من قوة ويتكلوا بعد ذلك ـ في الهجوم

(١) تفسير ابن كثير: ١/٢٣٩.

والإقدام - على عناية الله - تعالى - بتثبيت القلوب والأقدام، وغير ذلك من ضروب التوفيق والإلهام، فمن قصر فى اتخاذ الأسباب اعتمادًا على الله فهو جاهل بالله.

٦- هل من عودة إلى التوكل على الله أيها المتواكلون؟؟

قال عمر - رضى الله عنه -: "لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة"، وكان - رضوان الله عليه - يحث الناس على ذلك ويضرب من نفسه المثل، وهو القائل: "ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى: أبيع وأشترى"، ورأى زيد بن مسلمة يغرس فى أرض له، فقال له: أصبت، استغن عن الناس يكن أصون لدينكم وأكرم لله عليكم، كما قال صاحبكم أحيحة:

فلن أزال على الزوراء أعمرها — إن الكريم على الإخوان ذو المال

وقال ابن مسعود - رضى الله عنه -: "إنى لأكره الرجل فارغًا: لا فى أمر دنياه ولا فى أمر آخرته".

وقد فَشَت ظاهرة التواكل بعد عصر الصحابة، إذ نجد إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل يُسْأل أكثر من مرة عن رأى الإسلام فى هؤلاء المتواكلين، وقد ولد الإمام أحمد فى ربيع الأول من عام ١٦٤هـ، وكانت وفاته فى ربيع الأول عام ٢٤١هـ، وقد سُئِل - رحمه الله -: ما تقول فيمن جلس فى بيته أو مسجده، وقال لا أعمل شيئًا حتى يأتينى رزقى؟، فقال: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبى ﷺ: «**إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي**»[1]. وسأله ابنه عبدالله فقال: يا أبى، هؤلاء المتواكلون يقولون: نقعد وأرزاقنا على الله - عز وجل -؟، فأجابه: هذا قول ردئ

(١) الحديث من رواية الإمام أحمد من حديث ابن عمر، وإسناده صحيح.

خبيث، يقول ـ عز وجل ـ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، فهو ـ رضوان الله تعالى عليه ـ يحتج بهذه الآية وما بعدهاعلى هؤلاء المتواكلين، حيث يقول ـ تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]. فقد أمر الله سبحانه بالانتشار فى الأرض، وطلب الرزق من الله ـ سبحانه ـ والمواظبة فى هذه الحركة الدائبة على ذكر الله، وذلك كله يؤدى إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة، وفى هذا أبلغ رد على من قعد عن السعى والعمل، وادعى أنه متوكل على الله، وسأله ابنه عبدالله مرة أخرى عن قوم يقولون نتكل على الله ولا نكتسب. فأجابه بقوله: ينبغى للناس كلهم أن يتوكلوا على الله، ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب، هذا قول إنسان أحمق.

وسأله ابنه صالح عن التوكل فأجابه: التوكل حَسَنٌ، ولكن ينبغى للرجل ألا يكون عيالا على الناس، ينبغى أن يعمل حتى يغنى أهله وعياله ولا يترك العمل.

وقد قال الإمام سفيان الثورى ـ رحمة الله عليه ـ: "مكتوب فى التوراة: إذا كان فى البيت بُرٌّ فتعبد، وإذا لم يكن فاطلب، يا ابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك".

ولعل فى هذا ما يرد على المتواكلين المتكاسلين، الذين عميت عليهم الطرق، واختلطت عليهم السبل، فلم يميزوا بين دعوة الإسلام إلى الزهد فى الدنيا ودعوته للعمل والسعى، فإن الفقير المعدم قد يكون غير زاهد، لأنه حريص على الدنيا، يحبها ويتعلق بها عقله وروحه ووجدانه، والغنى الواجد قد يكون زاهدًا، لأن المال لم يشغله عن ربه، ولم يلهه عن خالقه، ولعلهم

(١) الجمعة: ٦٢/ ١٠

اغـتروا بظواهر مـا ورد من الأخـبار والآثار والأشـعار، ومن ذلك مـا رواه الطبرانـى من حديث أم الوليد بنـت عمر بن الخطاب عـن رسول الله ﷺ: **«استـحيوا من الله حق الحـياء، قالوا: إنا نسـتحى منه ـ تعالى ـ، فـقال: ليس كـذلك تبنون مالا تسكنـون، وتجمـعون مـا لا تأكلون»**. وما رواه الخطيب وابن عساكر من حديث جابر ـ رضى الله عنه ـ أنه لما قدم بعض الوفود على رسول الله ﷺ، قالوا: إنـا مؤمنون، قال: **«وما علامـة إيمانكم»**، فذكروا الصبـر على البلاء، والشـكر عند الرخاء، والرضـا بمواقع القـضاء، وترك الشماتـة بالمصيبة إذا نزلـت بالأعداء، فقال ـ عليه الـصلاة والسلام ـ: **«إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون»**، وهذا الحديث والذى قبله من الأحاديث الضعيفة، فلا يحتج بهما فى هذا المقام؛ لأن ذلك يؤدى إلى خراب الدنيا، وافتقار الخلق، وهذا ما ينافى الحكمة الإلـهية فى جعل الإنسان خليـفة فى الأرض؛ ولذلك يقول الإمام المـاوردى: لولا أن الثانى، يرتفق ـ أى ينتفع ـ بما أنشـأه الأول حتى يصير به مستـغنيًا لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء مـا يحتاجون إليه من منازل السكنى وأرض الـحـرث، وفى ذلك من الإعـواز ـ أى الإشـكال ـ وتعـذر الإمكان ما لا خـفاء به، ويقول: «لو قصـرت الآمال ما تجاوز الواحـد حاجة يومه، ولا تعدى ضرورة وقته، ولكانت تنتقل إلى من بعده خرابًا لا يجد فيها بلغة ـ أى ما يقيته ـ ولا يدرك منها حاجة، ، ثم تنتقل إلى من بعده بأسوأ من ذلك حالا حتى لا ينمى بهـا نبت، ولا يمكن بها لبث» وفى هذا ما يرد على من قال بأن علامـة الزهد أن تترك الدنيا كما هـى فلا تقول: أبنى رباطًا ـ أى للمجاهدين وغيرهم فى سبيل الله ـ أو أعمر مسجدًا، وعلى من قال :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين

فهذا ليس من التوكل على الله فى شىء، إنما التوكل بعد بذل الجهد وقبله، وإلا فهو قعود، وعجز، وكسل، لا يليق بأهل الإيمان، وصاحب ذلك إلى الذل صائر، وإلى الفقر يرحل، وقد قال قيس بن سعد: «اللهم ارزقنى حمداً ومجداً فإنه لاحمد إلا بفعال - أى إلا بالكرم والجود - ولا مجد إلا بمال». فعودوا شباب الإسلام إلى رحاب الإسلام، وتوكلوا على الله حق توكله، فإن فى ذلك عزة الدنيا وسعادة الآخرة.

الفصل الثامن

إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنَّهم بُنيانٌ مرصوص

١ـ مع المجاهدين فى سبيل الله.

٢ـ وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.

٣ـ متى يكون الجهاد فرض عين على أمة الإسلام؟

١ـ مع المجاهدين فى سبيل الله

يقول ربنا فــى سورة الصف: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾[1]. فى هذه الآية الكريمة يخبر الله ـ عز وجل ـ عن محبته للمقاتليــن فى سبيله، ويوضح الصورة التى يجب أن يكونوا عليها أثناء القــتال «صفــا كأنهم بنيــان مرصوص» فلــماذا أحب الله المقــاتلين فى سبيله؟ وبماذا بشرهم ووعدهم؟ ولماذا أحب هذه الصورة من القتال؟

أما لماذا أحــبهم؟ فلأنهم بذلوا وضحّوا وتحــملوا المشاق، لا من أجل عرض من أعــراض الدنيا، ولكن من أجــل ربهم قاتلوا، وله خــرجوا، وفى سبيله باعوا أرواحهم ودمــاءهم، وفارقوا أهلهم وديارهم، لا يبالون حرًا ولا قرًا، ولا وعــرًا، ولا جبــلا، ولا جبــروتًا، ولا طغيــانًا، ولا قوة مــن قوى الأرض مهــما عظمت، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾[2].

انهم اليد القوية التى تبطش بأهل الكفر، وتحطم أهل الباطل، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[3]. وإنهم القوة التى تحمى الحق من سطوة أهل الضلال، ويدفع الله بها كل من اعتدى على دينه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم

(١) الصف: ٦١/ ٤.
(٢) التوبة: ٩/ ١٢٠، ١٢١.
(٣) التوبة: ٩/ ١٤، ١٥.

بعض لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[1].

إنهم صمام أمان لهـذه الحياة، والحماة للسفينة من أن يخـرقها الطغاة، وهم عنوان فضل الله ومـنته على خلقه، قـال ـ تعالى ـ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

إنهم أهل لمحبة الله حقًا، إنهم العُبَّاد الزّهاد الذين لا يصل إلى درجتهم عابد أو زاهد، ولنتأمل تلك الرسـالة التى كتبها عـبدالله بن المبارك إلى الفضـيل بن عياض وأرسلها له من طرسوس مع محمد بن إبراهيم بن أبى سكينة، وفيها يقول:

يا عـابد الحرمـين لو أبصـرتنا ... لعلمت أنك فى العـبادة تلعب
من كان يخضب خـده بدموعه ... فنحـورنا بدمـائـنا تتـخـضب
أو كـان يتعب خـيله فى باطل ... فخـيولنا يوم الصـبيحـة تتعب
ريح العبـير لكم ونحن عبـيرنا ... رهج السنابك والغـبار الأطيب
ولقـد أتـانا من مـقـال نبـينا ... قول صحـيح صادق لا يكذب
لا يستـوى غبـار أهل الله فى ... أنف امـرئ ودخـان نار تلهب
هذا كـتـاب الـله ينطق بيـننا ... ليس الشـهيد بمـيت لا يكذب

قال محمد بن إبراهيم: فلقيت الفـضيل بن عياض بكتاب ابن المبارك فى المسجد الـحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال: صدق أبـو عبدالرحمن ونصحنى، ثم قـال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قـال: قلت: نعم، قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كـتاب أبى عبدالرحمن إلينا، وأملى على

---

(١) الحج: ٢٢/٣٩، ٤٠.
(٢) البقرة: ٢/٢٥١.

الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رجلا قال: «يا رسول الله علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله، فقال: هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟ فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبى ﷺ: فوالذى نفسى بيده لو طُوِّقْتَ ذلك ما بلغتَ المجاهدين فى سبيل الله، وأما علمت أن فرس المجاهد ليستن فى طوله فيكتب له بذلك الحسنات؟ ـ ومعنى يستن فى طوله ـ أى يعدو فى حبله ليرعى ـ فكلما انتقل خطوة كتب الله لصاحبه بذلك حسنة ـ»[1].

وقريب من هذا ما رواه البخارى ومسلم ـ واللفظ له ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «قيل يا رسول الله، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه، ثم قال: مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله.

إن المجاهدين هم الذين فقهوا سر هذه الحياة، علموا أن الموت غاية كل حى، وأنه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[2].

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تعيش جبانا

ورأوا ربهم يعرض عليهم صفقة رابحة لا محالة، يطلب منهم أن يبيعوا له لحمًا ودمًا وشحمًا سيوضع يومًا فى باطن الأرض لتأكله الديدان بثمن غالٍ لا يخطر على بال. إنها الجنة التى فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هى ثمن من باع هذا اللحم وذلك الدم والشحم

(١) تفسير ابن كثير: ٤٤٧/١. (٢) النساء: ٧٨/٤.

لخالقـه، مع أن ذلك كله هبة من الله، ولكنه كـرم الإله الكريم. يقول ربنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1]. نعم ـ والله ـ هذا هو الفـوز الذى لا فـوز بعـده ولا قبـله، وقد روى البـخـارى ومـسلم والترمذى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وأن له مـا على الأرض إلا الشهيد، فـإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة**».

وهؤلاء هم أصحاب بئـر معونة الذين قتلهم عامر بن الطفـيل، فقالوا: اللهم أبلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا، يقول أنس: وأتى رجل حرامًـا ـ خال أنس ـ من خلفه فطعنه برمح حـتى أنفذه، فقـال حرام: فزت ورب الكعـبة، فقـال رسول الله ﷺ: «**إن إخوانكم قـد قتلوا، وإنهم قالوا: اللهم أبلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا**».

إن الذى اختاره ربه ليكون مـمن جاهدوا فى سبيله هو السعيـد حقًا وهو الفائز حـقًا، وكل ما فى الدنيـا من متاع ومناصب ورئاسـات لا يعدل شيـئًا بجانب ما أعد الله للمجاهدين. روى البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنهـما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، ومـوضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها**». ورويا عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسـول الله ﷺ قال: «**الغدوة فى سبـيل الله أو روحة خـير من الدنيا ومـا فيهـا، ولقاب قـوس أحدكم من الجنة أو موضع قيـد ـ يعنى سوط ـ خير من الدنيا وما فـيها، ولو أن امرأة من**

(١) التوبة: ٩/ ١١١.

أهل الجنة اطَّلعَت على أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها». والغدوة والروحة: الذهاب والمجئ، وقاب قوس أحدكم أى: مقدار رمحه فى الجنة. والنصيف: هو الخمار الذى تغطى به المرأة رأسها. فانظر إلى هذا الفضل العظيم والخير العميم. ومثل هذا ما رواه الإمام مسلم والإمام النسائى عن أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**غدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت**». وحسب المجاهدين هذه الدرجات التى أعدها الله فى الجنة، فقد روى الإمام البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**». وروى الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولا، وهبت له الجنة، فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدْهَا علىَّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: وأخرى يرفع الله بها للعبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: الجهاد فى سبيل الله**».

وتكفى المجاهدين هذه الشهادة فى الموقف العظيم يوم القيامة، حيث يبعثون يحملون معهم برهان إخلاصهم وتضحياتهم رمزًا للفخار والعزة والمنازل الكريمة. روى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مكلوم يُكْلَم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه تدمى، اللون لون دم والريح ريح مسك**». وفى رواية: كل كلم ـ أى جرح ـ يكلم فى سبيل الله يكون يوم القيامة كهيئتها يوم طعنت تفجر دمًا: اللون لون دم، والعرف عرف مسك ـ أى والريح ريح مسك ـ.

أرأيتم هذا الفـوز الأكبـر، وتلكم الدرجات العـلا؟ ولذلك رد الله على المشـركين تصورهم الخاطئ فى حـقيقة الفـوز ومظاهره حيث افتخـروا بما يقـومون به من سـقاية الحـجيج وعمـارة المسـجد الحـرام، وظنوا أن هذه الأعمال التى بنيـت على شفا جرف هار، وليس لها أسـاس من الإيمان بالله ورسوله، إنما قامت على أساس من الفخر والكبر، والزهو، والخيلاء، خيل إليهم أن ذلك أفضل مـما عليه أصحاب رسـول الله ﷺ من الإيمان والعمل الصالح، والجـهاد فى سبـيل الله، فنزل الوحى يقرر الحـقيقـة ويفصل فى القضية فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1].

إن المجاهدين هم الفائزون حقًا، وهم أحياء فى الدنيا بعزتهم وكرامتهم وإيمانهم وقوة عزائمهم، وأحياء فى الآخرة حيـاة كريمة طاهرة مباركة، فيها النعيم المقيم، والدرجات الرفيعة العالية، قال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[2]. وقالـ سبحانه: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[3]. وقد نزلت هذه الآيات الكريمـات فى شهـداء أحد ـ عليهم رضوان الله ـ كـما روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عبـاس قال: قال

---

(١) التوبة: ٩/١٩ـ٢٢. (٢) البقرة: ٢/ ١٥٤.
(٣) آل عمران: ٣/١٦٩، ١٧٠.

رسول الله ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها،وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله ـ عز وجل ـ أنا أبلغهم عنكم فأنزل هذه الآيات**».

إن الجهاد ذروة سنام الإسلام، به يعلو شأنه ويرتفع أمره، وتخفق رايته وتصل كلمته إلى العالمين ـ والمجاهدون لا يقارن بهم أحد ولا يستوى بهم أحد ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾**﴾(١).

لقد أمر الله المؤمنين بالقتال، وجعله أمرًا واجبًا، وجعل فيه الخير مع أن بعض النفوس قد تنفر منه، لأنه يوردها موارد الهلكة فى الظاهر، ولو علمت لعرفت أنه يوردها موارد الخيرات والبركات والسعادة الأبدية. قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾**﴾(٢).

يقول الإمام الزهرى ـ عليه رحمة الله ـ: "الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استُعين أن يعين، وإذا استُغيث أن يغيث، وإذا

---

(١) النساء: ٤/ ٩٥، ٩٦.

(١) البقرة: ٢/ ٢١٦.

استُنفر أن ينفر، وإن لم يحتج إليه قعد"[1]؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»**.. رواه مسلم.. وفى رواية **«مات ميتة جاهلية»**، وروى أبو داود بإسناد صحيح عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال: **«من لم يغز أو يجهز غازيًا أو يخلف غازيًا فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة»** والقارعة: الداهية العظيمة التى تهلك من تقرعه وتقع عليه.

٢ـ وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيدكم إلى التهلكة

وعلى هذا المنهج فى الأخذ بيد الأمة كلها إلى الجهاد جاء قوله ﷺ فى الحديث الذى رواه الشيخان عن زيد بن خالد ـ رضى الله عنه ـ: من جهز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير فقد غزا». وقوله ـ عليه السلام ـ لبنى لحيان: «لينبعث ـ أى ليخرج ـ من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما، وفى رواية، ليخرج من كل رجلين رجل» ثم قال للقاعد: أيكم خلف الخارج فى أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج» (رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ).

وقد فهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ هذا التوجيه النبوى، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ **«أن فتى من أسلم ـ أى من قبيلة أسلم ـ قال: يا رسول الله، إنى أريد الغزو وليس معى ما أتجهز، قال: ائت فلانا فإنه كان قد تجهز فمرض، فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول: أعطنى الذى تجهزت به، قال: يا فلانة أعطيه الذى كنت تجهزت به، ولا تحبسن منه شيئًا، فوالله لا تحبسى منه شيئًا فيبارك لك الله فيه»**.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/٢٥٢.

وهكذا تتعاون الأمة كلها فى سبيل إعلاء كلمة الحق، هذا يجاهد بنفسه، وذاك يقوم بأمره، ويعد له ما يلزمه، ويوفر له وسائل الجهاد، ويخلفه فى أهله بخير، وهما شركاء فى الأجر، ولا غنى لواحد منهما عن الآخر؛ ولهذا رأينا تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس من باب تقديم الأسباب على النتائج، وقد تلونا من قبل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ والآيات فى ذلك كثيرة منها فى سورة الأنفال قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[1]. وقوله فى سورة التوبة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾، وفيها كذلك: ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، وفيها ما عابه الله على أهل النفاق من قوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وفى سورة التوبة أيضًا بيان لموقف المؤمنين من رسولهم ونبيهم يقول ـ تعالى ـ فى الرد على موقف المنافقين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾، وفيها: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[2].

وفى الحجرات تقرأ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

(١) الأنفال: ٨/ ٧٢.

(٢) التوبة: ٩/ ٢٠، ٤٤، ٨٨، ٤١.

وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[1].

فالمال أولا والنفس ثانيًا يأتى الحديث عنهما فى كل آيات الجهاد فى القرآن، إلا ما تراه من قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2]، وما ذلك إلا لأن المقام مقام بيع وشراء، والإنسان يفتدى نفسه بماله، ولكن هذه النفس ترخص إذا ما طلبها ربها، ودعاها إلى أن تموت فى سبيله، فهذا مقام موت واستشهاد لا تقارن به كنوز الأرض، أما فى مقام التجارة مع الله، فأنت تقرأ فى سورة الصف قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[3]. وهذا رجوع إلى القاعدة العامة أنه لا جهاد بالنفس دون أن تتوفر للمجاهدين أسباب القوة والمنعة، وأن يكون لديهم من الزاد والمتاع والسلاح والمركب ما يؤهلهم لمواجهة عدو الله وعدوهم، ومن هنا عَظُم دور المال فى جلب النصر، وعَظُمت النفقة فى سبيل الله وزادت فى ثوابها على غيرها من وجوه الإنفاق كما قال ـ تعالى ـ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[4].

وقال ﷺ: **«من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف»** رواه الترمذى وقال: حديث حسن، وروى الإمام مسلم عن أبى مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: **«جاء رجل إلى النبى ﷺ بناقة مخطومة ـ أى فى رأسها خطامها ـ فقال: هذه فى سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: لك بها**

---

(١) الحجرات: ٤٩/١٥.
(٢) التوبة: ٩/١١١.
(٣) الصف: ٦١/١٠، ١١.
(٤) البقرة: ٢/٢٦١.

يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة». وجاءت الأحاديث الكثيرة التى تحث على رباط الخيل وتعهدها، والإنفاق عليها، وما فى ذلك من عظيم الأجر، وتأملوا قول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ: **«من احتبس فرسًا فى سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شبعه، وريه، وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة»** أى حسنات. وما رواه الإمام أحمد بسند حسن عن أسماء بنت يزيد - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: **«الخيل فى نواصيها الخير معقود أبدًا إلى يوم القيامة، فمن ارتبطها عدة فى سبيل الله وأنفق عليها احتسابًا فى سبيل الله، فإن شبعها وجوعها وريها وظمأها وأرواثها وأبوالها فلاح فى موازينه يوم القيامة، ومن ارتبطها رياء وسمعة ومرحًا وفرحًا، فإن شبعها وجوعها وريها وظمأها وأرواثها وأبوالها خسران فى موازينه يوم القيامة»**.

وروى الشيخان وغيرهما عن عروة بن أبى الجعد - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: **«الخيل معقود فى نواصيها الخير: الأجر والمغنم إلى يوم القيامة»**.

والخيل هى عدة القتال الخطيرة فى ذلك الزمان، وواجب على المسلمين أن يعدوا لكل زمان عدته، وأن يتخذوا لكل معركة سلاحها، وأن يكون بأيديهم أقوى الأسلحة وأفتكها، وكيف يعد هذا السلاح وتقام مصانعه والمسلمون أشحاء بأموالهم بخلاء بما لديهم؟ ولعلنا نستطيع أن نفقه فى ذلك قول الله - تعالى -: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا**

من شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1]. فإنه ـ سبحانه ـ أمر بإعداد ما نستطيع من قوة، ولفت الأنظار إلى قوة خاصة هى الخيل، فأمرنا برباطها ورعايتها، وإعدادها لساحات القتال، وبيّن أثر هذه القوة فى وقوع الرعب فى قلوب أعداء الله، وأخيرًا ندب إلى الإنفاق فى سبيل الله، وبيّن ما فيه من عظيم الأجر ليبين أنَّ هذه القوة لا تُعد إلا بهذا الإنفاق.

وإذا كان الجهاد واجبًا، فإنه ليس من المعقول أن تترك الأمة كلها أعمالها وتحمل السلاح لجهاد عدوها، إنما يحتاج المجاهدون فى ساحات القتال إلى الغذاء والكساء والدواء والسلاح، وتحتاج الأمة إلى من يقوم بأمرها من زراعة وصناعة وتجارة؛ ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد بالمال، وجهاد بالنفس، ولا غنى لواحد منهما عن الآخر، وفى كثير من آيات القرآن التى تتحدث عن الجهاد، رأينا أن الجهاد بالمال قبل الجهاد بالنفس؛ لما للمال من أثر فى حياة المجاهدين، وليتنا نفقه هذا وندرك آثاره فى واقع حياة الأمة المسلمة، وكيف جعل الله النفقة فى إعداد المجاهدين أعظم ثوابًا من النفقة فى كثير من أبواب الخير؛ تقديرًا من الإسلام لقيمة هذه النفقة، وما تؤدى إليه من إعزاز لدين الله، ونشر لتعاليمه، وانتصار لكلمته، وإخراج لمن شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام! والبخل بالمال على المجاهدين هو الهلاك والدمار للفرد والجماعة، والتعبير القرآنى عن هذه الحقيقة له إيحاءاته ودلالاته، إذ يقول ـ تعالى ـ بعد أن أمر بالقتال فى سبيله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾[2].

وقد روى البخارى بسنده عن حذيفة، قال: نزلت هذه الآية فى النفقة،

---

(١) الأنفال: ٨/ ٦٠.

(٢) البقرة: ٢/ ١٩٥.

وروى أبو داود، والترمذى، والنسائى، وعبد بن حميد فى تفسيره، وابن أبى حاتم، وابن جرير، وابن مردويه، والحافظ أبو يعلى فى مسنده، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه من حديث يزيد بن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران التجيبى المصرى قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصارى، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا: صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا ـ معشر الأنصار ـ تحببًا فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ، ونصره حتى فشا الإسلام وكثُر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما، فنزل فينا: **﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**.

وروى ابن مردويه، والحاكم، والترمذى من حديث أبى بكر بن عياش، عن أبى إسحاق السبيعى، قال: قال رجل للبراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ: " إن حملت على العدو وحدى فقتلونى، أكنت ألقيت بيدى إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: **﴿فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾**، إنما هذه فى النفقة". ومن المناسب أن نقول بأن الآية عامة فى كل ما يؤدى إلى التهلكة، وأن على المؤمن ألا يلقى بيده إلى ذلك كما جاء فى عبارات بعض السلف من أن الإصرار على الذنوب والاستكثار منها إلقاء فى التهلكة، وأن من خرج إلى الجهاد بغير زاد فقد عرض نفسه للهلاك، وأن من شح بماله على أمته فقد وقع فى الهلكة والدمار والضياع؛ ولذلك يقول ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ: "ومضمون الآية الأمر بالإنفاق فى سبيل الله فى سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال فى قتال الأعداء، وبذلها فيما

يقـوى به المسلمـون على عدوهم، والإخـبار عن ترك فـعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمـه واعتاده. . »[1]. وأى هلاك جلبناه على أنفـسنا بأيدينا حين بخلنا بأموالنا على أبطالنا ورجالنا الذين يحملون السلاح من أجل الحق وفى سبيل نـصرة دين الله؟ أما كفـتنا هذه الضربات الموجعـة التى توقظ الموتى لتوقظـنا من سباتنا وغـفلتنا؟ وهل تسـود أمة وتعز ومـصادر تسليـحهـا بيد عدوها، ولا تسـتطيع أن تنتج قطعة من سـلاح له أهميـته فى حمـاية البلاد والعباد من جهل الجاهلين وكيد المعتدين؟ فضلا عن أن تحمل الراية لتنطلق بها تخضع رقاب الجبابرة والطغاة لكلمة الله.

٣ـ متى يكون الجهاد فرض عين على أمة الإسلام؟

ولنواصل مسيرتنا لنرى وجوب الجهاد والدعوة إليه على ضوء كتاب الله وسنة رسوله. . إنـنا نقرأ فى سورة التـوبة هذا العتـاب المر، وهذا الوعـيد الرهيب لمن قعـد عن الجهاد فى سبيل الله حـيث يقول ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾[2].

فهو ـ سبحـانه ـ ينادى المؤمنين بصفة الإيمان؛ استجـاشة وإحياءً لكل مشاعر الإيـمان فى القلب المؤمن ليقول لهم بأن جواذب الأرض وشـهواتها التى تشد الناس إلـى التراب ولا تترك لهم فـرصة للسمـو والرفعة والمـعالى والعـزة والكرامة، يجب ألا تصل إلى القلـوب المؤمنة المـتعلقـة بالله رب العالمين، إن ما فى الدنيا من رغائب تضغط على أعصاب الناس وأحاسيسهم

(١) تفسير ابن كثير: ١/٢٢٩.
(٢) التوبة: ٩/٣٨، ٣٩.

لا تلهى المؤمنين ولا تصرفهم عن ربهم، فإن كل ما فى الدنيا بالنسبة لما فى الآخرة قليل ولا يقارن بما أعد الله للمجاهدين وأهل التقى من رفيع المنازل. قال - تعالى -: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[1].

وبعد هذه الكلمة الموحية يهدد ويتوعد ويقول لهم: إن لم تنفروا مع رسول الله ﷺ للجهاد، يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولا تضروه شيئًا والله على كل شىء قدير.

ومثل هذا ما نقرؤه فى سورة المائدة من قول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾[2]. وإذا كان هذا فى التهديد لمن بخل بنفسه فهو كذلك لمن بخل بماله عن الإنفاق على المجاهدين، كما قال - تعالى - فى سورة «محمد»: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾[3]. ولا تعارض بين هذا الإعلان بالنفير العام وبين الدعوة إلى الإنفاق فى سبيل الله، واختيار طائفة للعمل والإنتاج والتعليم والفقه فى دين الله؛ لأن هذا الإعلان العام والنفير والخروج للجهاد إذا ما دعت إليه الحاجة واستنفر إمام المسلمين كل الناس لمواجهة خطر داهم أو قتال عدو شرس كما كان من أمره ﷺ فى دعوة المسلمين القادرين على الجهاد؛ للخروج معه فى غزوة تبوك، فلم يتخلف عنه إلا المنافقون وثلاثة من المؤمنين الصادقين، جاءوا بعد عودته فاعترفوا بذنبهم وتابوا إلى الله فتاب عليهم كما قال تعالى: ﴿لَقَد

(١) النساء: ٦/٧٧. (٢) المائدة: ٥/٥٤.
(٣) محمد: ٤٧/٣٨.

تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1]، فكانت نصرة رسول الله ﷺ فى هذا الموقف واجبة على جميع المسلمين؛ ولهذا قال: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[2]. ثم أمر أمراً صريحًا بالنفير العام والجهاد بالمال والنفس، وبيّن أن الخير فى ذلك لمن تدبر وعقل، فقال: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[3].

ولننظر إلى فهم أصحاب رسـول الله ﷺ لهذا الأمر الإلهى، يروى على ابن يزيد عن أنس عن أبى طلحـة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ أنه قـرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾، فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخًـا وشبابًا، جهزونى يا بَنِى، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر حتى مـات، ومع عمر حـتى مات، فنحن نغـزو عنك، فأبى فركب البـحر فمـات، فلم يجدوا جزيرة يدفنونه بهـا إلا بعد تسعـة أيام فلم يتغيـر فدفنوه فيها. فرحمة الله ورضوانه عليك يا أبا طلحة.

وروى ابن جرير أن أبا أيوب الأنصارى شـهد بدراً مع رسول الله ﷺ، ثم لم يتخلف عن غزوات المسلمين إلا عـامًا واحدًا، قال: وكان أبو أيوب

(١، ٢، ٣) التوبة: ٩/ ١١٧، ١١٨، ٤٠، ٤١.

يقول: قال الله - تعالى -: «انفروا خفافًا وثقالًا» فلا أجدني إلا خفيفًا أو ثقيلا، وهذا فيمن له القدرة على الجهاد ولو كان فيه ضعف بنية أو كبر سن، أو عدم رغبة في الجهاد أو غير ذلك من الأعذار التي لا تعوق عن مواجهة الأعداء، وإلا فقد أعذر الله لغير القادرين، حيث قال في نفس السورة: سورة براءة: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١)﴾[1].

إن الجهاد فرض عين إذا دعا إمام المسلمين إليه، ولا يتخلف عنه إلا من عذرهم الله، كالأعمى، والأعرج، والمريض، ومن لا يجد وسيلة للجهاد، وقد أصبح الآن واجبًا على كل مسلم، ولنعرض لبعض أقوال أئمة المذاهب لنرى ما فيها مما يغني عن التطويل، يقول صاحب "مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر" مقرراً أحكام الجهاد في مذهب أبي حنيفة: "يفرض علينا أن نبدأهم - أي نبدأ الكفار والحربيين والذميين إذا نقضوا العهد والمرتدين - بالقتال بعد بلوغ الدعوى، وإن لم يقاتلونا، فيجب على الإمام أن يبعث سرية إلى دار الحرب كل سنة مرة أو مرتين، وعلى الرعية إعانته، وإذا قام به بعض سقط عن الباقين فإذا لم تقع الكفاية بذلك البعض، وجب على الأقرب فالأقرب، فإن لم تقع الكفاية إلا بجميع الناس فحينئذ صار فرض عين كالصلاة، أما الفريضة فلقوله - تعالى -: ﴿فاقتلوا المشركين﴾، ولقوله ﷺ: «**الجهاد ماض إلى يوم القيامة، وإن تركه الكل أثموا**»، إلى أن قال: فإن غلب العدو على بلد من بلاد الإسلام أو ناحية من نواحيها ففرض عين، فتخرج المرأة والعبد بلا إذن الزوج والمولى، وكذا يخرج الولد من غير إذن

(١) التوبة: ٩/ ٩١.

والديه، والغريم بغير إذن دائنه». وفى كتاب البحر: "امرأة مسلمة سبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها ما لم تدخل حصونهم وحرزهم".

أقول: سلوا أرض الأندلس، وبخارى، وسمرقند، وسلوا أرض أفغانستان، وبلاد الأحباش، وسلوا أرض المقدسات: أرض فلسطين، وسلوا أرض لبنان وغيرها من أراضى المسلمين وديارهم التى نُهبت وانتُهِكت حرماتها ودِيست مقدساتها، ونزل بأهلها ما يهد الجبال، سلوا معسكرات الشيوعيين والصليبيين واليهود عما يرتكب فيها من انتهاك لحُرُمات أهل الإسلام واعتداء على أعراض المسلمين!! فهل ماتت النخوة والرجولة والغيرة والشهامة فى قلوب أتباع النبى المجاهد ﷺ؟ ألم توقظ أنّات الثكالى واليتامى والمشردين والمعذبين فى معسكرات الاحتلال من النساء والعجزة والأطفال والشيوخ مشاعر الغضب فى نفوس أهل الإيمان؟ وأين «وامعتصماه» التى هبت لصرختها جيوش المسلمين تقطع البوادى والقفار لنجدة امرأة مسلمة استغاثت بخليفة المسلمين المعتصم بالله، فكانت دليلا على عظمة المسلمين وإدراكهم لحقيقة دينهم؟

وهذا مذهب الإمام مالك ـ عليه رحمة الله ـ فيه: أن الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ فى كل سنة فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقى ـ وهذا فى الفتوحات الإسلامية التى تجوب أقطار الأرض لنشر دعوة الإسلام وتحطيم طواغيت الكفر فى كل مكان ـ ويتعين ـ أى يصير فرض عين ـ بتعيين الإمام وبهجوم العدو على محلة قوم فيتعين عليهم وعلى من بقربهم إن عجزوا، ويتعين على المرأة والرقيق مع هذه الحالة ولو منعهم الولى والزوج والسيد ورب الدَّين إن كان مدينًا، ويتعين أيضًا بالنذر،

وللوالدين منعه فى فرض الكفاية فقط، وفك الأسير من الحربيين إن لم يكن له مال يفك منه فرض كفاية وإن أتى على جميع أموال المسلمين.

فانظر - رحمك الله - إلى المجاهدين العاجزين عن مقاومة عدو متجبر، يمتلك أخطر الأسلحة وأفتكها، كيف يُترك هؤلاء المجاهدون لقنابل النابالم والقنابل السامة، وقنابل الأمراض، والطائرات الهجومية المتطورة، وآلات الحرب المدمرة، دون أن يعينهم أحد أو يرثى لحالهم أحد، فتتحرك فيه غيرة المؤمنين فيمد لهم يد المساعدة والمعونة؟ وانظر إلى قوله: "وإن أتى على جميع أموال المسلمين"؛ لندرك أن أموال المسلمين بكاملها يجب أن توجه أول ما توجه إلى المجاهدين فى سبيل الله؛ لتخليصهم من أيدى المجرمين الآثمين، وإلا فما قيمة مصانع تقام ومبان تنشأ وطرق تُعَبَّد، وهى عرضة للنهب والسلب والعدوان؟ ومن لم يؤكل اليوم فسيؤكل غدًا!!.

وفى متن "المنهاج" للإمام النووى: "كان الجهاد فى عهد رسول الله ﷺ فرض كفاية وقيل عين، وأما بعده فللكفار حالان: **أحدهما**: يكونون ببلادهم، ففرض كفاية إذا فعله من فيهم الكفاية من المسلمين سقط الحرج عن الباقين. **والثانى**: يدخلون بلدة لنا فيلزم أهلها الدفع بالممكن، وإن أمكن التأهب للقتال وجب الممكن حتى على فقير وولد ومدين وعبد بلا إذن".

وفى "المغنى" لابن قدامة الحنبلى، قال: "مسألة: والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين، ويتعين فى ثلاثة مواضع:

١- إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف ويتعين عليه المقام.

٢- إذا نزل الكفار ببلدة تعين على أهلها قتالهم ودفعهم.

٣- إذا استنفر الإمام قومًا لزم عليهم النفير، وأقل ما يفعل مرة كل عام".

وهكذا نرى أن الجهاد فرض عين إذا اعتدى على أرض المسلمين، لا يحول بينك وبين الخروج إليه فقر ولا دين، ولا يمنعك منه أحد كما قال بذلك أئمة الإسلام وعلماؤه في كل العصور، وقد كان سلفنا الصالح خير مثال لذلك، كانوا عباداً زهاداً مجاهدين، كان البدر العيني شارح البخاري الفقيه المحدث يغزو سنة ويدرس العلم سنة ويحج سنة، وكان القاضي أسد ابن الفرات المالكي أميراً للبحر في زمانه، وكان الإمام الشافعي يرمي عشرة ولا يخطئ، وكان عبدالله بن المبارك الفقيه الزاهد متطوعاً في أكثر أوقاته بالجهاد، وهذا كان في وقت لم تُغْز فيه بلاد الإسلام، ولم تنتهك فيه حرمات المسلمين، وكان خروجهم مع الجيوش الغازية تخضع رقاب الجبابرة لسلطان أهل الإسلام، وتنشر نور الإيمان في أرجاء الأرض، أما اليوم فإن الأمر جد مختلف، والدعوة إلى الجهاد والقيام به والإعداد له، والاستعداد أمور يفرضها هذا الدين ويوجبها على أتباعه، ولنستمع في تدبر وخشوع إلى قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: **﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾**[1].

ولنستمع إلى قول رسول الله ﷺ: **«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم..»**[2]؛ لنفهم الغاية التي من أجلها نجاهد، وأنها إعلاء

---

(١) النساء: ٤/ ٧٤ـ٧٦.

(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أنس ـ رضي الله عنه ـ.

كلمة الله، ووسائل الجهاد بالمال والنفس واللسان، وهذا القتال لابد أن يؤدى بالصورة التى حددها الله ـ سبحانه ـ حتى نحظى بمحبته ورضوانه، وهى التى جاءت فى قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص**»، والآية تذكر أمورًا ثلاثة يرتبط بعضها ببعض، وتؤدى فى النهاية إلى محبة الله ـ سبحانه ـ، **الأمر الأول**: القتال، **والثانى**: فى سبيل الله، **والثالث**: كونه صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص. والقتال يحتاج إلى مقاتل وآلة بها يقاتل، وتدريب على آلات القتال، فالمقاتل يعد فى الإسلام بألوان من التدريبات ولا يغفل رعاية بدنه وقوته، فـ"المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير" كما قال ﷺ، والمؤمن يحتاج دائمًا إلى آلة بها يقاتل، وقد كان لكل مسلم فى عصور الإسلام الزاهرة سلاحه من السيف، والرمح، والنبل، وغير ذلك، وهذا السلاح الآن يجب أن يساير الزمن، وأن يتناسب مع تطور الحياة، ويوم أن جرد المسلمون فى أنحاء العالم الإسلامى من أسلحتهم أصبحوا لقمة سائغة للظالمين والكافرين والمجرمين، ولم يجد شبابهم سوى اللهو العابث، والمجون، والفساد، والضياع، فأصبحوا كالقطيع من الأغنام، يُساق حيثما شاء من يسوقه، لا يكلفه ذلك إلا عصا فى يده، وهكذا فعل بنا الآثمون واستسلمنا لكيدهم.

أما التدريب على آلات القتال فهو واجب إسلامى، لا يُعفى منه صغير ولا كبير، وإذا كان رسول الله ﷺ قد قال فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وأعدو لهم ما استطعتم من قوة**﴾: «**ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى**»[1]، فإن الرمى يعنى إصابة الهدف، والقدرة على إصابة الأهداف من

(1) رواه مسلم والترمذى وأبو داود عن عقبة بن عامر.

أكبر وسائل القوة، بل هو القوة الحقيقية، يوجهها الطيار، ومن يستعمل المدفع والبندقية ومن يقاتل من غواصة بحرية، وكل آلات القتال تحتاج إلى قدرة خاصة فى تصويب الأهداف، وإلا فلا فائدة منها، هذا هو القتال وتلك فنونه، ولكم نحن فى حاجة إلى ذلك كله.

أما الأمر الثانى: فهو أن يكون هذا الجهاد خالصًا لوجه الله ـ تعالى ـ، والأحاديث فى ذلك كثيرة، ومنها ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال: سُئل النبى ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله»**.

والأمر الثالث: هو كيفية لقاء العدو، وذلك ما نراه من قوله ـ سبحانه ـ **﴿صفًا كأنهم بنيان مرصوص﴾**، فهم جبهة واحدة متحدة كالسيل فى اندفاعه وقوته، لا تقف فى وجه زحفهم المبارك قوة مهما عظمت، ولا يفر منهم أحد، ولا يولى الأدبار إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة، إنهم جماعة ثابتة مطيعة لربها ورسولها، لها قيادتها ولها غايتها وأهدافها، ومثل هذه الجماعة على هذه الصورة جديرة بنصر الله، ومستحقة لمحبة الله، وأمثال هؤلاء المقاتلين أهل كذلك لمحبتنا وولائنا. فلنبحث عنهم لنعقد معهم صلات المودة والقربى، وأواصر الإخاء والمحبة، فبهم تسعد الأمم وترقى الشعوب.

الفصل التاسع

فسوف يأتى الله بقوم يُحبُّهم ويُحبُّونه

١ـ محبة الله لعبده.

٢ـ محبة العبد لربه.

٣ـ من دلائل محبة العبد لربه:

(أ) الاتباع لله وللرسول.

(ب) بغض أعداء الله.

(جـ) الإكثار من ذكر الله.

(د) الغيرة لله.

(هـ) الاجتهاد فى رضا الله.

(و) الحرص على الوقت أن لا يخلو من طاعة الله.

(ز) الذلة على المؤمنين، والعزة على الكافرين.

١ـ محبة الله لعبده

ما ألذَّ الحديث عن هؤلاء الذين سعدوا بمحبة الله لهم، ومن حقهم علينا بل ومن حقنا على أنفسنا أن نبحث عن هؤلاء؛ لنعقد معهم عقود الأخوّة في الله؛ ولنتعلق بهم حتى نصل معهم إلى الفوز برضوان الله، ونحظى معهم بلذة النظر إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم، والآن نحن مع صنف من هؤلاء السعداء، أتدرون من هم؟ إنهم صنف جمع الصفات الكريمة كلها، ووصل إلى الدرجة العالية والمكانة الرفيعة، والمنزلة التى فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفاني المحبون، وبروح نسيمها تروَّح العابدون. . فهل عرفتموها؟؟ إنها قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهى الحياة التى من حرمها عُدَّ من جملة الأموات، والنور الذى من فقده فهو فى بحار الظلمات، والشفاء الذى من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التى من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، هل أدركتموها وتبينتموها؟ إنها المحبة، محبة الله لعبده ومحبة العبد لربه، إنها صفة لله، كما أنها صفة لبعض عباده، يقول ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾[1].

ولكم أذكر هذه الآية الكريمة فينشرح صدرى ويطمئن قلبى؛ لأنها وعد من الله بحماية دينه وإن تخاذل عنه المتخاذلون، وجبن عن نصرته من لا عزيمة لهم، ووعد الله صدق وقوله الحق: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[2]. وكما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي

(١) المائدة: ٥/ ٥٤.

(٢) المجادلة: ٥٨/ ٢١.

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾[1]. ولكنه كما قـال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾[2]. وهؤلاء المجاهدون هم يد القدر الذى يسلطه الله على الكافرين؛ لينتقم منهم ويعـذبهم بها فى الدنيا، ويبقى لهم عـذاب الله فى الآخرة، بهـذا نطق القرآن فـقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[3]، فالله برحمته وحكمـته هو الذى يخرج هذا الجيل فى كل جيل وفى كل زمان؛ ليكون هذه اليـد التى تعمل عملها فى إحـقاق الحق وإزهاق الباطل، وإخـماد نيران الكفر والضـلال، وإنارة مصابيح الهدى فى ديـاجير الظلام، وإلا ﴿لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ .

وهذه أول صـفة يصف الله بهـا هؤلاء القـوم بعد أن وصف بهـا نفسـه ﴿يحبهم ويـحبونه﴾ فمحبـته لهم سبقت محبتـهم إياه، كما أن رضاه عنهم سبق رضاهم عنه كما جاء ذلك فى المـائدة والتوبة والمجادلة والبينة، حيث يقول ربنا: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾.

إنها محـبة الله التى فاضت آثارها وانتشـرت بركاتها، وعمت رحـماتها على من اختـارهم سبحانه واصطفـاهم واجتباهم وأرشـدهم وهداهم، وقد رأينا أنه ـ سبحـانه ـ يحب المحسنين، والتوابين، والمتطهريـن، والمتقين، والصابرين، والمتوكلين، والمقسطين، والذين يقاتلون فى سبيله صفًا، كما سنرى فى الباب الـثالث ـ بإذن الله ـ: «من لا يحـبهم»، ومن ذلك ما تقرؤه

(١) غافر: ٤٠/ ٥١.   (٢) محمد: ٤٧/ ٤-٨.
(٣) التوبة: ٩/ ١٤، ١٥.

في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يحب الفساد، ولا يحب كل كفّار أثيم، ولا يحب الكافرين، ولا يحب الظالمين.. ﴾ إلى آخر ما نراه في كتاب الله ـ عز وجل ـ، ولعل في هذا أبلغ الردّ على من قال بأن الله لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، إنما محبته هي إرادته لإكرامه ومثوبته، ومحبة العباد له إرادتهم التقرب إليه والتعظيم له وعبادته، واعتقد هؤلاء المعطلة أن ذلك من موجبات توحيده ـ سبحانه ـ وتنزيهه.

والقول الحق هو ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الله موصوف بما وصف به نفسه دون تشبيه، أو تمثيل، أو تعطيل، وصفًا يليق بذاته، فالله يحب من يحب من عباده، وهو ـ جل وعلا ـ محبوب عند من عقل عنه، وعرف أن محبته هي العبودية بعينها، وهي التوحيد للألوهية بعينه، وهي لب الإسلام، وحقيقة الإيمان، ورأس الإخلاص، وسنام الأمر، وعنها ومنها فاض الخير كله، والرضا كله، والسعادة كلها، وإذا كان أهل السنة قد أثبتوا لله المحبة على ما يليق بكماله وجلاله دون أن يقتضي ذلك نقصًا أو تشبيهًا، فإنهم يثبتون كذلك لربهم لازم تلك المحبة من إفاضة الخير والثواب والمنح والعطايا على من يحبه من خلقه.

وقد جاءت السنة تثبت هذه المحبة أيضًا، روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله ـ تعالى ـ: «**من عادى لي وليًا آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ من أداء ما افترضته عليه، ولايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، وإن استعاذني لأعيذنَّه**»، وفي رواية أنس بن مالك: «**فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي**».. وهذا تحقيق

لقوله تـعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[١]، وقوله: ﴿وإنَّ اللَّهَ لمَعَ المحسنين﴾[٢]، وقوله: ﴿وأَنَّ اللَّهَ مَعَ المؤمنين﴾[٣]، فهو مـعهم بعلمه وحفظه، وتأييده، وتسديده، وتوفيقه، ولطفه، وعونه، ونصره، أليسوا من أحبـابه؟ وهل يترك الحبـيب حبيبـه؟ هل يتركه للحـيرة والضياع والشـقاء والعـدوان والظلم وجـهل الجـاهلين دون أن يـدافع عنه، وأن يحـفظه، وأن ينصره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾[٤].

وفى الصحـيحين من حـديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: **«إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض»** وفى لفظ لمسلم: **«إن الله إذا أحب عبداً دعا جبـريل فقال: إنى أحب فلانًا فأحبه. قال: فيـحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء فـيقول: إن الله يحب فلانًا فأحـبوه، فيحبه أهل السـماء، قال: ثم يوضع له القـبول فى الأرض، وإذا أبغض الله عبـداً دعا جبـريل فيـقول: إنى أبغض فلانًا فأبغضـه، قال: فيبغضه جبـريل ثم ينادى فى أهل السماء: أن الله يبـغض فلانًا فـأبغضـوه ثم توضع له البـغضـاء فى الأرض»**. وفى لفظ آخر لمسلم عن سهيل بن أبى صالح قال: كنا بعرفـة فمر عمر بن عبدالعزيز وهو على الموسم فقام النـاس ينظرون إليه فقلت لأبى: يا أبت إنى أرى الله يحب عمر بن عـبدالعزيز، قال: ومـا ذلك؟ قلت: لما له من الحب فى قلوب الناس، فقـال: إنى سمعت أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ يحـدّث عن رسول الله ﷺ، ثم ذكر الحديث، وأخرجه الترمذى ثم زاد فى آخره: **«فذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[٥]»**.

---

(١) النحل: ١٦/١٢٨. (٢) العنكبوت: ٢٩/٦٩.
(٣) الأنفال: ٨/١٩. (٤) الحج: ٢٢/٣٨.
(٥) مريم: ١٩/٩٦.

وعن «عـائشة» ـ رضى الله عنهـا ـ أن رسول الله ﷺ بعث رجـلا على سرية فكان يقـرأ لأصحابه فى صلاتهم فـيختم بـ﴿قل هو الله أحد﴾، فلما رجعـوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فـقال: **«سلوه لأى شىء يصنع ذلك، فسألوه، فقال: لأنه صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله ـ تعالى ـ يحبه»**. (متفق عليه)

وروى الترمذى عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال: **«كان من دعاء داود ـ عليه السلام ـ: اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك والعـمل الذى يبلغنـى حبك، الـلهم اجـعل حـبك إلىَّ أحب إلى من نفـسى وأهلى ومن الماء البارد»**.

وروى الترمذى أيضًا من حـديث عبدالله بن يزيد الخطمى أن النبى ﷺ كان يقـول فى دعائه: **«اللهم ارزقنى حـبك وحب من ينفـعنى حبـه عندك، اللهم ما رزقـتنى مما أحب فـاجعله قوة لى فيـما تحب وما زويت عنى مـما أحب فاجعله فراغًا فيما تحب»**.

وقد استفاضت السنة النبوية بالكثيـر من الأحاديث التى يذكر فيها رسول الله ﷺ حب الله لعمل من الأعمال الخيرة كقوله ﷺ: **«أحب الأعمال إلى الله الصـلاة على وقتهـا، وبر الوالدين، ثم الجـهاد فى سبـيل الله»**، وقوله ـ عليه السلام ـ: **«إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»**.

من هذا كله يتبين لنا أن الله قـد أثبت لنفسه صفة المحبة، فـهو كما وصف نفسه ـ سبحانه ـ، ولا التفـات إذن لأقوال من أنكروا هذا وأولوه على غير وجهه وعطلوه فبقى بلا معنى، وفسّروه وفق أهوائهم. نسأل الله أن يعصمنا من الزلل، وأن يجنبنا اتباع الهـوى، وأن يرزقنا محبـته وطاعته، اللـهم أحى قلوبنا بحبك، واجعلنا لك كما تحب، ومتعنا بلذة النظر إلى وجهك الكريم.

٢ـ محبة العبد لربه

هذه هي محبة الله لعبده قد عرفنا معناها وأدركنا أدلتها.

أما محبة العبد لربه فقد رأينا بعض أدلتها كذلك ونحن نسوق شواهد الكتاب والسنة على محبة الله لبعض عباده، ومازالت الدلائل والبينات مشرقة وضّاءة، تفيض بها آيات القرآن والسنة المشرفة، وأقوال السلف الصالح، وحسبنا من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿يحبهم ويحبونه﴾، فأثبت حبه لهم وحبهم له في عبارة واحدة، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١). وفي هذه الآية الكريمة أعظم دليل على ثبوت محبة المؤمنين لربهم وأن هذه المحبة هي العبودية لله، وهي حقيقة إفراده سبحانه بالألوهية، فإن المشركين كانوا يعتقدون أن الله هو الرب الخالق الرازق المحيي المميت، الذي بيده ملكوت كل شيء، ولكنهم لم يكونوا موحدين لألوهية الله ـ أي لم يفردوه بالمحبة والتعظيم ـ، فكانوا بذلك مشركين الشرك الأعظم الذي لو مات صاحبه عليه لا يغفره الله له، وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قولان: **أحدهما** يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا، **والثاني**: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بيّن أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرجح القول الأول، ويقول إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له، والقرآن يشهد برجحان هذا القول، إذ يذكر عن المشركين حسرتهم يوم العذاب وهم يقولون لآلهتهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا

---

(١) البقرة: ٣/ ١٦٥.

﴿لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[١]. ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين فى الخلق والربوبية، وإنما سووهم به فى المحبة والتعظيم، وأعطوهم ما لله وحده من حق التشريع والأمر والنهى.

ومن دلائل وشواهد محبة العباد لربهم قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾[٢]. فسلم لهم بما ادعوه من محبتهم لله، ودلهم على طريق هذه المحبة وكيف تتحقق، فقال: فاتبعونى يحببكم الله. وسوف نعود لهذه الآية بشىء من التفصيل حين نقف عند علامات الحب لله.

ولنقرأ فى إثبات هذا الحب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٣].

وكم فى هذه الآية من حِكَم بالغات ودروس نافعات.

وما جاء فى القرآن من ابتغاء وجه الله بكل عمل صالح إنما هو دليل إثبات لمحبة الله ـ سبحانه ـ، إذ لا يطلب القرب والود بالعمل الخالص إلا من له المحبة الحقة، وهو الله رب العالمين.

ولذلك نقرأ فى القرآن قول الله ـ تعالى ـ فى سلوك الأبرار من عباده: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾[٤]، وقوله سبحانه فى أبى بكر الصديق: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾[٥].

---

(١) الشعراء: ٢٦/٩٧، ٩٨.
(٢) آل عمران ٣/٣.
(٣) التوبة: ٩/ ٢٤.
(٤) الإنسان: ٧٦/ ٩.
(٥) الليل: ٩٢/ ١٩-٢٢.

وقوله ـ جل ذكره ـ في وصف أولى الألباب الذين عقلوا عن الله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾[1]، وقوله: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾[2].

إلى آيات كثيرة فى هذا الباب.

أما فى السنة المطهّرة فحسبنا قوله ﷺ فى الحديث الصحيح، الذى روى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا فى الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر ـ بعد أن أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يلقى به فى النار»**.

ففى هذا الحديث الشريف ذكر ثلاثة أشياء، إن تحققت أحسَّ المؤمن بحلاوة الإيمان، فى مقدمتها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يُقَدِّمُ أمرًا على أمرهما، ولا قولا على قولهما، إنهما أحب إليه من كل ما فى الحياة، حتى من نفسه التى بين جنبيه كما روى الإمام البخارى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال: **« يا رسول الله، لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى، فقال: لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلى من نفسى، فقال: الآن يا عمر»**.

وروى البخارى ومسلم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ ـ أى متى تقوم الساعة؟ ـ قال: **«وما أعددت لها؟»**،

(١) الرعد: ١٣/ ٢٢.

(٢) الروم: ٣٠/ ٣٨، ٣٩.

قال: لا شىء إلا أنى أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت ـ أى فى الجنة ـ». قال أنس: فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى ﷺ: **أنت مع من أحببت**، قال أنس: "فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم"، وهذا تواضع عظيم من هذا الصحابى الجليل، الذى خدم رسول الله ﷺ عشر سنين، فكان نموذجًا للإنسان المؤمن التقى النقى الصالح. فهذه كلها أدلة على ثبوت محبة العباد لربهم مما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما ما جاء من الآثار والأخبار، فهو من الكثرة بمكان، من ذلك ما روى عن الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ: "من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها". وما روى عن هرم بن حيان: "المؤمن إذا عرف ربه أحبه، وإذا أحبه أقبل عليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ـ أى لم يفتر ولم يكسل عن العمل للآخرة ـ، وفى بعض الكتب المنزلة: "عبدى أنا ـ وحقك ـ لك محب فبحقى عليك كن لى محبا". ومن ضراعات يحيى بن معاذ: "إلهى إنى مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيراً أخذتنى إليك، وسربلتنى بمعرفتك، وأمكنتنى من لطفك، ونقلتنى فى الأحوال، وقلبتنى فى الأعمال: ستراً، وتوبة، وزهداً، وشوقًا، ورضًا، وحبًا، تسقينى من حياضك وتهملنى ـ أى تتركنى ـ فى رياضك، ملازمًا لأمرك، ومشغوفًا بقولك، ولما طرَّ شاربى ـ أى نبت ـ ولاح طائرى فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً، وقد اعتدت هذا منك صغيراً، فلى ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة؛ لأنى محب، وكل محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف"[1].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالى ٤/٢٩٦.

فلا حجة مع هذه الشواهد الواضحات لمن أنكروا أن الله محبوب لعباده، وأن القلوب تتعلق به، فإن إنكارهم إنكار لكل شواهد الشرع والعقل والقياس، وقد أولوا ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله من هذه المحبة لله بمحبة عبادته وطاعته، والعمل على مرضاته لنيل ثوابه، وهم مخطئون فيما تأولوه أعظم الخطأ، بل هم على خطر عظيم؛ لأنهم بإنكارهم هذا أنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة؛ ولذلك - كما يقول ابن القيم -: "ضربت قلوبهم بالقسوة، وضربت دونهم ودون الله حجب على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولو عطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولعطلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كل مقام، ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يأله له العباد حبًا وذلا وخوفًا ورجاء وتعظيمًا وطاعة له، بمعنى مألوه وهو الذي تأله القلوب أي تحبه وتذل له".

وأصل التأله: التعبد، والتعبد آخر مراتب الحب، يقال: عبده الحب وتيمه: إذا ملكه وذلله لمحبوبه، فالمحبة حقيقة العبودية، وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضا والحمد والشكر والخوف والرجاء؟؟

فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب، معطل ذلك كله، وحجابه أكثف الحجب، وقلبه أقسى القلوب وأبعدها عن الله، وهو منكر لخلة إبراهيم - عليه السلام -، فإن الخلة كمال المحبة وهو يتأول الخليل بالمحتاج، فخليل الله عنده هو المحتاج، فكم على قوله لله من خليل: برٍّ،

وفاجر، بل مؤمن وكافر، إذ كثير من الفجّار والكفّار من ينزل حوائجه كلها بالله، صغيرها وكبيرها، ويرى نفسه أحوج شيء إلى ربه في كل حال.

اللهم إنا ندعوك بدعاء نبيك ﷺ: «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك، وحب ما يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب إليّ من الماء البارد».

٣ـ من دلائل محبة العبد لربه:

(أ) الاتباع للرسول ﷺ

ليس كل من ادعى أمرًا سلم له حتى يقيم البيّنة على صحة ما ادعاه، وإلا فهو كاذب، ليس له من الصدق نصيب، فما هي البينة والدليل على محبة العبد لربه؟؟

إنك لو سألت أى إنسان ينتسب لدين الإسلام، وإن كان غارقًا لأذنيه في المعاصي والشهوات واتباع الهوى: هل تحب الله ورسوله؟ لأجابك على الفور: نعم. ومن الذى لا يحب الله؟ ومن الذى لا يحب رسول الله ﷺ؟

إنها دعوى عريضة يطلقها كل فرد في أمة الإسلام، بل يدّعيها كل أتباع الأديان في كل زمان ومكان، وإن كانوا يقفون بمحبتهم عند الرسول الذى يؤمنون به، إذ هم لا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ، جحودًا منهم واستكبارًا على الحق، فضلا عن محبتهم له لكنهم يدَّعون أنهم المقربون إلى ربهم الذى منحهم وحدهم محبته كما ذكر القرآن عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[1]. فرد عليهم ادعاءهم وقال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾[2].

وانطلاقًا من دعواهم هذه المحبة قالوا ما ذكر لنا ربنا في كتابه: ﴿لَن

(١، ٢) المائدة: ١٨/٥.

تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، وقد أجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1]. وهذا كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

فلا يغرنك ما ادعاه الناس لأنفسهم من محبة الله، حتى تعرضها على المنهج الصادق؛ لترى: هل غر هؤلاء بربهم الغرور وزين لهم ما هم فيه من آمال كاذبة؟ فاستمرأوا ما هم فيه، وركنوا إلى الدَّعة والراحة، والجهالة، والجهل المهلك، أم أنهم حقًا من المحبين لربهم، المتعلقين بهدى نبيهم، الذين لبوا نداء الله، وركبوا مطايا الشوق والحنين، وواصلوا إلى هذا الإله الذى أحبوه المسير، لم يبالوا مشقة ولا تعبًا حتى نالوا ما أملوه ووصلوا إلى ما طلبوه، وتمتعوا بالنظر إلى وجه الله الكريم:

وقل ساعدى يا نفس بالصبر ساعة   فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا

فما هى إلا ساعة ثم تنقضى   ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

نعم، ما هى إلا ساعة ثم تنقضى، وتمر وتنتهى، فما الدنيا إلا ساعة من نهار، كما قال لنا ربنا فى كتابه، وما هى إلا ظل زائل، وعرض حائل، يرحل بعدها العباد إما إلى جنة وإما إلى نار، والمحبون هم الناجون، وهم الفائزون؛ لأنهم أهل النعيم المقيم فى جنات الخلد عند ربهم الذى أحبوه فكيف يعذبهم؟ وهل يعذب الحبيب حبيبه؟ فما هى علامات المحبين

---

(١) البقرة: ٢/ ٨٠-٨٢.
(٢) آل عمران: ٣/ ٢٤.

لربهم؟ إن أول علامـاتهم ودلائلهم وشواهدهم: المتابعـة لرسول الله ﷺ. قال ـ تعالى ـ: ﴿قل إن كنتم تحبون اللـه فاتبعوني يحببـكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾. قال بعض السلف: ادعى قوم محـبة الله، فأنزل الله آية المحنة ـ أى الابتلاء والاختبار ـ: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. فإذا اتبعتم الرسـول أحبكم الله وكنتم ـ حقًا ـ محبـين لله. يقول ابن القيم: "فليس الشأن فى أن تحب الله، بل الشأن فى أن يحبك الله، ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حـبيبـه ظاهرًا وباطنًا، وصدقتـه خبرًا، وأطعـته أمرًا، وأجبـته دعوة، وآثرته طوعًـا، وفنيت عن حكم غيره بحكمـه، وعن محبة غـيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تتعنَّ ـ أى فلا تتعب نفسك ـ وارجع من حيث شئت فالتمس نورًا، فلست على شىء"[1].

واتباع حبـيب المحبوب، اتباع للمـحبوب نفسه، وحبـه حب للحبيب نفـسه، فـأنت حين تحب الله، لابـد أن تحب كل من له صلة وعلاقـة به، فأنت تحب رسله، لأنهم حـملة وحيه إلى خلقه، وأنت تحب مـلائكته فهم عباد له مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، ولذلك حين قالت اليهود بأنهم يحبون ميكائيل؛ لأنه ملك الرحـمة والرأفة والغيث، ولا يحبون جبـريل بل يعادونه؛ لأنه أتى بـالخسف والعذاب والـنقمة، ردَّ الله عـليهم فقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾[2]، ثم جـعل عداوتهم لجـبريل عـداوة له ولجميع ملائكته ورسله، بل ولميكائيل أيضًا الذى ادعوا محبته، فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[3].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: ٣/٣٧.
(٢، ٣) البقرة: ٢/٩٧، ٩٨

وكمـا تحب رسل الله وملائكته تحب عـباده الصالحين؛ لأن الله يحـبهم؛ ولذلك جاء فى الحـديث القدسى: «من عادى لى وليًا فقد آذنتـه بالحرب» وجاء النهى عن مـوالاة أعداء الله، وبين أنهم أعداء له، وأعـداء للمؤمنين، فنادى المؤمنين وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾[1].

وأمر بإعداد القـوة لمواجهة ولإرهاب أعـداء الله وأعداء أهل الإيمان، فقـال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[2].

ونحن نحب القرآن؛ لأنه كلام الـله، ومقتضى هذه المحـبة أن تتبع من أحببت، وألا تعصى له أمرًا؛ ولذلك قال عبدالله بن المبارك:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى الفعال بديـع
لو كان حبك صادقًا لأطعـته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وهذا يدعوك إلى مخـالفة الهوى والشيطان، وقـد قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتـى يكون هواه تبعًا لما جئت بـه»، والاتباع إما أن يكون للرحمن ومـا جاء به رسله، أو للشيطان ومـا يوسوس به جنده، وفى الأول صدق المحـبة لله والنجاة، وفى الثانـي صدق المحبة للشـيطان، والهلاك؛ ولذلك أمر باتباع ما جـاء به هذا الدين وهذا النبى، فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)﴾[3].

---

(١) الممتحنة: ٦٠/١.
(٢) الأنفال: ٨/ ٦٠.
(٣) الأنعام: ١٥٣ـ١٥٥.

فاتبـاع هدى الله باب من أبواب رحمـات الله الواسعـة، وباب للفوز العظيم، والفـلاح الذى ليس بعده فلاح؛ ولذلك قـال فيـمن اتبع الرسول النبى الأمى ﷺ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. ثم دعا الإنسانية كلهـا إلى الإيمان بهذا الرسول، واتباع هديه، ففى ذلك الهدى كله، والخـير كله، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾[2].

وأمر الله رسولـه أن يعلن للإنسانية كلها حـقيقة دعوته هـو ومن اتبعه، فقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾[3]. وأن يعلن هذا لمن حاجّه من أهل الكتاب، فقال: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾[4].

وجعل السعادة فى اتـباع هدى الله، فقال: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾[5]. والشقاء فى الإعراض عـن هذا الهدى، فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾[6].

والآيات فى الحثّ على اتبـاع هدى الله، وما يتـرتب على ذلك من آثار مباركة طيبة، فى الدنيا والآخرة، كثيرة يفيض بها القرآن العظيم.

وهذا الاتباع من أول مظاهر المحبة ودلائلها.

وإذا كان هذا الاتبـاع قد أدى بأصـحابه إلى المنازل العـالية، فـإن اتباع

(١) الأعراف: ٧/ ١٥٧.
(٢) الأعراف: ٧/ ١٥٨.
(٣) يوسف: ١٢/ ١٠٨
(٤) آل عمران: ٣/ ٢٠.
(٥) طه: ٢٠/ ١٢٣.
(٦) طه: ٢٠/ ١٢٤.

الشيطان والهوى، يؤدي بأصحابه إلى البوار والدمار في الدنيا والآخرة، فإن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر؛ ولهذا نهى الله عن اتباعه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[1].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝﴾[2].

وحكم على من اتبع الشيطان بالعذاب في جهنم، فقال: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ۝﴾[3].

وقال: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾[4].

وما اتباع الهوى إلا من وحي الشيطان وإغوائه وإضلاله، وكم في اتباع الهوى من ضياع وهلاك، وما أظن أن من يتبع الهوى يكون محبًا لله ولرسوله ولكتابه وللمؤمنين حبًا صادقًا، نجانا الله من كيد الشياطين، وجعلنا ممن أحبوا ربهم من كل قلوبهم.

(ب) بغض أعداء الله:

من دلائل محبة الله: بغض أعدائه، ومراغمتهم، وقهرهم، فإن وجدت من يناصر أعداء الله، ويرضى بفعلهم، ويمنحهم ودّه وحبّه وولاءه، فليس له من حب الله نصيب، بل ليس له من الإسلام قليل ولا كثير؛ ولذلك قال القائل:

(١) النور: ٢٤/ ٢١.
(٢) فاطر: ٣٥/ ٥، ٦.
(٣) الإسراء: ١٧/ ٦٣.
(٤) ص: ٣٨/ ٨٤، ٨٥.

من حبنى فليجتنب من سبنى إن كان صان مودتى ورعانى

وإذا محبى قد ألاذ بمبغضى فكلاهما فى البغض مشتركان[1]

وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾[2]، «وإنما رضى الله عنهم؛ لأنهم حزبه وأحبابه، ورضوا هم عن ربهم فلم يقدموا حب أحد على حبه، وقد نزلت هذه الآية فى أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم؛ ولذلك قيل فى قوله تعالى: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ نزلت فى أبى عبيدة عامر بن الجراح، قتل أباه يوم بدر، ﴿أو أبناءهم﴾ فى الصديق: هم يومئذ بقتل ابنه عبدالرحمن، ﴿أو إخوانهم﴾ فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، ﴿أو عشيرتهم﴾ فى عمر حيث قتل قريبًا له يومئذ أيضًا، وفى حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة، والوليد بن عتبة يومئذ»[3].

فأنت ترى أنه ـ سبحانه ـ قد نفى الإيمان عمن أعطى مودته لمن عادى الله ورسوله، مهما كانت درجة قرابة هذا العدو، وقال ـ جلَّ وعلا ـ فى المنافقين أو فى اليهود: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾[4]. وهم

(١) انظر: ص٧٥ وما بعدها من هذا الكتاب: مدخل فى الحب فى لله والبغض فى الله.

(٢) المجادلة: ٥٨/ ٢٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٢٩.

(٤) المائدة: ٥/ ٨٠، ٨١.

إنما اتخذوهم أولياء يبتغون عندهم العزة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾(1).

ولذلك نهى الله المؤمنين عن الوقوع في هذا الإثم العظيم، والجريمة الكبرى، والخيانة العظمى، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾(2).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾(3).
وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾(4).

وقال في أول آية من سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ وقال في آخر آية فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾(5). وقبل آية المحنة التي ذكرناها من قبل، وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ نقرأ قبلها بآيتين قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾(6). وحين تتأمل في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾. تدرك أن من أعطى حبه وولاءه لغير الله، فقد برئ الله منه مهما ادعى لنفسه من المحبة لله، والولاية لرسوله

---

(1) النساء: ٤/١٣٨، ١٣٩.
(2) النساء: ٤/١٤٤.
(3) المائدة: ٥/٥١.
(4) المائدة: ٥/٥٧.
(5) الممتحنة: ٦٠/١، ١٣
(6) آل عمران: ٣/٢٨.

وللمؤمنين؛ لأن الله ولى المؤمنين وهم الذين اتخذوا الله ورسوله وكتابه والمؤمنين أولياء، فكانوا مستحقين لهذه البشارة كما أخبر الله عن ذلك فقال: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[1].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[2]. وكانوا جديرين بمحبة الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ وهم إنما قاتلوا فى سبيل الله ومن أجله أعداء الله، أولياء الشيطان، كما أخبر الله تعالى عن ذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[3]. وأولياء الشيطان هم الكفرة الفجرة، وأولياء الطاغوت، عبّاد الأصنام وسائر ما يعبد من دون الله، الذين أعماهم الهوى، وأضلهم الشيطان، وساروا فى ركب الغواية، وهؤلاء قلّ أن تخفى على أحد سيماهم، يقول ربنا فى بيان حال المؤمنين وحال الكافرين: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[4]. ومن كان الطاغوت له وليًا، فلا ولى له؛ لأن الطواغيت التى أولوها حبهم وطاعتهم وعبوديتهم لا تملك لهم نفعًا ولا

(١) يونس: ١٠/ ٦٢-٦٤.
(٢) فصلت: ٤١/ ٣٠-٣٢.
(٣) النساء: ٤/ ٧٦.
(٤) البقرة: ٢/ ٢٥٧.

ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ ولذلك قال ربنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾[1]. وولايتهم لهؤلاء هي ولايتهم للنار، وبئس هذا الولي الذي قاد إلى النار، ولذلك قال تعالى في المنافقين: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾[2]. فهو كما قال تعالى: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾[3]، وإنما قال الله: ضره أقرب من نفعه، مع أن عبادة ما سوى الله لا نفع فيها على الإطلاق، مجاراة للمشركين في ادعائهم بعض المنافع في أصنامهم، وأنها وسائط تقربهم إلى الله زلفى، كما ذكر الله عنهم وأخبر، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، ولذا ردّ عليهم فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾[4].

وهم حين اتخذوا الشياطين وطواغيتهم أولياء، انقادوا لهم انقياد الأعمى، وتسلطت عليهم الشياطين، فأغوتهم وأضلتهم؛ ولذلك قال ـ سبحانه ـ: في بيان من للشيطان عليه سلطان: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[5].

وقال في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[6].

---

(١) محمد: ٤٧/١١.
(٢) الحديد: ٥٧/١٥.
(٣) الحج: ٢٢/١٢، ١٣.
(٤) الزمر: ٣٩/٣.
(٥) النحل: ١٦/٩٨ـ١٠٠.
(٦) الحجر: ١٥/٣٩ـ٤٢.

إن إحساس المؤمن بحبه لله أعظم من كل إحساس، إنه إحساس الرضا، والاطمئنان، والطاعة، والولاء، والعبودية لله، فأهل الإيمان يقولون دائمًا فيما يقولون: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

ويقولون لأهل النفاق ومن خلفهم من أهل الكفر والضلال، الذين يتربصون بهم الدوائر: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾[2]. ومن كان الله وليه فلن يغلبه أحد.

والعاقبة للمؤمنين دائمًا؛ ولهذا نرى آيات القرآن وسط دخان المعارك، ومؤامرات الكفار، تتوالى لتبين ولتذكّر المؤمنين برعاية الله لهم، وولايته لهم، فتقرأ في سورة الأنفال ـ وقد تحدثت عن غزوة بدر ـ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)﴾[3].

كما تقرأ في آيات سورة آل عمران ـ التي تحدثت عن غزوة أحد ـ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾[4]. فإن وجدتَ من يوالي ربه، ومن ينصره وينصر رسله وأولياءه فاعلم أنه صادق في محبته، ينبعث عن حب لربه، ومعرفة به، وإن وجدت من يوالي أعداء الله، ويحارب رسله وأولياءه، وكتابه، فاعلم أنه كاذب في محبته، بل هو الظالم ليس بعده ظالم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم

(١) البقرة: ٢/ ٢٨٦.
(٢) التوبة: ٩/ ٥١.
(٣) الأنفال: ٨/ ٣٩، ٤٠.
(٤) آل عمران: ٣/ ١٥٠، ١٥١.

منكم فأولئك هم الظالمون ﴿٢٣﴾﴾[1]. فاللهم اجعلنا من أوليائك وأحبابك، وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا يا ربنا من الراشدين.

(جـ) من دلائل محبة العبد لربه: الإكثار من ذكر الله:

من أحب شيئًا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه، وأكثر من ذكر كل ما له به تعلق وصلة، وهذه علامة بارزة في محبة العبد لربه، فأنت ترى المحب لله يكثر من ذكر الله، والصلاة على رسول الله، وقراءة كتاب الله؛ ولذلك قال سهيل بن عبدالله: "علامة حب الله: حب القرآن، وعلامة حب الله وحب القرآن: حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ: حب السنة، وعلامة حب السنة: حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة: بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا: ألا تأخذ منها إلا زادًا وبلغة إلى الآخرة - أي ما يبلغه ويوصله للآخرة -".

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: "لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله". وقال سفيان: "من أحب من يحب الله - تعالى - فإنما أحب الله، ومن أكرم من يكرم الله - تعالى -، فإنما يكرم الله"؛ ولهذا أمر الله عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا ﴿٤١﴾ وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿٤٢﴾﴾[2]، وطلب منهم ذلك حتى في أصعب الأوقات، التي تطير فيها قلوب الشجعان فرقًا وخوفًا، وذلك وقت لقاء العدو، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون ﴿٤٥﴾﴾[3].

وجاءت الآيات الكثيرة، والأحاديث تحث على ذكر الله، وتبين

(١) التوبة: ٩/٢٣.
(٢) الأحزاب: ٣٣/٤١، ٤٢.
(٣) الأنفال: ٨/٤٥.

عظم أجر الذاكرين، وترسم منهجًا واضحًا لأهل الإيمان، يجعلهم يلهجون بذكر الله فى كل لحظة، وفى كل حين، قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾[1]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾[2].

ولو تدبرت هذه الآيات وأمثالها، لوجدت أنها تدعونا إلى أن نذكر الله فى كل حال، وألا نغفل عنه فى كل نفس يتردد، وكل عين تطرف، وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله ـ عز وجل ـ أنا عند حسن ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه، ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلىّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلىّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»**، فانظر ـ رحمك الله ـ إلى هذا الحب المتبادل، وهذا الخير الذى فاض من الإله الكريم على الذاكرين.

ولنفقه ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ واللفظ للإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلاء، يبتغون مجالس الذكر، فإن وجدوا مجلسًا فيه ذكر قعدوا معهم، وحفّ بعضهم بعضًا بأجنحتهم، حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء، فإذا تفرقوا عرجوا، وصعدوا إلى السماء، قال: فيسألهم الله ـ عز وجل ـ وهو أعلم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادك فى الأرض يسبحونك،**

---

(١) الأعراف: ٧/٢٠٥

(٢) النساء: ٤/١٠٣.

ويهللونك، ويحمدونك، ويسألونك، قال: فما يسألونني؟ قالوا: يسألونك جنتك، قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا يارب، قال: وكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك؟ قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك يارب، قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا يارب، قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك؟ قال: فيقول: قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا، قال: فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطاء، إنما مر فجلس معهم؟ قال: فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

وإذا كنا نبحث عن المحبين لربهم لنعقد معهم صلات الولاء والحب، فإن الذاكرين لربهم قد برهنوا على حبهم لخالقهم بهذا الذكر، فلا يذكر الإنسان ولا يلهج لسانه إلا بمن أحبه، وصحبتهم فيها من الخير ما لا يخفى، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، وكيف يشقى من جلس فى مجلس تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتتنزل عليه السكينة، ويذكر الله من فيه فيمن عنده، كما ورد بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ؟ وقد ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم والترمذى والنسائى عن معاوية ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، وما من به علينا، قال: **«آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله ـ عز وجل ـ يباهى بكم الملائكة»**.

وإذا كنا ننقب عن علامات المحبة لله، ورأينا أن الذكر لله، والإكثار منه دليل هذه المحبة، فمن الحق أن نلفت الأنظار إلى أدعياء المحبة والذكر، الذين اخترعوا لأنفسهم ولأتباعهم ألوانًا وأشكالا من الأذكار والأوراد،

والضراعات، والتوسلات لم يرد بها كتاب ولا سنة، وربما صاحب مجالس أذكارهم تلك ألوان من الطبول، ومزامير الشيطان، والأشعار، والتصفيق، فترى القوم وقد وقفوا يهتزون فى عنف، ويضربون بأرجلهم الأرض، وينادون الأموات مستغيثين بهم، طالبين منهم المدد والعون، وما هكذا يكون الذكر، وما بهذا يتقرب إلى الله - عز وجل -، فإنه لا يتقرب إلى الله إلا بما شرع، ولا يتقبل الله من أهل البدع والخرافات أمثال هذه الضلالات، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾[1]. ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2].

فلا تلتفت لأمثال هؤلاء، واحذرهم على دينك، ولك فيما ورد فى كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ مرتع مربع، وغُنية عن ترهات المبطلين وبدع المبتدعين، وإذا رأيت من تذكرك بالله رؤيته ويزيد فى عملك لله قوله وفعله، فلذ به، ولا تفرط فى صحبته، فإنه دالٌّ لك على الخير وآخذ بيدك إلى طريق الرشاد.

وإذا أبصرت من يلهج لسانه بذكر ربه، فاعلم أن هذا من المحبين، وأنه فى ذلك يقتدى بإمام المتقين، ورأس الذاكرين، سيدنا ونبينا محمد - عليه الصلاة وأزكى التسليم -، الذى قام الليل حتى تورمت قدماه، وإن نامت عينه بقى قلبه معلقًا بمولاه، ولنا فيه الأسوة والقدوة الحسنة، جعلنا الله من الذاكرين لربهم، المقتدين بنبيهم، المحبين لخالقهم.

---

(١) القصص: ٢٨/ ٥٠

(٢) فاطر: ٣٥/ ٨.

(د) من دلائل المحبة لله: الغيرة لله:

من دلائل المحبة لله: الغيرة له، فتلك علامة بارزة لمن أحبوا ربهم بصدق، وإلا فقل لي بربك: إذا كنت تحب إنسانًا حبًا صادقًا، فهل ترضى أن ترى حرماته تنتهك، وكلامه يسخر منه؟ وأفعاله يتندر بها، ويستهزأ بها؟ ألا تثور وتغضب حين تنطلق الألسنة تنال منه وتحط من قدره وتتعدى فيه حدود الشرف والكرامة؟ إن من لم يغضب لذلك لا يستطيع أن يدعي المحبة لهذا الإنسان مهما قال وأعاد القول، وهكذا المحب لربه، إنه يغار لربه إذا انتهكت حرماته، وضيعت حدوده، واعتدى على شريعته، واستهزئ بكلامه، وعلى قدر غيرتك لربك يكون دينك وإيمانك، ويكون حبك لله رب العالمين، ولذلك لما نزلت آية القذف وفيها: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٥﴾**[1].

قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، لو وجدت مع أهلي رجلا لم أمسه حتى آتي بأربعة شهداء؟؟! قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: كلا، والذي بعثك بالحق إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: **«اسمعوا ما يقول سيدكم، إنه لغيور، وإني لأغير منه، والله أغير مني»**.

وعند الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«تعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»**.

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وإن غيرة الله أن يأتي**

(١) النور: ٢٤/ ٤، ٥.

المؤمن ما حرم الله عليه» والغيرة لله هى الوقود المحرك الذى يدفع إلى الحفاظ على جوهر الدين، ومبادئ الأخلاق، وهى النار المشبوبة فى الوجدان والمشاعر، والتى تحرق الظالمين والمجرمين والمنحرفين عن هدى الله، وهى النور الذى يرشد المجتمعات إذا ما ادلهمت الخطوب، وعميت السبل، وطمست المعالم، فإن خلا منها قلب المؤمن ـ كما يقول ابن القيم ـ: "لم يجاهد، ولم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر، فإنه إنما يأتى ذلك غيرة منه لربه، ولذلك جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ علامة محبته ومحبوبيته الجهاد، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾[1].

وروى الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**.

لقد وصل الإيمان إلى هذه الدرجة حيث فقد صاحبه الشجاعة فى أن يغير بيده أو ينطق بلسانه، فاكتفى بالإنكار بقلبه، وفى هذا المعنى نقرأ فى السنة ما أخرجه الإمام مسلم عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وما جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

وهل ترى أهل الفساد، وحملة دعوة الكفر والضلال، والمعاندين الذين

---

(١) المائدة: ٥/ ٥٤.

يحادون الله ورسوله يرتدعون بمثل هذا الإيمان الباهت، وهذا الإنكار القلبى الذى لا يجدى؟

وهل بهذا الإنكار الضعيف تستقيم الحياة، وتعتدل الأمور؟ يجيب على هذا التساؤل ما رواه الترمذى وأبو داود عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾[1]. ثم قال كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو لتقصرنه على الحق قصرًا**». زاد فى رواية: «**أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضًا، ثم ليلعنكم كما لعنهم**». هذه رواية أبى داود، ورواية الترمذى قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم، وآكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم بما عصوا وكانوا يعتدون، قال ـ أى ابن مسعود ـ: فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئًا فقال: لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرًا**». ومعنى تأطروهم:

---
(١) المائدة: ٥/ ٧٨ـ٨١.

تردوهم إلى الحق ـ وتقصرنه ـ أى تحبسنه وتمنعنه من مجاوزة الحق ـ.

فأنت ترى كيف دخل النقص على بنى إسرائيل، ووصلوا إلى المرحلة التى استحقوا فيها غضب الله عليهم ولعنته لهم، حين تركهم علماؤهم فى معاصيهم ولم تمنعهم هذه المعاصى من مجالستهم ومؤاكلتهم.

وما حدث لبنى إسرائيل يخبرنا رسول الله ﷺ أنه يمكن أن يحدث لنا إن سلكنا سبيلهم وفعلنا ما فعلوا، والأمة كلها مأمورة أن تقوم بهذا الواجب، فإن ذلك هو مظهر وجودها الذى يميزها فى التاريخ البشرى، ولنقرأ فى ذلك قول الله ـ تعالى ـ فى سورة آل عمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

وإن عدم القيام بهذا الواجب يعرض الأمة كلها للخطر. روى أبو داود والترمذى عن قيس بن أبى حاتم ـ رضى الله عنه ـ قال: قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها: **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾** وإننا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: **إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب**»، وإنى سمعت رسول الله ﷺ

(١) آل عمران: ١٠٤/ ١١٠.

يقول: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا ولا يغيرون إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب»[*].

ولعل ما نحن فيه من تمزق وضياع، هو بعض هذا العذاب الذى توعد الله به من سكتوا على المنكر ورضوا به، ولعل ما تعانيه أمة الإسلام من تسلط الظلمة على رقاب العباد، هو مصداق ما أخبر به الصادق المعصوم ﷺ: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»[1].

فغيرةً لله على محارمه، ودرءًا لأهل الباطل، وإحقاقًا للحق، وإزهاقًا للباطل لابد من غضبة لله، فإن الغيرة لله من دلائل الحب له، وأقل مراتب هذه الغيرة أن تغار لربك من نفسك، فلا تسر مع هواها، لأنه يرديك ويهلكك، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾[1]. وإذا فقد المؤمن هذه الغيرة فَقَدْ فَقَدَ أهم دليل على محبته لربه، بل ربما فقد الإيمان نفسه، فاللهم اعصمنا من الزلل، وجنبنا عثرات الطريق، وارزقنا الغيرة لك، ولدينك ولكتابك فإنك نعم المجيب.

(هـ) من دلائل محبة العبد لربه: الاجتهاد في رضا الله:

ومن دلائل محبة العبد لربه: الشعور بالرضا، وهو يبذل ما يبذل، مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة.

والمحبون في هذا درجات: فأولهم هو الذى يبذل ذلك بشيء من المشقة والتكلف، فإن قويت المحبة بذله رضا وطوعًا، وهذا هو الثاني

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة.

(١) النازعات: ٧٩/ ٣٧-٤١.

والثالث: إنما يكون إذا تمكنت المحبة من قلبه كل تمكن، فيكون بذله سؤالا، وتضرعًا، كأنه يأخذه من المحبوب، وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ الذى وقوه بأنفسهم وتترسوا دونه، متعرضين لسهام الأعداء، لا يبالون الموت، ولا يكترثون بالهلاك، حبًا فى رسولهم، الذى اختلطت محبته بأرواحهم ودمائهم، فكانوا بهذا الحب من أهل الصدق فى الإيمان، وقد قال ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**، فأنت تراهم - رضوان الله عليهم - قد بذلوا أرواحهم ودماءهم وأموالهم وأبناءهم لرسول الله ﷺ، ونصرة لدين الله، وحماية لدعوة الإسلام، وهذا هو سيد الأنصار سعد بن معاذ - رضى الله عنه - يقول لرسول الله ﷺ يوم بدر فيما قال: "... لعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فما أخذت منها أحب إلينا مما تركت". ومن قوله - رضوان الله عليه - فى هذا المقام حين قال رسول الله ﷺ: **«أشيروا على أيها الناس»** فقال سعد: "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: **«أجل»**، فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر فى الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله".

إنها لغة المحبة الصادقة، ولهجة الإيمان الحق، هى التى عبرت عن هذه المشاعر الجياشة لأصحاب رسول الله ، وجعلتهم يستهينون بالموت مادام فيه رضا المحبوب، ولذلك سُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد وظهر البشر

في وجهه الشريف، وقال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ـ العير أو النفير ـ والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

وقد قال قيس الأنصاري فيما كان من أمر الأنصار مع رسول الله ﷺ:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يُذَكِّر، لو يلقى حبيبًا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسرورًا بطيبة راضيا
بذلنا له الأموال من حِلِّ مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعًا، وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله، لا رب غيره ... وأن رسول الله أصبح هاديا

وهكذا المحب يقدم كل ما يملك، بل وأعز ما يملك؛ ليحظى برضا محبوبه ولا يجد في صدره حرجًا أو ضيقًا، بل يشعر بفرحة غامرة، وسعادة لا تحد وهو يرنو إلى حبيبه، فيلمح في عينيه الرضا، وعلى وجهه البشر والسرور، وقد قال تعالى في الثناء على الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ـ أي من قبل المهاجرين ـ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾[1].

وإذا كان هذا في محبة إنسان لإنسان، فكيف به إذا كان في محبة الكريم المنان، صاحب الجود والإحسان، الإله الرحيم الرحمن، إنه حب بلغ النهاية، والتضحية في سبيله ألذ عند المحبين له من كل لذائذ الحياة، والمحبون يقطعون الطريق لربهم في قوة وثبات، ورضا واطمئنان، يواظبون

(١) الحشر: ٥٩/٩.

على الطاعات، ويتقربون إليه بالنوافل حتى يحظوا بمحبته، وهم فى ذلك لا يشعرون بسآمة أو ملل؛ ولذلك قال بعضهم: العمل على المحبة لا يدخله الفتور، فإذا وجدت من يجتهد فى رضا مولاه، ومن يضحى من أجل ربه بما ملكت يداه، ومن يجود بنفسه لا يضن بها على من خلقه فسوّاه، فاعلم أن هذا من المحبين لربهم، ومن أمثلة هؤلاء: شهداؤنا الأبرار، الذين أقبلوا على الموت حين علموا فيه رضا ربهم، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1].

(و) من علامات المحبة: الحرص على الوقت أن يكون كله فى طاعة الله:

ومن دلائل المحبة وشواهدها تأسفك على كل لحظة ونَفَس خلت من ذكر الله وطاعته وعبادته، وعدم حزنك على ما فاتك من حظوظ الدنيا، فإن حظوظها إلى زوال، فالمحبون أحرص الناس على أوقاتهم، لا يغفلون عن إلههم الذى أحبوه أبدًا، وإن غفلوا لحظة واحدة رجعوا من غفلتهم تائبين منيبين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[1].

والمحبون يدركون قيمة الوقت، فهو أعز شيء عليهم، يغارون أن ينقضى بدون الإقبال على الله، وعكوف القلب على العبودية له والإخلاص إليه، فالوقت الذى يفوت لا يمكن استدراكه؛ لأن الوقت الثانى قد استحق واجبه الخاص، يقول صاحب "مدارج السالكين" العلامة ابن قيم الجوزية: "فالوقت منقضٍ بذاته، منصرمٌ بنفسه، فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته، واشتدت حسراته، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع، وطلب الرجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع، وطلب تناول الفائت، وكيف يرد الأمس فى اليوم الجديد، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[3]؟

(١) الأحزاب: ٣٣/٢٣.
(٢) الأعراف: ٧/٢٠١.
(٣) سبأ: ٣٤/٥٢.

ومنع مما يحبه ويرتضيه، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغى للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه:

فيا حسرات ما إلى رد مثلها سبيل، ولو ردت لهان التحسر
هى الشهوات اللاءِ كانت تحولت إلى حسرات حين عز التصبر
فلو أنها ردت بصبر وقوة تحولن لذات، وذو اللب يبصر

ثم يقول: "فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك فإنه عائد عليك لا محالة، لهذا يقال للسعداء: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾[١]. ويقال للأشقياء: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥)﴾[٢].

وما أكرمها من نصيحة، وما أجلها من موعظة، وقد قال بعض البلغاء: لا تمض يومك فى غير منفعة، ولا تضع مالك فى غير صنيعة - أى معروف - فالعمر أقصر من أن ينفذ فى غير المنافع، والمال أقل من أن يصرف فى غير الصنائع، والعاقل أجلّ من أن يفنى أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره، وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره.

وأبلغ من ذلك قول «عيسى» - عليه السلام -: البر ثلاثة: المنطق، والنظر، والصمت، فمن كان منطقه فى غير ذكر فقد لغا، ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها».

فالمحبون لا تمر بهم الأوقات عبثًا، إنهم فى شغل دائم بربهم، وهم ينظرون إلى من تلهوا بالدنيا فشغلتهم عن ربهم كما ينظر الرجل العاقل إلى

---

(١) الحاقة: ٦٨/ ٢٤.

(٢) غافر: ٤٠/ ٧٥. وانظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، جـ٣ ص٥٠.

الصبيان والأطفال وهم مشغوفون مسروورون بلعبهم. ورحم الله عمر بن عبدالعزيز الذى كان يتمثل بهذه الأبيات:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم، والأسى لك لازم

تسر بما يفنى، وتفرح بالمنى ... كما سر باللذات فى النوم حالم

وشغلك فيما سوف تكره غبه[1] ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وقد قال أبو تراب التخشبى، فى علامات المحبة لله:

لا تخدعن، فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل

منها: تنعمه بمر بلائه ... وسروره فى كل ما هو فاعل

فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل

ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل

ومن الدلائل أن يرى متبسمًا ... والقلب فيه من الحبيب بلابل

ومن الدلائل أن يرى متفهمًا ... لكلام من يحظى لديه السائل

ومن الدلائل أن يرى متقشفًا ... متحفظًا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ:

ومن الدلائل أن تراه مسافراً ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل، والنعيم الزائل

ومن الدلائل أن تراه باكيًا ... أن قد رآه على قبيح فعائل

ومن الدلائل أن تراه مُسَلِّمًا ... كل الأمور إلى المليك العادل

ومن الدلائل أن تراه راضيًا ... بمليكه فى كل حكم نازل[1]

---

(١) غبه: أى مغبته وعاقبته.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، لأبى حامد الغزالى: ٤/٣٣٩.

(ز) من علامات المحبين لربهم: الذلة على المؤمنين، والعزة على الكافرين:

الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين أول صفة يذكرها الله ـ تعالى ـ لعباده، الذين اختارهم لحماية دينه، بعد أن وصفهم بأنه يحبهم ويحبونه، وهما فى الحقيقة صفتان متلازمتان، وهما يأتيان قبل وصفهم بأنهم يجاهدون فى سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم.

والواقع أن الصفات الست المذكورة فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾ تكاد تكون مرتبة، وإن كانت الواو كما يقول النحاة لا تقتضى ترتيبًا ولا تعقيبًا، لكن القرآن حين يذكر أمرين أو عدة أمور، ويقدم بعضًا منها على بعض، فإنما يكون ذلك لحكم وأسرار، علينا أن نبحث عنها وأن نتدبرها، وفى الآية التى معنا ترون أن محبة الله لعبده هى الأصل، وهى الأساس، وإذا أحب الله عبدًا ألقى فى قلبه محبته، فتكون أول علامة له التواضع للمؤمنين، والعزة على الكافرين، وإذا كان عزيزًا على الكافرين رحيمًا بالمؤمنين دفعه ذلك إلى الجهاد فى سبيل الله، وإذا كان قد حمل سلاحه مجاهدًا فى سبيل الله، فإنه بلا ريب رجل شجاع شهم، لا يرضى بالهوان، ولا يطأطئ أمام ظلم الظالمين ولا يداهن فى دين الله، ينطق بكلمة الحق، ويتحمل كل تبعاتها، ولا يخاف فى ذلك لومة لائم، فكل صفة من هذه الصفات ـ إذن ـ وجه مشرق لهؤلاء القوم الكرام البررة.

ونحن الآن مع وصف الله لهم بالذلة على المؤمنين، والعزة على الكافرين. فما معنى الذلة على المؤمنين؟ وما هو مصدرها؟ وما هى أهم مظاهرها؟ **الذلة على المؤمنين**: الخضوع لهم، والتواضع لهم، ولين الجانب، وسرعة الانقياد فى أدب ورقة وخفض جناح، حتى ليشعر من يراك

أنك تتذلل لأخيك من شدة وقارك، وتواضعك له، يقول أهل اللغة: ذل ذلا، وذلة، ومذلة: ضعف وهان، فهو ذليل، وهى ذليلة، والجمع أذلاء، وأذلة وذلال وذل له: خضع، وذلت الدابة: سهلت وانقادت، والذلول السهل الانقياد.

وهذا الخضوع والانقياد واللين مصدره القلب الخافق بالرحمة، المستنير بنور الله، فكلما امتلأ القلب بالحب والرحمة كلما فاض برًا وعطفًا وودًا وحبًا وتواضعًا على أهل الإيمان، ومثل هذه الصفة ما جاء فى آخر سورة الفتح من قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]. فهى الرحمة ـ إذن ـ تلك التى ظهرت آثارها وبركاتها فى هذا السلوك الحيى، وذلك التواضع الذى بلغ الغاية، ويعبر عن ذلك أيضًا قوله تعالى وهو يوجه الأبناء إلى ما يجب عليهم تجاه آبائهم، فيقول: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[2]. فهو يأمر الأبناء بخفض جناح الانكسار والذل والتواضع لآبائهم، وكأن الإبن طائر يضم صغاره تحت جناحه، فلا يفرط ولا يتوانى فى الحفظ لصغاره، ومصدر ذلك إنما هو الرحمة، الرحمة التى تجعل صاحبها على هذا المنوال من الخلق الفذ الكريم، خلق التواضع، والشفقة، والرحمة، والبر بإخوانه من أهل الإيمان، وفى مقدمة هؤلاء أحق الناس بالبر والرحمة: الأبوان.

وقد جمع رسول الله ﷺ من هذا الخلق أعلاه، فهو الذى مدحه الله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[3]. إذ يقول ربنا فى صفة هذا الرسول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[4].

---

(١) الفتح: ٤٨/ ٢٩. (٢) الإسراء: ١٧/ ٢٤.

(٣) القلم: ٦٨/ ٤. (٤) التوبة: ٩/ ١٢٨.

ويقول له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[1]. ويقول: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾[2].

ولنا فى رحمة رسول الله بأمته وحدبه وشفقته على الخلق الأسوة الحسنة، فإن الأسوة الحسنة ـ كما ذكرنا من قبل ـ من أدلة الحب لله، وعلى هذا فإن خفض الجناح للمؤمنين ورقة المشاعر نحوهم والعفو عن هفواتهم، والاستغفار لهم، واستشارتهم فيما يعنٌ لك من الأمور، كلها أخلاق تدل على الرحمة بالمؤمنين.

وهناك الكثير من هذه الأخلاق التى تنبع من هذا المعين المبارك، منها التواضع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾[3]. وقال رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم عن عياض بن حماد ـ رضى الله عنه ـ: **«إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»**. وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما نقصت صدقة من مال، ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»**[4].

ومنها الرفق بالمؤمنين، فقد قال رسول الله ﷺ: **«إن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شانه»، وقال: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»**.

ومن هذه الأخلاق: القيام بحقوقهم، وعدم الإضرار بهم، وعدم

(١) آل عمران: ٣/ ١٥٩.
(٢) الشعراء: ٢٦/ ٢١٥.
(٣) الإسراء: ١٧/ ٣٧.
(٤) هذا الحديث والذى قبله رواهما الإمام مسلم.

الشماتة بهم، والاهتمام بشئونهم، وقضاء حوائجهم، ودفع العدوان عنهم، إلى غير ذلك مما يدل على تمكن صفة الذلة فى المؤمنين من نفس المحب لله، وليتك تستطيع - إن كنت تحب الله حقًا - أن تقوم بخدمة من تستطيع من المسلمين، وبخاصة الضعاف منهم من العجزة والأرامل والشيوخ الطاعنين فى السن، وأهل الصلاح والتقى، فإن ذلك يهضم فيك كل نزعة كِبر، ويقربك إلى الله فتفوز مع الفائزين، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يخدم أصحابه ما وجد إلى ذلك سبيلا، وكان أصحابه يتسابقون إلى خدمة العجزة والشيوخ، ويخدم بعضهم بعضًا، لا يشعرون فى ذلك بأدنى حرج، فكانوا كما عبر الرسول الكريم ﷺ: **«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»**.

وهؤلاء الذين وجدتهم على هذا النحو فيما بينهم، انظر إليهم فى مواجهة أعداء الله، إنهم كما قال الله: **﴿أعزة على الكافرين﴾** وكما قال: **﴿أشداء على الكفار﴾** والعزة هى: القوة والغلبة، والحمية والأنفة، كما يقول أهل اللغة، وهذه العزة من المؤمنين على الكافرين، تراها واضحة جلية حين تستعرض آيات القرآن الكريم وتقرأ فى السنة المشرفة، وتستنطق تاريخ المسلمين فى علاقتهم بالكافرين سواء كانوا محاربين أم ذميين، إنها علاقة القوة والغلبة والحمية والأنَفَة، لا علاقة الاستخذاء والمذلة والهوان، التى أصبحت سمة من سمات من انتسبوا للإسلام فى عصورهم الأخيرة، وكأن الموازين قد انقلبت فى حقهم، فأصبحوا أعزة على المؤمنين، أذلة فى الكافرين، أو كما قال القائل:

أسد على وفى الحروب نعامة   فتخاء تنفر من صفير الصافر

ولنقرأ بعض ما جاء فى كتاب الله عن علاقة المسلم بالكافرين المحاربين، والتى تبين كيف تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، يقول تعالى: **﴿يا أيها الذين**

آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾[1]، ويقول: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾[2]. ويقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾[3].

وهؤلاء هم أصحاب سعد بن أبى وقاص فى القادسية، الذين دخلوا على رستم قائد جيش الفرس، وهو فى أوج مجده وكبره وسلطانه، فلقنه كل واحد منهم درسًا من دروس العزة والكرامة الإسلامية، وسألهم الواحد تلو الآخر: ما الذى جاء بكم؟ فكان الجواب: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله منا قبلنا منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر ـ أى الانتصار عليه ـ!

وإنها لعزة المؤمنين على الكافرين تمثلت فى هذا الرهط الكريم الذى أعز الله به دينه وأعلى كلمته.

فإن وجدت من يتصف بهاتين الصفتين: الذلة على المؤمنين، والعزة على الكافرين، فاعلم أنه قد تحقق بصفتين من صفات المحبين لربهم، وهو جدير بمحبة الله ومحبة المؤمنين.

---

(١) التوبة: ٩/ ١٢٣.
(٢) محمد: ٤٧/ ٤.
(٣) الأنفال: ٨/ ٣٩.

خاتمة الجزء الأول

«وبعد»

فهذا هو الجزء الأول من المسلم فى عالم اليوم، اشتمل - كما ترى - على بابين: الأول: الأخوّة وحقوقها، والثانى: فى الحب فى الله، ومن نحبهم فى الله. ويتلوه بإذن الله - الجزء الثانى، وفيه: الباب الثالث: البغض فى الله ومن نبغضهم فى الله، والباب الرابع: ركائز فى حياة أهل الإسلام. والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن يحقق به الآمال، والحمد لله رب العالمين..

أ.د. عبدالفتاح عاشور

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	
الفصل الرابع: والله يحب الصابرين	١٦٩
١ـ الصبر على الطاعات:	١٧١
أ ـ الصلاة	١٧١
ب ـ الزكاة	١٧٥
جـ ـ الصوم	١٨٠
د ـ الحج	١٨٤
هـ ـ الجهاد فى سبيل الله.	١٨٧
٢ـ الصبر على الإيذاء فى سبيل الحق	١٩٤
٣ـ الصبر على ما يصيب المؤمن فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر	١٩٩
٤ـ الصبر عن المعاصى	٢٠٤
٥ـ الصبر على البلاء	٢٠٩
٦ـ دوافع الصبر	٢١٤
الفصل الخامس: محبة الله للشاكرين	٢٢٣
الفصل السادس: إن الله يحب المقسطين:	٢٤١
١ ـ العدل فى شموله وضوابطه	٢٤٤
٢ـ الوالى العادل وما له من ثواب	٢٤٨
الفصل السابع: إن الله يحب المتوكلين	٢٥٥
١ ـ لماذا نتوكل على الله؟	٢٥٧

الصفحة	الموضوع
٢٦٤	٢ـ مع الأنبياء والصالحين فى توكلهم على ربهم
٢٦٩	٣ـ نبينا محمد ﷺ قدوة المتوكلين على ربهم
٢٧٤	٤ـ الإسلام يدعو إلى العمل ويرفض التواكل
٢٧٧	٥ـ وقفة متأنية مع المتواكلين
٢٨١	٦ـ هل من عودة إلى التوكل على الله أيها المتواكلون؟
٢٨٥	**الفصل الثامن: إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص:**
٢٨٧	١ـ مع المجاهدين فى سبيل الله
	٢ـ وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة
٣٠٠	٣ـ متى يكون الجهاد فرض عين على أمة الإسلام
٣٠٩	**الفصل التاسع: فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه:**
٣١١	١ـ محبة الله لعبده
٣١٦	٢ـ محبة العبد لربه
	٣ـ من دلائل محبة العبد لربه :
٣٢١	أ ـ الاتباع للرسول ﷺ
٣٢٦	ب ـ بغض أعداء الله
٣٣٢	جـ ـ الإكثار من ذكر الله
٣٣٦	د ـ الغيرة لله
٣٤٠	هـ ـ الاجتهاد فى رضا الله
٣٤٣	و ـ الحرص على الوقت أن يكون كله فى طاعة الله
٣٤٦	ز ـ الذلة على المؤمنين ، والعزة على الكافرين
	تم بحمد الله.